

ملء السلة من ثمر المحلة



تأليف
عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الأول
الطبعة الأولى - ١٤١٩ هـ

مَلَأُ السَّلَّةَ مِنْ
ثَمَرِ الْمَجَلَّةِ

الجزء الأول

تأليف
عبدالعزیز بن عبد الله الخویطر

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

٢٠ عبدالعزيز بن عبداللّٰه الخويطر ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبداللّٰه .

ملء السلة من ثمر المجلة . - الرياض .

٤٠٨ ص ؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .

ردمك : ٢-٢-٩٠٤٨-٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية

أ- العنوان

١٩/٠٦٩٧

ديوي ٨١٤,٩٥٣١

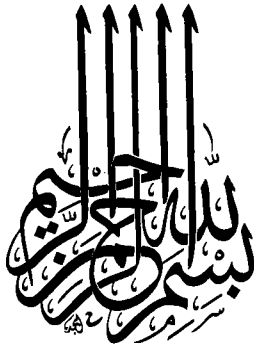
رقم الإيداع : ١٩/٠٦٩٧

ردمك : ٢-٢-٩٠٤٨-٩٩٦٠

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٨م - ١٤١٩هـ



مقدمة

خدمةً لتراثنا الغالي، وإبرازاً لجواهره الثمينة، وإظهاراً للألئله المكنونة القيمة، وتبياناً لكنوزه المخبأة النادرة، كُتِبَتْ هذه المقالات، وكل واحدة لها هدف مقصود، وغرض معين، وفائدة مرجوة، ونفع مؤمل، وغاية نبيلة، يكمن وراءها نية حسنة، وعزم صادق، وجهد متواضع؛ فهذه المقالة عن المجتمع، وأحزانه، أو أفراحه، ما كان فيه معتاداً، وما كان طارئاً؛ وتلك المقالة عن اللغة، قوتها أو ضعفها، مؤداها الصريح، أو ما ترمي إلى الخفي منه، الإتيان بها على وجهها، أو التلاعب ببعض فنونها، ووسائل المحافظة عليها، وحمايتها، والغيرة عليها، أو التهاون تجاهها، أو التقصير في حقها. وبعض المقالات تلمس جانباً من جوانب الدين، اعتنى به

الناس ، فاستوجب الدعاء لهم بالشواب ، أو
أهملوا فنبّه عليهم ، ورُجي لهم العودة إلى
الطريق الأفضل . ولا تكاد تُحصر الأهداف
والأغراض التي لمستها المقالات ، فهي تأتي
حسب ما يريد الله لها أن تأتي إلى الذهن ،
فتستوجب الإلتفات .

هذه المقالات جاءت متتابعة في كل من المجلة
العربية ومجلة الفيصل ، وقد بدأت كتابة هذه
المقالات بدعوتين كريمتين من الأخوين
العزيزين الصديقين ، رئيسي تحرير هاتين
المجلتين ، إذ حمدت للأخوين دعوتهما ، لأنها
تساعدني على نفسي ، فتجعلني ألتزم بالوفاء
بالكتابة في الموعد المحدد ، وبالموضوع الذي
اخترته لخدمة التراث ، في محاولة نشر ما فيه من
ذخائر قد لا يعرف عنها بعض الناس ، إما لبعدها
عن حقول تخصصهم ، أو لصعوبة الوصول

إليها في مظانها من الكتب المخطوطة، أو المطبوعة، أو للطباعة المنفرة التي طبعت بها، أو لصرف وقتهم لما هو أقرب للترفيه من الغوص على هذه الدرر في بحارها اللج، أو في مناجمها المصمتة.

والتراث طافح بالنصوص المضئية، الحاملة لثمر يانع من دوحات الحضارة التي زرعها آباؤنا في مجتمعاتهم، تكشف عن جوانب فكرهم، وعمقه، وبعده في التبصر، والتدبر، والاستفادة مما يقرؤون أو يجربون، وفيها صور لحياتهم اليومية المعتادة، التي صبغها الدين، وما تبلور منه من عادات وتقاليد، رضوها، وبثوها، وحافظوا على صورها المقبولة؛ وفيها سجل لما مر بهم من أحداث قابلوها بما حكموا بأنه الأصوب حلاً، والأقوم مخرجاً، نتيجة تفكير متأنٍّ سليم، أو تجربة

ساهمت زبدتها بتسيير مركب الفكر، وهو يقودها بين شعاب بحر مصطخب. ومع المعاناة المتتابة في معالجة ما يأتي عليهم في زمانهم أصبح عندهم قواعد ثابتة، بإمكاننا أن نختار منها، وأن نتبنى ما يصلح لمجتمعاتنا منها، أو ما يمكن تطويره إلى ما ينفع.

وقد جاء ما اختير من التراث، لعرضه هنا، منوعاً، وعفو الخاطر، وابن الساعة، ولم تحبس الأفكار في سلك خائق، يتحدث عن أمر، ثم منه إلى ما له به صلة، بل ترك العنان على الغارب، فمن عَرَضٍ لأمر في اللغة، إلى عادة حسنة، والأمل في هذا أن يبعد الملل، ويجعل النشاط متجدداً، والرغبة لمتابعة القراءة قوية وثابتة. ومن فتح نافذة على الشيب والشكوى منه، وبيان حسناته، وإظهار سيئاته، إلى الحلية، ووسائل الزينة، وما يتصل بها، إلى المرأة

وأموورها، أو الرجل وأموره، إلى الشعر
وجماله، وهكذا تقليداً للنحلة تنتقل من زهرة
إلى زهرة.

ولأن الحديث عن التراث، ومن التراث،
والمصدر التراث، ولأن آباءنا، في تلك الأزمان،
فيما ألفوه من الكتب، التي أصبحت اليوم
تراثاً، وتراثاً ثميناً، أيّاً كان نوعها، وأياً كان
موضوعها، كانوا يحرصون على أن يأتي العنوان
مסجوعاً، وغالباً ما يحتوي على استعارة، أو
محسناً ما من المحسنات البديعية، أسهل للتذكر،
وأشرف للتعبير، وأبين عند الملاحظة، وفيه
كشف لمآح للمحتوى، حتى صارت العناوين
في بعضها أعلاماً على الكتب، لا يُحتاج معها
إلى ذكر المؤلف. ولقد وجدت، على هذا، أن
من الوفاء للموضوع، ولاتجاه آبائنا، والتصاقاً
بكل ما في التراث أن أجعل عنوان هذا الكتاب،

الذي أرجو أن يصبح مع الوقت ، وعون الله ،
وتوفيقه - سلسلة من الأجزاء - على نسق
عناوينهم ، وسوف يسعني ما وسعهم ، «وتشبهوا
إن لم تكونوا مثلهم» ، وسميته ، من أجل هذا
«ملء السلة من ثمر المجلة» .

أرجو أن يجد القارئ أن السلة قد ملئت بما
يفيد ، وأن يكون بين ثمرها رطب جني ، وفاكهة
ناضجة ، لا حشفاً ، ولا ما هو فج لم ينضج ؛
وآمل أن يؤدي جمعها في كتاب ما قُصد من
هدف ، وما أُمِّل من فائدة ، وأن يزيد النفع
بهذه الصورة ، عن الصورة السابقة ، عندما
كانت منجمة في مقالات زمنها متباعد .

وأرجو ، أيضاً ، أن يمد الله في العمر ، وأن
يسبغ نعمة العافية ، وأن يمن بالرضى ، فلا
يقف الجهد عند سلة واحدة ، ولكن سلة يتبعها
سلات . وبالله التوفيق .
عبد العزيز الخويطر

المقالات المنشورة
في المجلة العربية

رقة أهل الحجاز^(١)

اختار الله مكة لبيته ، فبناه إبراهيم وإسماعيل ،
ورفع أعماده ، وأنبع الله في هذه البقعة الطاهرة
ماء زمزم الذي فيه شفاء للناس ، فأقبل الأنس ،
وزالت الوحشة ، وصِفَة القفر ، وسكنه القبيل
بعد القبيل ، وصار من محطات القوافل المهمة
بين الشمال والجنوب ، فمر به من مر ، وأقام
به من أقام ، وتبودلت فيه البضائع ، وازدهر
بالخير ، وحماه الله من الشر ، ومن كيد الفيل
وصاحب الفيل .

هذا المركز الذي احتلته مكة أضفى على أهلها
أهمية ، وميزهم بخُلُق ، نضج مع التقاء حضارة
الشمال مع الجنوب ، في جزيرة العرب ، وبما
اختاره أهل مكة من خلق البادية القويم ، وما
تركوه من العادات المعوجة ، فكان لأهل مكة

(١) نشرت في المجلة العربية بعدد ربيع الأول ١٤١٤ هـ .

تميز عن غيرهم ، ونُظر إليهم نظرة تقدير واحترام .
وجاء الإسلام فأضفى على مكة من الاحترام
والتبجيل ما جعلها قبلة المسلمين في شرق
الأرض وغربها ، وهفت إليها أفئدة الناس ،
وجاؤوها من كل حذب وصوب ، فالتقت
فيها الحضارات القديمة من الهند والصين
والعراق وفارس وبلاد الروم ومصر ، وامتزجت
هذه الحضارات داخل إطار الدين السمح ، فلم
تزد أهل مكة إلا رقة على رقتهم .

وأصبح مجتمع مكة فريداً في تكوينه ، ووجدت
فيه عادات متنوعة ، وأنماط من مظاهر المجتمعات
سرعان ما انصهرت في بوتقة واحدة ، جعلت
لأهل مكة وعادات مكة نمطاً متميزاً ، محموداً
في كل مظهر من مظاهره ، ولا غرو فهم جيران
البيت ، ومنظره يكفي أن يجعلهم دائماً في
حدود خلق الدين .

ورقة أهل مكة ثابتة ليست بمعايرنا اليوم
فقط ولكنها بمعاير أناس قبلنا، بنوا رأيهم
على ملاحظات دقيقة، وخير من يؤخذ قوله في
هذا رجل عرف بالتقوى، وتبعه مريدون في
اختيار طريقه، وقد أصدر حكمه على أهل
الحجاز مقارناً لهم بأهل العراق في زمنه:

«خرج أبو حازم يرمي الجمار، ومعه قوم
ناسكون، وهو يحدثهم، فبينما هو كذلك إذ
نظروا إلى امرأة من أجمل الناس، تتلفت يمنة
ويسرة، وقد شغلت الناس، وبهتوا ينظرون
إليها، وخاض بعضهم في بعض، فقال لها
أبو حازم: «يا هذه إتق الله، فإنك في مشعر
من مشاعر الله، وقد فتنت الناس، فاضربي
على جبينك بخمارك، فإن الله تعالى يقول
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوهِنَّ﴾^(١)، فأقبلت

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

تضحك من كلامه ، وقالت : « يا هذا إني ممن
قال فيه الحارث بن خالد :

أماطت كساء الخز عن حُرّ وجهها
وأرخت على الكشحين برداً مهلاً
من اللاء لم يحججن يبغي حِسبةً
ولكن ليقتلن البريء المغفلاً

فأقبل أبو حازم على أصحابه ، فقال :
يا هؤلاء ، تعالوا ندع الله ألا يعذب هذه الصورة
الحسنة بالنار» ، فجعل يدعو ، وأصحابه
يؤمنون .

وبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقال : أما
والله لو كان بعض بغضاء أهل العراق لقال لها
اغربي - قبحك الله - ولكنه ظرف عباد الله أهل
الحجاز» .^(١)

(١) تحفة العروس : ١٧٠ ، والكشكول : ١ / ٢٦٥ .

الحصاة لها حلق^(١)

أعجبني رد أورده صاحب كتاب «العقد الفريد» على سؤال ساذج مضحك ، سأله شخص ينقصه الذكاء ، والفهم ، والإدراك : سأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه ، أو في خفه ، أو في جبهته ، من حصى المسجد . فقال : إرم بها .

قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى تُردَّ إلى المسجد .

فقال : دعها تصيح ، حتى ينشق حلقها .

فقال الرجل : سبحان الله ! أولها حلق ؟

قال : فمن أين تصيح ؟ ! .^(٢)

هذه فتوى تشبه فتاوي الشعبي ، فيها تهكم يتناسب مع عقل السائل ؛ وفي هذا النص من

(١) نشرت في المجلة العربية بعد ربيع الآخر ١٤١٤ هـ .

(٢) العقد الفريد : ٢ / ٢٢٥ .

التراث عدة ملاحظات، أبرزها الإشارة إلى تنطع بعض الناس، وتشديدهم على أنفسهم فيما سهل الله عليهم من أمور حياتهم، وأمور دينهم، وميلهم إلى أشياء لا تتناسب مع روح الإسلام، وصفاته، وسماحته، وبعده عن الأشياء التي تتنافى مع العقل والخلق، والتي هي أقرب إلى أن تكون مضحكة عن أن تكون جادة.

وثانيها: سهولة ختل الناس السذج، وإيقاعهم باسم الدين فيما ليس منه، استغلالاً لقوة إيمانهم، وضعف علمهم.

وثالثها: أن هذا الجواب موفق لمثل هذا السؤال، وهو جواب يلجأ إليه بعض نابهي العلماء، خفيفي الروح، ويجدون فيه الجواب المفصل تفصيلاً متقناً لمثل هذا الاستفسار. ويدخل في نطاق هذا الجواب، بروحه المرححة،

بعض الأجوبة التي أجاب بها بعض سائليه
الشعبي :

سأله رجل عن المسح على اللحية؟
فقال : خللها بأصابعك .
فقال الرجل : أخاف أن لا تبلها .
قال الشعبي : إن خفت فانقعها من أول
الليل .

وسأله آخر : هل يجوز للمحرم أن يحك
بدنه؟

قال : نعم .
قال : مقدار كم؟
قال : حتى يبدو العظم .
وسمع رجل الحديث المنسوب للنبي ﷺ :
«تسحروا ولو بأن يضع أحدكم إصبعه على
التراب ، ثم يضعها في فمه» .

فقال الرجل للشعبي : أي الأصابع ؟
فتناول الشعبي إبهام رجله ، وقال : هذه .^(١)
لا أشك في أنَّ كثيرين سيعجبون مثلي بهذه
الردود ، ويقدرونها ، وما لهذه الاستفسارات
إلا مثل هذه الأجوبة .

* * *

(١) المراح في المزاح : ٣٤٠ .

صور من الألم^(١)

كثيراً ما تستوقف المرء أمور يسمعها أو يقرأها تعيده سنوات وسنوات إلى ماضيه، وماضيه قد يعيده إلى ماضٍ أبعد، فعندما تتداعى الذكريات لا يوقف تداعيتها شيء، ولا يعيق تسلسلها عائق؛ فذكرى تقود إلى ذكرى، وهذه تؤدي إلى أخرى، وتقطع صحراء سنوات طوال عائداً إلى الوراء، أو سهولاً وغابات، متلذذاً بالذكرى أياً كان نوعها، مؤلمة كانت أو مفرحة، فهي قد انتهت، وانقضت؛ لذة الحلو منها يأتي من اجتراح لحظات الهناء والفرحة التي كانت فيها، واستعادتها في الذهن بما بقي منها من تفاصيل، يجترها الإنسان اجتراح الحيوان لغذاء شهى. ولذة المر منها هي بانتهاء عهده، وطى صفحته، وبعده وعهده، وكلما بُعد ذلك العهد

(١) نشرت في المجلة العربية في جمادى الأولى ١٤١٤ هـ.

زادت لذة تذكره .

وقد لا تكون الذكرى هي بعينها مرت
بالإنسان نفسه ، ولكنها حدثت لإنسان آخر ،
وعلم هو عنها ، ولكن ما حدث للشخص الآخر
بظرفه ومحيطه يأتي للمتأمل بذكريات معاصرة
من بيئته تذكر بالصورة في البيئة الماضية ، وتجعل
المرء يقارن بين ما كان الناس عليه في يوم من
الأيام ، وما هم عليه اليوم ، وكيف أن الصور
تلاشت ، وأصبحت تاريخاً لا يتصوره ، ولا
يعرف أبعاده ، إلا من عاش في ذاك الزمن ،
وكابد شدائده ، وذاق مرارة ظروفه .

قرأت بيتين في كتاب : «تمام المتون في شرح
رسالة ابن زيدون»^(١) لخليل بن أيبك الصفدي ،
فأعاداني - ولا أدري لماذا أعاداني ، هذه المرة
بالذات ، مع أنني سبق أن قرأتها ، وقرأت

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون : ٤٩ .

غيرهما مما يماثلهما - أعاداني إلى صورة رسمتها
في ذهني لامرأة قيل لي أنها سئلت في ليلة ما ، أو
في صباح ليلة ما ، ولعل آثار السّهر كانت ظاهرة
على وجهها وصوتها ، كيف قضت ليلتها ،
فلم تقل كيف قضتها ، ولكنها كنّت عن ذلك
بقولها : «حرّ وبقّ وقبلان معرس» ؛ فكيف
تقضي امرأة ليلتها ، وهي محاصرة ، ومضيق
عليها من ثلاثة أعداء كل منهم شرس : حر
شديد ، يتابع موجاته عليها ، وبعوض نهم توالي
أفواجه هجومها دون رحمة ، تأتي زرافات
ووحدا ، صامته حيناً ، وحيناً مغنية طربة ،
وزوجها عريس على أخرى في تلك الليلة ، همّ
حالّ ، وهم مقبل ؛ وذهنها مشغول ، وروحها
منهكة ، وجلدها مكلوم ، وجسمها معني ،
تقلبه على أحر من جمر الغضا . إنها صورة مرعبة
لا تنسى عن هذه المسكينة ، التي لو هاجمها

واحد من هذه الفواتك الثلاثة، لربما تعزّت
وتأسّت بغيرها، أما وقد تداولتها المصائب،
وتكالبت عليها الهموم، فصورتها في ذهن من
علم عنها، وعرف حالها، تبقى في الذهن.
لهذا تذكرتها بعد سنين عندما قرأت البيت
الآتي:

قال لي كيف أنت؟ قلت عليل
سهر دائم وحزن طويل
ولعل الشاعر أقلّ عناء من مثيله في البيت
الآتي: ^(١)

أسجنا وقيداً واشتياقاً وغربة
ونأي حبيب، إن ذا لعظيم
فهذه أنواع من المشاق اختلفت عن مشاق
الشاعر الأول، وزاد عددها، وأدخلتها طبيعتها
في مجال مختلف، فالأول عليل لسبين، وهذا

(١) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: ٤١.

متألم ألماً بالغاً ، وللشدة التي ألّمت به خمسة
أسباب . ومع كلّ تبقى صورة المرأة التي أسهرها
الحر ، وأزعجها البعوض ، وأقلقها زواج زوجها
تسبق الصورتين الآخرين ، وتغطي عليهما ،
ولعل ذلك لأنها امرأة وحيدة .



القدامى ومرض السكر^(١)

مرض السكر مرض مقلق، وعرف اليوم باسمه ووصفه، بعد أن تقدم العلم. والحديث عن السكري لا ينقطع بعد أن عرف كنهه. ويظن كثير من الناس أنه من أمراض هذا العصر، مثل عدد من الأمراض التي يقال إنها من أمراض هذا العصر، وأنه مرض طارئ، سببته مشاكل هذا العصر وعقده. والحقيقة أنه من الأمراض القديمة، التي عرف بعضها باسمه، أو بأوصافه، وبعضها عرفه أناس في منطقة ما وجهله آخرون.

ومرض السكر من الأمراض التي يتعرض لها بعض كبار السن، والقليل من صغار السن، نتيجة ضعف يطرأ على الغدة التي تتحكم في السكر ووزنه نتيجة تقدم السن، أو عن طريق الوراثة عند صغار السن. و «الأنسولين» من

(١) المجلة العربية: جمادى الآخرة، ١٤١٤هـ.

الأدوية التي تستعمل لوزن السكر في الجسم إذا زاد فيه ، أما إذا نقص فقد يكون أخطر من زيادته ، لأن نتائج نقصه كما يبدو قد تؤدي إلى غيبوبة أو إلى موت مفاجئ ، أما زيادته فلها مضاعفات مزعجة ومنبهة تأتي تدريجاً ، وتتطور ، وتؤثر بالأذى على بعض جوانب المقدرة عند الإنسان مثل إضعاف النظر .

وقد مرّ بي نص يدل على أن الناس في زمن العصر العباسي كان بينهم من يعاني من مرض السكر ، وإن كان لا يسميه بهذا الاسم ، ولكن الدواء الذي وجد أحد المرضى بالتجربة أن فيه فائدة لمعالجة نقص السكري يدل على أنه هو ما نعرفه اليوم . ويبدو أن الرجل وصل إلى التغلب عليه نتيجة استقراء قام به مع نفسه ، ووجد بالمتابعة والتمعن أنه مفيد بإذن الله ، وهو يتماشى مع ما ينصح به الأطباء من ينقص عنده

السكر ، فالأطباء يحثونه على حمل قطعة من
السكر في جيبه ، بمتصها إذا ما أحس بعوارض
نقصه :

« كان عيسى بن عمر الثقفي صاحب تقصير
في كلامه ، وكان دقيق الصوت ، قال : « فكان
طول دهره يحمل في كمّه خرقة فيها سكر العشر ،
والأجاص اليابس ، وربما رأيته واقفاً أو سائراً ،
أو عند بعض ولاية البصرة ، فتصيبه نهكة في فؤاده ،
فيخفق عليه حتى يكاد يُغلب ، فيستغيث
بأجاصة وسكرة يلقيها في فيه ، ثم يتمصصها ،
فإذا فعل ذلك سكن عليه . فسئل عن ذلك .
فقال : أصابني هذا من الضرب الذي ضربني
عمر بن هبيرة ، فعالجته بكل شيء ، فما رأيت
له أصلح من هذا » .^(١)

(١) معجم الأدباء : ١٦ / ١٤٨ .

قول وقول^(١)

هناك قول باللغة الإنجليزية سائر، ولا أدري إذا كان الإنجليز هم الذين قالوه لحكمة ارتأوها، في ظل ظرف عاشوه، برر ما قالوه، أو أن القول مقول على لسانهم، إتهاماً لهم بالكسل، والبطء في التصرف، وهو ما يشيعه دائماً أعداؤهم، أو منافسوهم. فإن كانت تهمة بالكسل فهي على نمط ما يقوله بعض العرب:

إن التهاون والكسل أحلى مذاقاً من عسل
إن لم تصدقني فسل من كان قبلي في الكسل
والقول الذي يرد باللغة الإنجليزية على لسانهم على صورة حكمة هو: «إذا استطعت أن تمشي فلا تركض، وإن استطعت أن تقف فلا تمش، وإن استطعت أن تجلس فلا تقف،

(١) المجلة العربية: رجب، ١٤١٤هـ.

وإن استطعت أن تضطجع فلا تجلس ، وإن
أستطعت أن تغفو فلا تستيقظ .

ولعله لو كان بعد هذا مرحلة للراحة لنصح
بها ، ولكن الخوف أن الخطوة التالية تكون : إن
استطعت أن تحجب النَّفس فلا تتنفس ، وهذا
هو الموت حقاً . ولكنهم قبل هذا الحد أعملوا
الكوابح ، ونجوا من الهلاك الذي يقود إليه
هذا الطريق .

أما حكيمنا العربي القديم ، الذي ذكرني
بقول الإنجليز في حكمتهم هذه ، فكان أحكم
في قوله ، وموضوعه أنبل وأشرف ، وهدفه
أسلم وأكرم ، ونتيجته التي يوصل إليها هذا
القول أحمد وأجمل .

وإليك ما نقله صاحب كتاب «سراج الملوك»^(١) ،
وهو ما ذكرني بالقول الإنجليزي .

(١) سراج الملوك : ١٩٩ .

«لا ينبغي للوالي أن يستعمل سيفه ، فيما
يكتفي فيه بالسوط ، ولا سوطه فيما يكتفي فيه
بالحبس ، ولا حبسه فيما يكتفي فيه بالجفاء
والرعب» .

هذا قول مليء بالحكمة ، ويدل على تجربة
عميقة وطويلة ، وقائله واثق من فائدة ما يقول .
وهو يرسم سياسة توصل إلى هدف لا يشك في
بلوغه إذا سلك هذا السبيل إليه . وفي هذا دراسة
نفسية للفرد والمجتمع ، وفيها روح العطف
الإسلامي وحنانه .

ارتفاع العُقْد^(١)

الناس صنفان على الأقل فيما يخص ماضيهم
إذا كان أدنى من حاضرهم في المنزلة في المجتمع ،
فبعضهم يكون فقيراً مدقعاً في أول حياته ، ويعاني
من الفقر معاناة شديدة ، ويتعرض لأعمال
مهينة في سبيل العيش ، والإبقاء على الحياة ،
ثم يفتح الله له ، فيما بعد ، أبواب الرزق ، إما
نتيجة جهد متواصل ، أو حظ اعترض طريقه
بتوفيق من الله .

ومثل هذا يقف أحد موقفين إما أن يعلن في
وقت غناه عما كان عليه من فقر في الماضي ،
ويصف ما مرّ به ، وما عاناه ، بطريقة توحى
بالفخر والاعتزاز أن حياته مرت بهذه البوتقة ،
وانصهرت بنار الفقر اللاهبة ، وسعيره المحرق ،
واعتبر ما مرّ به مثل الحوادث الطارئة التي تمر

(١) المجلة العربية : شعبان ، ١٤١٤ هـ .

بالإنسان، وينجيه الله منها، فيأخذ في قصها
باسهاب وتفصيل، ويكرر الحديث عنها في كل
مجلس، ويقتنص الفرص لذلك. وهذا وأمثاله
يخلون من العقد النفسية التي تسيطر على بعض
الناس.

وقد يقف من ماضيه، وما مر به من فقر،
وما عاناه من مشاق، وقفة المستر عليه، الحاجب
لكل مظهر من مظاهره، فينكره لو حام أحد
حول كشفه، ويشعر بالعار منه، ويعتبره نقطة
سوداء في حياته، يجب أن تستر وتعمى، وهذا
قد لا يكفيه، فقد يلجأ إلى ما يبعد الناس عن
أن يقتربوا من حمى هذا الماضي السري، فيدّعي
أنه كان غنياً منذ ذلك الوقت، ويأتي بقصص
مبتدعة، وحكايات مختلفة، يركبها بطريقة
مقنعة، ومغالىٍ فيها، ويشعر براحة من ذلك،
ويزداد إيغالاً في هذا كلما ازداد ارتياحاً من

وقع القول على الناس .

هذا مليء بالعقد النفسية، ويشعر بفراغ داخل نفسه، يحاول أن يملأه بهذه القصص الملفقة، ويبعد عن نفسه الشعور بالنقص الذي يحس به من ماضيه الذي لا ذنب له فيه، وبقدر ما يخفي ذلك الماضي يغالي في إظهار حاضره، وما فيه من غنى .

وفي تراثنا حالات منيرة من التحرر من العقد النفسية، يطردها نور داخلي مشع، ضوءه ساطع في جنبات أنفسهم، ومن هؤلاء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي وقف ديدباناً على نفسه، انقض عليها انقضاض الأسد على الفريسة عندما كادت أن تضعفه في وقت من الأوقات، وليس عمر ممن تتناسب معه العقد النفسية - رضي الله عنه - .

«وقف عمر بن الخطاب مرة على المنبر بعد

أن جمع المسلمين ، فخطب فيهم قائلاً : «أيها الناس ، لقد كنت أؤجر نفسي بطعام بطني ، ثم أصبحت وليس فوقى أحد» .

ثم نزل ، فسأله ابنه عما دعاه إلى أن يذكر الناس بضعف حاله في الماضي ، وهو اليوم أمير المؤمنين ، فقال له : «إن أباك يا بني أعجبته نفسه فأحب أن يذلها» .^(١)

ويدخل في هذا الباب من الشجاعة الأدبية ما يذكره الفرزدق من معاناته في بعض الأحيان عندما يريد أن يقول شعراً ، فهو لم يدع ، وهو الفطحل في الشعر ، أنه لا يقابل صعوبة ، أو أنه دائماً سيد الموقف ، وإنما اعترف بمعاناته ، إلا أن هذا ، رغم ما فيه من النقص ، لم ينقص قدره ، وإنما رفعه :

«قال الفرزدق أنا عند الناس أشعر العرب ،

(١) جيل الدريكة : ٢٤٧ .

ولربما كان نزع ضرس أيسر عليّ من أن أقول
بيت شعر»^(١).

(١) البيان والتبيين : ١ / ١٣٠ ، ١ / ٢٠٩ .

سبحان خالق الكون^(١)

خلق الله الكون متقن الصنعة ، ووزن ما فيه وما عليه ، فليس فيه خلل أو عيب ، ونَسَق بين أجزائه ، وأوجد القواعد المنتظمة لحركته ودورانه ، وأوجد نظاماً لتفاعل أقسامه بعضها مع بعض ، ووضع القوانين المتقنة لتطوره ، وانحطاطه وارتقائه . أحاط - جلت قدرته - بكل صغيرة وكبيرة فيه ، وكل جزء أخذ حقه مما تحتاج إليه طبيعته ، من لين أو قسوة ، قوة أو ضعف ، حسن أو قبح ، كمال أو نقص ، وأوجد التنافر فيما يجب فيه التنافر ، والتوافق فيما يحتاج إلى التوافق .

وسار الكون بإرادته وتديره ، وهَدَى خلقه من حيوان وإنسان وطيْر وفراش وحشرات إلى ما هيأ لها من دور في هذه الحياة ، وبقدرته

(١) المجلة العربية : رمضان ، ١٤١٤ هـ .

عاش الفيل الضخم حياته بمكونات جسمه ،
وعاشت النملة والفراشة بمكونات جسمها ،
لم تعجزه - عز وجل - الضخامة ، ولم تقصر
قدرته - جل جلاله - عن الصغر . والاتقان في
الحالتين في منتهى الدقة التي تليق بالخالق المدبر .

ويقف الإنسان مؤمناً أمام معجزة خلقه ،
ففي النملة ما في الفيل من مكملات الحياة
جسماً وروحاً ، وأداة للعمل والإنتاج تبرر
وجودهما في الحياة ، لأن الله سبحانه وتعالى لم
يخلق خلقه عبثاً ، فالصخرة في طرف الصحراء
لها دورها في الحياة ، والنسمة في وسط الليل ،
وفي ساعة الظهيرة لها دور في هذا الوجود ،
وقد تخفى على البشر ، وعقلهم قاصر عن
معرفة كنه ما قد لا يغوصون إلى أعماقه .

وقد حث الله عباده على التبصر في الكون ،
وأن يبدؤوا بالنظر إلى أنفسهم ، وفيما حولهم ،

ويتفكروا في خلق السموات والأرض ، ﴿ رَبَّنَا
مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ ﴾^(١) ، وفي التمعن
في النفس ما يكفي الإنسان أن يؤمن بالله الذي
خلقها ، ويزيد إيمانه بالتدبر فيما حوله من
الكون ، فيزيد يقيناً بوجود الله ، وبقدرته تعالى .

ومن اتجه إلى خلق الله يتدبر فيه ، ويتبصر في
ظواهره ، وجد حقلاً واسعاً ، وروضاً مزهراً ،
إذا دخل في روض من الرياض التي تقود إلى
الإيمان سلمه إلى روض آخر ، فلا يمل ولا يتعب ،
بل يجد لذة في توفيق الله له بأن هداه إلى الصراط
الذي يوصله إلى سبيله ، ومتعة في هديه إلى ما
فيه خيره ونفعه دنياً وديناً .

ومن الحقول التي تؤدي بالإنسان أن يعرف
قدرة الله سبحانه وتعالى ، وإحكام تدبيره ،
قسمته للأرزاق بين خلقه ، حيواناً كان أو غير

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

حيوان . والجاحظ يلمس مثلاً واحداً من أمثلة
لا تحصى مما يمكن أن يتبصر فيه الإنسان ويتدبر ،
يقول الجاحظ

«ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب
يصيد الثعلب فيأكله ، ويصيد الثعلب القنفذ
فيأكله ، ويرى القنفذ الأفعى فيأكلها ، وكذلك
صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد
العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد
فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير ، وكل
شيء يكون أفحوصه على المستوي ، والزنبور
يصيد النحلة فيأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة
فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها» .^(١)

والعهدة على الجاحظ في أمر النحلة وأكلها
الذبابة والذبابة وأكلها البعوضة ، ونرجو أن
يكون الجاحظ قد لاحظ هذا بنفسه ، وهو

(١) الحيوان : ٣١٣/٦ .

صاحب تجارب في مجال الحيوان وما كتبه عنه .
هذا جانب من جوانب التبصر في الكون ،
ومعرفة خالقه حق المعرفة ، وقد اختار صاحب
المثل الذي ذكرنا قسمة الأرزاق فأبان من الاتقان
في الترتيب ما يدل عليه - سبحانه وتعالى - .

الخدم من الكلاب^(١)

تأخذ بعض الناس الدهشة ، ويستولي عليه الاستغراب عندما يقوم برحلة إلى بلد من بلدان الغرب ، فيرى من بين ما يرى من الأمور التي لم يتعود على رؤيتها في بلاده ، كلباً ضخماً كالصنم المنصوب ، واقفاً عند زاوية في شارع ، أمام دكان ، أو عند مدخل محطة للقطارات ، ومن رقبتة يتدلى صندوق صغير به فتحة ، تسمح للمحسن أن يسقط فيها بعض النقود ، ويتصدق فيها ببعض ما تجود به نفسه ، وقد كتب على الصندوق الجهة الخيرية التي يخدمها هذا الكلب ، ويجمع لها المال . وهذا الكلب خير حارس على ما يُعطى له ، وخير مؤتمن على ما يُجمع في الصندوق الذي علق في رقبتة ، وقد اختير لأمانته ، ولضمان حراسته ، ولتوفير اليد العاملة من بني البشر .

(١) المجلة العربية : شوال ، ١٤١٤ هـ .

ويرى القادم أيضاً كلباً صغيراً آخر يمرق
كالسهم من بين أرجل الناس بخفة ورشاقة ،
لا يلتفت يميناً أو شمالاً ، ولا يأبه بالمارة ،
ولا يلقي بالاً للازدحام ، قد وضع عينه على هدفه
الذي قصده ، فإذا وصل إلى مكان بيع الصحف
ناوله بائعها صحيفة يعرض عليها بالنواجد ،
ويعود من حيث أتى ، بهمة مماثلة لهمة مجيئه ،
ويدخل بيت صاحبه ، ليسلمه صحيفته الصباحية ،
ويتم كل هذا بسرعة تفوق سرعة البشر ، وأمانة
لا يتصف بها كثير من الناس . وعمله هذا يخلو
من المنة أو التردد أو التراخي ، ويُقدم الكلب
عليه برغبة وتطلّع ، ولو مرّ يوم دون أن يسمح له
بهذا العمل ، لاستوجب منه الدهشة ، ولأصيب
بخيبة أمل .

وهذا المنظر مألوف في الغرب ، لأنهم عرفوا
ذكاء الكلب ، واستعداده للتعلم والتدريب ،

فاستفادوا منه فيما يمكن أن يأتي منه من نفع ،
ودربوه على ما يعتقدون أن بإمكانه أن يجيده ،
فنجحوا فيما قصدوا ، ووفروا خدمة ومالاً ،
واستفادوا وقتاً وجهداً .

والعربي الذي يبهره هذا المنظر لا يدري أن
آباءه وأجداده الأولين قد سبقوا الغرب إلى هذه
الاستفادة من الكلب ، وعرفوا ذكاء الكلاب ،
وحدود ذكاء كل نوع منها ، فاستفادوا من تميز
بعضها عن بعض فيما تتقنه من تصرف ، وتجيده
من عمل .

وإذا كان دور الكلب عند العرب في الأزمنة
الماضية يتوقف عند الحراسة بأنواعها ، خاصة
حراسة الأغنام ، وأخذها للمرعى ، وإعادتها
منه ، وجمعها في المرعى ، والكلب السلوقي
استفيد منه للصيد والقنص ، فإنهم استفادوا منه
لبعض ما يستفيد منه الغربي مما يدهش العربي

اليوم، ويظن أنهم أهلٌ سبقَ فيه .

فهذا الجاحظ، وقد أسهب في كتابه «الحيوان»
عن الحيوانات والطيور والحشرات، وكل ما دب
على الأرض مما أمكنه من علمه وبحثه وتجربته،
كتب عن الكلاب، وذكاء بعضها في هذا الجانب
فقال :

«الكلب الزيني الصيني . . . دُرِّبَ فَدَرَبَ،
وُثِّقَ فَثَقَّفَ، وأدَّبَ فَقَبِلَ، وتُعلِّقُ في رقبتَه
الزنبلة (الزنبيل)، والدوخلة (القفة)، وتوضع
فيها رقعة، ثم يمضي إلى البقال، ويجيء
بالحوائج»^(١).

والجاحظ هنا يؤكد غنى تراثنا، واحتواءه
على كثير مما نجهله، أو نعلم بعضه، ونظن أنه
من مبتكرات الغرب ومبتدعاته، ولو أعطينا
تراثنا حقه من العناية تحقيقاً ونشراً وقراءة

(١) الحيوان: ١٧٩/٢ .

وتدبراً لامتلائنا ثقةً تبوؤنا مكاناً غير المكان
الذي نحن فيه ، وأكرم منه وأشرف ، على الأقل
عند أنفسنا .

ضياء التسامح^(١)

نعم ، التسامح ضياء يشع داخل النفس فيريها ما لم تره من فضيلة لو لم يشع فيها ، والتسامح يقفل أبواباً كثيرة يمكن أن يدخل منها الشر ، فيقضي على أنفس كثيرة ، ويحطم علاقات أخوية وعائلية ، والتسامح يفتح أبواباً للخير لا تفتح إلا بمفتاحه ، وهو مفتاح سحري ، يعمل أعمالاً لا يعرفها ولا يتقنها إلا من وهبه الله معرفة إعمالها .

وقد يبدو التسامح في مظهره الأولي عند من لا يعرفه بشعاً ، لأن الشيطان يصور لهم التسامح ذلة للمرء أمام قبيله ، وأن ترك الإنسان الانتصار ضعف يجلب عليه تكرار الإهانة ممن لا يطمع فيها منه لولا ما رآه من سابقة التسامح . وهذا كلام مغرٍ وجذاب ، ويدغدغ عاطفة الإنسان

(١) المجلة العربية : ذو القعدة ، ١٤١٤ هـ .

الهشة ، ولا يستطيع مقاومته وردّه إلا ذوو العزم
ممن وفقهم الله إلى معرفة استعمال سلاح مقاومة
الشیطان ونفخه ونفثه ، وغمزه ولمزه .

كم من محاسبة دقيقة بين وارثين ، غاب عنهما
التسامح ، وانزعت بينهما الحدة ، وانغرزت
في صفوفهما المباغضة ، فتفرقا أيدي سباً ، بعد
أن كانا عصابة واحدة قبل وفاة مورثهما ، وكم
من أرحام قطعت ، وقرابات أبعدت ، وصدقات
اغتيلت ، بسبب عدم التسامح ، وكم قصور شيدت ،
وكم قلاع حصنت بين الأقرباء بسبب التسامح
والتغاضي . وفي هذا المجال ما قد يبدو كسباً مع
التباغض هو في الحقيقة كسب وهمي ، والخسارة
فادحة ، إلا أنها لا ترى في وقتها ، وهي مثل الداء
الدفين ، لا تفتأ أن تظهر . أما ما يبدو من مظهر
خسارة جاء بها التسامح فهو وهم سرعان ما
يتلاشى ، وتبين الحقيقة ، وهي أن هناك كسباً

عظيماً جاء للفريقين ، فبنى إعماراً قوياً يبقى
مع الزمن ، وحفظ للتسامح حقه من قمة جبل
الإنسانية الملائى ببركة الإيمان ، بأن عمل
الخير ، والخير لا يضيع عند الله ، وقد لا يغيب
عن أعين الناس .

والأمثلة عن التسامح وفائدته يراها الإنسان
في المجتمع إذا ألقى نظره بعناية وتمعن ، وهي
تكرر في حدوثها ، وفي فوائدها . والله سبحانه ،
ليثبت هذه الفضيلة ، يأتي بالأجر المردود في
هذه الدنيا بطريقة تلفت النظر ، ليرى فضله ،
وليصدق الناس رسله الداعين إلى الفضائل
والإقدام عليها ، والتحذير من الرذائل والبعد
عنها .

وهذا أخ اعتنى بإخوانه ، وتسامح عن بعض
ماله لنفعهم ، وأعطاهم الغبطة فيما ورثه وورثوه ،
فوجد أن هذا المعروف غرس في أرض طيبة ،

فأتى بالثمرة المرجوة، فنفع هؤلاء الإخوة أخاهم في كبره، وخدموه خدمة جعلت حياته في كبره مريحة سعيدة، فلم يضع عمله . والأمثلة في الحياة كثيرة عن هذا الأمر، وعن خلافه، فالذي لم يتسامح، ولم يعمل معروفاً يفقد مثل هذه الثمرة، ولا يجنى إلا حنظلاً، وناهيك بالحنظل مرارة.

والتسامح يتآخى دائماً مع الخلق القويم، ويأتي به، وأرضهما واحدة، فلا تجد واحداً إلا وتجد الآخر معه، وفي التراث قصص لا تحصى عن التسامح وما يأتي به، ولكننا سوف نختار واحدة التسامح فيها كان نتيجة لبدءاً، وأدى إليه التمسك بالحق والعدل في أكمل صورته:

«كان أبو خرشنة المرادي صديقاً لأبي خزيمة [القاضي]، فمر به ذات يوم، فسلم عليه، فلم يكن منه ما كان يعرف . وكان أبو خرشنة قد

خوصم إليه في جدار ، فاشتد ذلك على أبي
خرشنة ، فشكى ذلك إلى بعض قرائبه ، فقال
له : إن اليوم الاثنين أو الخميس ، وهو صائم ،
فإذا صلى المغرب ادخل استأذن عليه ، ففعل
أبو خرشنة ، قال : فدخلت عليه وبين يديه
ثريد عدس ، فسلم عليه ، فرد عليه كما كان
يعرف ، وقال له : ما جاء بك ؟ فأخبره أبو خرشنة ،
فقال : ما كان ذلك إلا أن خصمك خفت أن
يرى سلامي فيكسره ذلك عن بعض حجته .
قال أبو خرشنة : «فإني أشهدك أن الجدار له» .

قامت فضيلة بجلب الأخرى ، فعدل القاضي ،
وحرصه على أن لا يرى خصم صديقه منه عطفاً
على هذا الصديق ، فيضعف موقف الخصم في
الخصومة ، قدره صديقه أبو خرشنة ، وأتبع
ذلك بفضيلة التسامح الجميلة ، فتنازل لخصمه
عن مادة الشكوى والخصومة . وهذا التسامح

لابد أنه أصبح حلقة في سلسلة من الفضائل
التي سوف تتبادل بين أبي خرشنة وجاره الذي
حصل له الجدار بدون مداعاة أو مقاضاة.

ألوان الطعام^(١)

الطعام شغل الإنسان الشاغل ، والأمر المهم للحيوان ، فلا يعيش جسم إلا بالطعام ، ولا بد أن يكون الطعام ملائماً لمن يحتاجه ، سواء كان المحتاج إنساناً أو حيواناً أو دابة أو فراشة ، حيواناً برياً أو بحرياً . وعمار الكون بوجود الإنسان والحيوان وما يلزمها ، وبقاء الإنسان بما يقوته ويحفظ جسمه . هذا هو الخط العريض للإنسان وطعامه وقوته .

فحاجة الإنسان للطعام ، وتطور الإنسان من حياة بسيطة إلى حياة حضرية معقدة جعلته يضع نظاماً متقناً ، في ضوء التجربة ، للطعام وطهيه وتقديمه وتناوله . وعندما ننظر للعادات الحديثة ، في بعض مظاهر التنظيم فيها ، نظنها حديثة ، ونظنها نتيجة النهضة الحديثة في أوروبا .

(١) المجلة العربية : ذو الحجة ، ١٤١٤ هـ .

ولكننا نفاجأ بأن بعض هذه الأمور قديمة،
ووجدت في مجتمعات شرقية، وكانت متغلغلة
فيها، فخوان الطعام والكراسي حوله كانا
قديمين، والخبز بأنواعه كان معروفاً، هذا بالنخالة
وهذا بدون نخالة ويسمى «الحواري»، وكان
هناك مناديل يضعها الجالس على المائدة، تقي
ثيابه مما قد يقع من الطعام، ويمسح بها الأكل
يده بعد الأكل، وقد أُلِّف في آداب المائدة كتب،
ووردت في ثنايا بعض الكتب أخبار تدل على
تقدم القوم في هذا، بل إن هناك من توصل إلى
ما قد لا نكون فطِنًا له في زمننا، مثلما كان يفعله
كسرى:

«كان لكسرى جام فيه حب رمان يسف منه بين
كل لونين ملعقة، ليعرف اختلاف الألوان»^(١).
فكسرى لا يريد أن يحرم نفسه من تذوق

(١) بهجة المجالس: ٨٠/٣.

لون من الطعام ، لأن ما سبق أن أكله يطغى بطعمه على ما بعده ، فكان يفصل بينهما بطعم الرمان الذي يضمن له أن يميز طعم الآتي عن السابق . وقد نكون في عصرنا وفي شرقنا نأكل الزيتون أثناء الطعام ، لنفصل بين طعمين ، ولكن بقي الزيتون وأكله ، ونسي الناس الهدف الأساس الذي من أجله حرصت المائدة العربية على وجوده عليها . وربما اكتشف الأوروبيون هذا ، فأدخلوه لونا رئيساً في موائدهم ، لا لونا طارئاً .

وقائمة الطعام قديمة عند شرقنا ، وكانت تقدم في بعض المجتمعات قبل الأكل ليعرف الضيف ما سيقدم قبل أن يُقدَّم ، فيأكل كل ضيف ما يشتهي ، ويحتنب ما لا يشتهي ، وهذا النص يوضح ذلك :

«قال بعض الأمراء - وأظنه بلال بن أبي بردة -

لأبي نوفل الجارود بن أبي سبرة: ماذا تصنعون
عند عبد الأعلى إذا كنتم عنده؟

قال: يشاهدنا بأحسن استماع، وأطيب
حديث، ثم يأتي الطباخ، فيمثل بين يديه،
فيقول: «ما عندك؟»

فيقول: «عندي لونٌ كذا، وجديُّ كذا،
ودجاجةٌ كذا، ومن الحلوى كذا». قال: «ولمَ
يسأل عن ذلك؟» قال: «ليقصر كل رجل عما
لا يشتهي، حتى يأتيه ما يشتهي». ثم يأتون
بالخوان فيتضايق وتنسع، ويقصر ونجتهد،
فإذا شبعنا خَوَّى: [أي فرج ما بين عضديه
وجنبه] تخوية الظليم، ثم أقبل يأكل أكل
الجائع المقرور^(١).

وهذا يؤكد أننا سباقون إلى إعطاء الضيف
فكرة عما سوف يقدم، ليحسب حساب ما سيأتي

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٤٤.

مما يحبه ، فيقبل عليه ، وما سيأتي مما لا يفضله
فيتجنبه . فإذا رأيت قائمة الطعام على مائدة
رسمية فاعلم أننا اخترعوها ، ولاحظ أننا منذ
ذلك الوقت نقدم الحلوى مسكاً للختام !

يأكل بغيره^(١)

يبدو أن كل مجتمع ، قديم أو حديث ، لا يستغني عن الخيال ، وسماع أخبار أمور خارقة للعادة ، ولعل هذا راجع إلى عدم الاكتفاء بالحقائق ، فهي لا تملأ السمع ، ولا ترضي النفس ، ولا بد من غذاء مبتكر يقوم بذلك ، وليس مثل الخيال المغرق في البعد شيء يقبل ، فالخيال المغرق يخلق بالسامعين في أجواء من الدهشة والغرابة ، تنقلهم من واقع الحقيقة الممل الرتيب الذي يعرفه كل أحد ، ويستطيعه كل أحد ، إلى عالم متجدد الجوانب ، بما يضيف عليه من الزيادات ، وهو عالم لا يعرفه إلا من يقدر على الطيران بجناحين قويين ، في فضاء لا حدود له .

ويبدو أن الإنسان في حالات معينة يجب أن

(١) المجلة العربية : محرم ، ١٤١٥ هـ .

يخضع إذا اختار هو ذلك ، وهياً نفسه له ، واستعد لقبول ما يأتي في هذا المجال ، لأنه قد وضع عقله ، وما يأتي منه من منطق ، على الرف ، وأخذ أجازة من عالم الواقع حوله ، وانتقل إلى عالم آخر مختلف .

ولانزال نرى الخرافات وقصصها الخيالية تسير منحدره من جيل إلى جيل ، ومنقلة من محيط إلى محيط ، ولكل مجتمع قصصه الخرافية ، سواء كان ذلك المجتمع بدائياً أو راقياً ، فجبال الواق واق ، وطائر الرخ والعنقاء والسندباد ، كانت عندنا تنقل العربي من عالم إلى عالم ، وقصة السحارات في نجد مشهورة معروفة .

وإذا تركنا الخرافة الكاملة نجد الميل قوياً إلى إلباس الحقائق الثابتة المعروفة لباس الخرافة ، وإخراجها من محيطها الحقيقي إلى محيط بعيد ، ونجد أنه أضفي عليها ما يخرجها من حيزها

بطريقة تشد السامعين لأطول مدة، مثلما حدث في قصص عنتره بن شداد، والوزير سالم. وإذا تمعنا في الجمهور الذي كان يتابع هاتين القصتين وأمثالهما عرفنا مدى التأثير الذي تحدثانه، والتطور المطلوب فيهما لإبقاء الجمهور متابعاً.

وفي العصر الحديث خطت البرامج التليفزيونية خطوات بعيدة في هذا المجال، سواء في مجال الخيال للأطفال أو الكبار، ودخلت المكتشفات الحديثة، والنظريات العلمية، والرحلات إلى الفضاء، عاملاً رئيساً، ومادة دسمة في هذا المجال؛ وتبارى المفكرون والمخرجون في التسابق لشد السامع والناظر، «وقراندايز» مثل من أمثلة الخيال الذي يمجد القوة، ويأتي بالخوارق فيها، وفيلم «الفك» الذي يمثل صراعاً خيالياً بين حيوان القرش البحري وبين سفينة وركابها، خلط فيه بين الخيال والحقيقة، فجاء منها «خلطة»

تشد الرائي صغيراً أو كبيراً. وأصبح اليوم
الناجح من الأفلام هو الفيلم الذي خلط فيه
الخيال بالحقيقة بإتقان يخدع الرائي، ويهزأ
بالسامع. وأصبح المال، والكسب المادي
يلعب دوراً في هذا، فالعاملون على الفيلم
يراعون ما يستخرج المال من الجيوب.

ولابد لنا من نظرة إلى تراثنا لنرى كيف تخلط
الحقيقة بالخيال، وتصل القصة إلينا وكأنها
حقيقة، ولا يلغي هذه الطبيعة إلا الفكر السليم،
والفحص الدقيق.

«روى معتمر بن سليمان عن أبيه قال:
قلت لهلال بن الأسعر: ما أكلة بلغتني عنك؟
قال: نعم، جعت جوعة وأنا على بعيري،
فنحرته وأكلته إلا ما حملت على ظهري منه».

لو فكر الراوي في حجم معدة الإنسان مهما
كان ضخماً، وجد أن لها حيزاً لا يتحمل أرطالاً

محدودة من اللحم، مهما كان الإنسان جائعاً،
والبعير بحجمه العظيم يكفي عشرات من
الرجال ويشبعهم، ولكن حب الخيال، والملل
من الحقيقة، أفسح المجال لقبول القصة، وأسدل
ستاراً كثيفاً على الحقيقة، ووقف في طريق
الانتصار لها.

سوق إبليس^(١)

إبليس له سوق رابحة عند قليلي العلم،
ضعيفي الإيمان، يبيعهم إغراءه وإغواءه بسعر
رخيص، ويقبل عليه هؤلاء بعمى متناه، يرتعون
في رياض له خضراء زائفة، وهو يضحك بملء
شذقيه من سذاجة هؤلاء، وهو لا ينتهي من
بيع بضاعة مسممة إلا ويبدأ المناداة على بضاعة
منتنة أخرى.

ويستمر في هدم المجتمعات بهدم الأفراد،
يقتنص من يجد فيه الصفة التي تساعد في سعيه،
ويترصد لصيده بطرق مختلفة، تتفق كل واحدة
مع الأحبولة التي ينصبها، وهو في ذلك يستعين
بأعوان قد لا يدرون أنهم عون لإبليس، وأنهم
سائرون في ركابه لألحاق أذى ما بشخص من

(١) نشرت في المجلة العربية: في صفر، ١٤١٥هـ، الموافق يوليو/أغسطس
١٩٩٤م.

بني جنسهم ، أوبث فرقة في مجتمع ما .

والقصة التالية تري كيف نصب إبليس
أحبولته ، وكيف تلمس الظرف حتى يحكمها ،
وبمن استعان على حمل العبء ، ودفع الأمر إلى
الهاوية التي خطط لأحد العلماء الأفاضل أن
يكون ضحيتها . إن إبليس جشع لا يرضى
بإنسان من أطراف الناس ، إن ضحيته لابد أن
تكون سمينة ، حتى تكون مصيبة الفرد والمجتمع
ممن اقتنص كبرى . وإبليس في هذه القصة جاء
بأمر عجيب ، لا يصدقه إلا من عرف ما هي حيل
إبليس في المجتمعات الجاهلة ، التي لا تدرك
إدراكاً وافياً أن الله - سبحانه وتعالى - قد وضع
للكون نظاماً متقناً لا يغيره حسن حظّ فلان أو
شؤم فلان ، ولكن تلبس إبليس يأتي مزخرفاً
وموزوناً ، ويجهز بسرعة حتى لا يبقى هناك
ثغرات يُدخل عليه منها ، وقراءة القصة الآتية

تُري خطواته وخطوات من اختارهم لتنفيذ
مخططه ، وإبليس لا يستطيع تنفيذ خططه بصفة
رئيسة إلا على البشر وبالبشر :

«اتفق في بعض السنين أن النيل لم يزد زيادة
تامة ، ف قيل للحاكم حينئذ : إن جنادة بن محمد
الهروي اللغوي النحوي رجل مشؤوم ، يقعد
في المقياس ، ويلقي النحو ، ويعزّم على النيل ،
فلذلك لم يزد . وكان من حدة الحاكم وتهوره ،
وما عرف من سوء سيرته ، أنه لا يتثبت فيما
يفعله ، ولا يبحث عن صحة ما يبلغه ، فأمر
من ساعته بقتله ، فقتل رحمه الله» .^(١)

فالرجل لم يكتب «عزيمة» ولم يخط «حجاباً»
ينقص ماء النيل ، أو يوقفه عن الزيادة في وقتها ،
ولكن الحاكم مُعِينُ إبليس ومساعد الذي يبدو
أن إبليس قد جنده من قبل ، كان جاهزاً للتنفيذ

(١) معجم الأدباء : ٢١٠ / ٧ .

ما وسوس له به إبليس ، ومن نقل الأمر إلى
الحاكم من بشر من أفراد ذلك المجتمع .

وإبليس يترقب المواقف العاطفية ليجهز
فيها على ضحاياه ، وليس هناك أضعف من نفس
الإنسان إذا مات له عدد من الأطفال ، ففي هذه
الحالة يجد إبليس فرصته ، فيصرف المرء عن
قضاء الله وقدره ، ويدخله في متاهة الوهم ،
ويخيل له أن الموت يعشق أسماء أبنائه الجميلة ،
فيأخذهم بسبها ، ولو لجأ الإنسان إلى اسم منفر
قبيح لنجا المولود ، لأن الموت لا يطيق سماع
اسمه . أمر مضحك للمتدبر والمتبصر ، والمؤمن
بالله ، ولكن إبليس يختل الضعيف في حالة ضعفه ،
وينال منه بغيته . وهذه قصة إبليس مع امرأة
وجد إلى قلبها طريقاً :

«قال ابن الأعرابي : كانت امرأة لا يبقى له
ولد إلا أفقدها ، ف قيل لها : نفري عنه ، فسمته :

«قَفْذًا»^(١) ، وكتبته : «أبا العداء» ، فعاش»^(٢) .

وفي هذا امتحان من الله ، لم يُتنبه له ، وإلا
فليس للإسم دخل في بقاء الطفل أو موته .



(١) لعلها «قنفذًا» ، وما ورد في النص تصحيف .

(٢) مجالس ثعلب : ٤٦٦ / ٢ .

قلبي على ولدي^(١)

يبقى الوالد والداً في نظره لولده حتى لو بلغ مبلغ الرجال، فهو في نظر والده لا يزال في حاجة إلى رعاية، والعين يجب أن تبقى ناظرة إليه لا تغمض أو تطرف، والوالد بتجربته الطويلة في الحياة يعرف المخاطر والأضرار، ويعرف الفوائد والمكاسب، فهو يريد لابنه الخير، ويريد له تفادي الشر.

وإذا كان الوالد، وهو يفكر في تربية ابنه وتعليمه وهو صغير، يهتم له بالأمر التي يحتاجها سنه، والتي تناسب مع نموه المستمر، فإنه يتطور في سعيه في مصلحة ابنه بعد أن يكبر، وتدخل التربية والتعليم في مرحلة تناسب مع سن الرجولة الذي وصل إليه الابن. ولهذا نرى أن العناية به، وتعليمه ترتقي إلى مرتبة

(١) المجلة العربية: ربيع الأول، ١٤١٥هـ.

النصح والإرشاد والتوجيه ، وينصب ذلك على الحياة التي سيدخلها الابن ، والمجتمع الذي سينغمس بين طبقاته .

ومن تمعن في نصيحة ابن هبيرة ، وهو يؤدب ابنه ، يرى مدى نضج الوالد في نظره للحياة ، ومدى المخزون لديه من التجارب ، مما جعل توجيهه ابنه يأتي صادقاً ، ونافعاً لكل زمان ، لأنه تركيز على مبادئ عامة تحكم عمل الإنسان الذي يسعى ليرفع نفسه ، يقول ابن هبيرة :

« لا تكونن أول مشير ، وإياك والرأي الفطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشر على مستبد ، ولا على وغد ، ولا على متلون ، ولا على لجوج ، وخف الله في موافقة هوى المستشار ، فإن التماس موافقته لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة » .^(١)

كل جملة من الجمل الواردة في هذه النصيحة

(١) البيان والتبيين : ٢ / ١٨٨ .

تستحق أن توضع عنواناً ، يكتب تحته مقال طويل متكامل ؛ فالذي يكون أول مشير ينطلق من رأيه هو ، ولو صبر وسمع رأي الآخرين لكان رأيه عصارة فكره وفكر الآخرين ، وهو أخرى أن يكون أسلم . ويعضد هذا تجنب الرأي الفطير الذي لم ينضج على نار هادئة من التفكير والتدبر والتبصر ، وتقليب الرأي على جميع أوجهه الممكنة ، حتى لا يبقى جانب من الجوانب المنزوية عن دائرة الضوء لم يُعط حقه من الفحص والتمعن .

والكلام المرتجل يعرض صاحبه للخطأ ، لأنه لم يسبقه إعداد وتحضير ، ومحاولة لتصوير رد الفعل لدى السامع أو السامعين .

وابن هبيرة يحذر ابنه من أن يشير على مستبد ، ولا على وغد ، ولا على متلون ، ولا على لجوج ، لأن هؤلاء لا يستحقون أن يعطوا الرأي أو

المشورة، فقبیح عملهم المتوقع سوف يُلطخ سمعته بذنبهم وهو بريء منه . ولقد خوف ابنه من موافقة هوى المستشار ؛ لأن هذا إخلال بالأمانة، وقصور عن الهدف، لأن المستشار يريد رأياً، فإذا كان هناك رأي ولم يعط فقد وقع المحذور، وسيترتب على ذلك نقص في الثقة بين المشير والمستشير، وعلل تحذيره بأن فعل ذلك لؤم، وعدم إعمال فكر المشير خيانة في حق المستشار الذي جاء واثقاً، ومؤملاً خيراً.

هذه ومضة من ومضات التربية والتأديب في الماضي، تمتع آباؤنا بمزاياها، وجنوا ثمارها، وحمدوا عقباها، وكان لهم ما أرادوا من تربية لأولادهم حسنة، وتبرئة لذمتهم وافية . وهم قدوة لنا فيما أحسنوا فيه، وما أجادوا فيه مما جاء حصيلة لتجارب طويلة، وملاحظات في الحياة دقيقة.

رزقي سوف يأتيني^(١)

ما كان مقسوماً للمرء من الرزق سوف يأتيه ،
ويأتي عن طريق تسهيل الله سبيل مجيئه . وسعي
المرء للرزق مطلوب ، والاحتراف لجلبه قد حُثَّ
عليه ، ولا يترك المرء السعي ، وإلا فإنه يصبح
تحت حدود الصدفة ، إن جاءت رزق ، وإن لم
تجي حرم ، ولا عاقل يرضى بذلك ، لأنه مخالف
لطبيعة الأمور ، ولأن نتيجه سيئة ومؤكدة .

وأحد الشعراء في الإسلام فكر في هذا الأمر ،
وانساق في شعره وراء فكرة تبين له فيما بعد
قصورها ، فقد لاحظ أن المرء قد يسعى فلا يدرك
نجاحاً ، وقد لا يسعى فيأتيه النجاح ، فصاغ
ذلك قاعدة في شعر سارت به الركبان ، في حين
أن ذلك شذوذ من القاعدة ، وقد اختلط الأمر
فيما بعد في موقف تعرض له الشاعر ، فيه سعي

(١) المجلة العربية : ربيع الآخر ، ١٤١٥ هـ .

وفيه انسحاب من السعي ، والسعي لم يأت به
بمقصوده ، والانسحاب من السعي جاءه
بالمقصود ، وكأن الأمر انتصار لشذوذ القاعدة !

« قال يحيى بن عروة بن أذينة :

أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن
عبد الملك ، فأنشدوه ، فنسبهم ، فلما عرف
أبي قال : « ألسن القائل :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي
أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعنيني تطلبه
لو قعدت أتاني لا يعنيني
فألا جلست حتى يأتيك ؟ قال : فسكت أبي
فلم يجبه .

فلما خرجوا جلس أبي على راحلة حتى قدم
المدينة ، وتنبه هشام عليهم ، فأمر بجوائزهم ،
ففقد أبي ، فسأل عنه ، فأخبر بانصرافه . فقال :

لا جرم والله ليعلمن هذا أن ذاك سيأتيه في بيته .
 قال : ثم أضعف له ما أعطى واحداً من
 أصحابه ، وكتب له فريضتين كنت أنا آخذهما^(١) .
 إن عزة نفس عروة بن أذينة لم تجعله يتراجع
 عن قول رصين قاله ، لقد آمن به ، وسبكه في
 هذا القول الذي جعل الخليفة هشام يحفظه ،
 ويستدعيه من ذاكرته ليحاج به صاحبه . وعروة
 ضحى بتعبه ومجيئه إلى الشام ، فألغى رحلته فوراً ،
 وعاد ، ولم ينتظر حتى يعرف نتيجة السعي ،
 ولكن هشام لم يرد أن يبطل قول عروة ، وفيه
 رائحة للإيمان بالله زكية ، فأراد أن يؤكد قول
 الشاعر بعطاء الخليفة ، الذي أرسله إلى عروة
 في بيته .

وهنا التقى الأمران القاعدة والشذوذ منها ،
 وتداخل ، وتقاطعت الخطوط فيها ، فعروة

(١) مجالس ثعلب : ٤٣٣ / ٢ .

سعى فلم يأته الرزق ، وجلس في بيته فجاءه
رزقه ، وعروة في أول الأمر لم يجلس في بيته كما
قال في شعره ، وإنما رحل لطلب الرزق رحلة
طويلة من المدينة المنورة إلى دمشق ، خطّان
متعارضان ، ولكنهما جاءا لنا بصورة جميلة ،
وعمل دخل التاريخ .



إشعاع في الظلمة^(١)

الخير في الإنسان مزروع ، وهو ما يفرق بينه وبين الحيوان المفترس ، ولكن إهمال التربية ، وما قد يمر به الإنسان من فقر ويتم ، قد يكون سبباً لأن يبهت مظهر الخير في الإنسان ، ويقوى عامل الشر ، نتيجة لتلك العوامل . ولهذا يحرص الوالدان على أن يبصرا أولادهم بما يقوي الخير عندهم ، ويضعف الاتجاه إلى الشر ، ويأخذ هذا طرقات متعددة : أولها الدين ، ثم القصص التي تناسب عقل الطفل ، وفيها ما يحث على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة ، وإظهار الأولى بمظهر جميل جذاب ، وإبراز الثانية بثوب قبيح منفر . وبقدر ما ينجح الوالدان أو يخفقا فيما . فما إليه ، يكون الطفل غالباً ، وتتلون حياته ، ويتشكل مستقبله ، إلا ما يأتي من حالات شاذة ، يكون المؤثر فيها

(١) المجلة العربية : جمادى الأولى ، ١٤١٥ هـ .

عاملاً غير ظاهر ، مما يحير الدارس أو المتبع .

وقد يربى الإنسان تربية غير سليمة ، أو يهمل في صغره فيشب على خلق غير حسن ، فيلطف الله به فيما بعد ، فيرى لنفسه من استقراره للحياة طريقاً مستقيماً يسير فيه ، فيتدارك بذلك نفسه ، والتاريخ مليء بمن كان كذلك ، فهناك قطاع طرق ، أقلقوا القوافل ، وأخافوا السبل ، فتداركهم الله بلطفه ورحمته ، فأصبحوا من خير العباد والزاهدين : ومن الأمثلة في ذلك شخص كان يقطع الطريق بين بغداد ومكة ، وقطع الطريق في إحدى المرات ، فنهب ممتلكات القافلة ، وأسر الرجال وكتفهم ، فأدركته صلاة العصر ، فأذن وأقام ، وأمَّ عصابته ، فلما أتم صلاته ، خاطبه أحد الأسرى قائلاً : «سبحان الله خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً!» ورد قاطع الطريق بقوله : إني لم أرد أن أقطع جميع الحبال

بيني وبين الله ، فأبقيت هذا الحبل .

ومرت سنين ، وذهب الأسير إلى مكة ، ولفت نظره ، وهو يطوف ، رجل كان مستنداً على جدار مبنى بئر زمزم ، وكان يشبه رئيس العصاة ، فسأله إن كان هو ، فقال : نعم ، أنا هو ، وأسأل الله أن يغفر لي ، وأتضرع إليك أن تسامحني . فقال له ألا تذكر قولك لي إنك لا تريد أن تصرم جميع الحبال بينك وبين الله . قال : نعم ، وهذا الحبل هو الرسن الذي جاء بي إلى هنا بجوار بيت الله الحرام ، طالباً عفوه وغفرانه .^(١)

إنه ضياء من الإيمان ما لبث أن شع وسطع فبدد الظلمة التي كانت حوله ، وقضى على الخطأ ، وأثبت الصواب . وهذا توفيق من الله جاء على أثر نية حسنة ، وأمل في الله لم ينقطع ،

(١) هناك أكثر من قصة في هذا المعنى ، خاصة في كتب الرحلات ، وهناك قصة تسير على النهج نفسه وردت في كتاب «التواوين» لابن قدامة المقدسي : ٢٧٦ .

والأمل في الله خير أمل ، والرجاء منه أنبل رجاء .
وقد يكون الأشعاع ضئيلاً ، ولكنه إشعاع ،
مهما ضعف ، وفي القصة الآتية من التراث لا ندري
هل الإشعاع ما لبث أن سطع ، أو بقى باهتاً في ضوء
نية صاحبه ، ومدى سعيه لدى ربه ، والقصة
طريفة استحقت أن تدونها كتب الأدب .

«حدثني كمال الدين عمر بن أحمد بن جرادة
(ابن العديم) قال : حدثني عمي حدثني أبي قال :
«نزل جدك القاضي أبو غانم ، في بعض الأيام ،
يصلي بالجامع ، وخلع نعليه قرب المنبر ، وكانا
جديدين . فلما قضى صلاته قام للبسها ، فوجد
نعله العتيق مكانهما . فقال لغلامه : ألم أنزل
إلى الجامع بالمداس الجديد؟ فأين هو؟ فقال
الغلام : بلى ، ولكن جاءنا الساعة رجل ، وطرق
الباب ، وقال القاضي يقول لكم : «أنفذوا إليه
مداسه العتيق إلى الجامع ، فقد سُرّق مداسه

الجديد ، فضحك وقال : هذا والله لص شفيق
- جزاه الله خيراً - وهو في حل منه» .^(١)

لعل زرة الخير التي قدرها القاضي في اللص
قد نمت في يوم من الأيام اللاحقة لسرقته الحذاء ،
فنال رضى الله على أثر توبة نصوح ، تلاقت مع
الحلّ الذي منّ به القاضي عليه ، لطرافة عمله ،
وشفقته على القاضي في أن يعود إلى بيته حافياً .

(١) معجم الأدباء : ٢٩ / ١٦ .

الشعر ووحيه^(١)

الشعر فن من القول رفيع ، ولا يجيد قوله
إلا الفحل ممن يتصدى له ، وإلا فيأتي القول
صورة من النظم ، لا يزيد تأثيرها عن تأثير النثر ،
وقد يكون النثر في بعض صوره أكثر تأثيراً منها ،
وغالباً ما يقضى على الشعر إذا كان نظماً بالاخفاق
والرفض ، لأنه ليس هنا ولا هناك ، وما أكثر
الشعر الذي من هذا النوع .

والشاعر الفحل شعره يأتي من انفعال داخلي
استجابة لعامل خارجي ، أو تفكير عميق أدى
إلى صورة من الصور التي حركت الشاعر إلى
نفث ما في صدره من فكرة تجمعت ، وخيال
اختمر . ومقدرة الشاعر الفحل على قول الشعر ،
ومقدرته على الانفعال تجعله دائماً في يقظة ،
وفي تحفز لأن يعبر عن شعوره بشعر جزل ،

(١) المجلة العربية : جمادى الآخرة ، ١٤١٥ هـ .

مقابل ما يعبر به آخرون من خطب ومقالات ،
فشاعر المناسبات قد يأتي بإبداع ينسي أنه قاله
لحلول المناسبة ، أو مجارة لمجتمعه .

ورهافة إحساس الشاعر تجعل البوتقة التي
توقد تحت شعوره ذات ملكة متنبهة ومستعدة ،
لأن لها قوالب تدخل فيها بسرعة ، فتخرج
صورة بديعة في هذا القالب الجاهز . ولهذا فالمهم
هو أن يكون الشاعر فحلاً في الشعر ، فيقبل منه
كل ما يأتي منه ، لأنه يعرف كيف يعرض شعوره ،
وكيف يتجاوب مع شعور الآخرين ، فهو
العاطفة الحية في مجتمعه ، اليقظة لما حولها ،
تلمساً لما يثير الشعور ، ويخدم المجتمع ، أو
يتجاوب مع متطلبات الوقت ، فإن كان الغزل
هو شغل المجتمع تجده يأتي فيه بما يطفى نور
غيره ، وإن كان المدح فإبداعه فيه يلهمي الناس
عما عداه ، وإن كان وصفاً للطبيعة بهرهم

بقوله فيها عما فيها من حقيقة ، وهكذا .

والشاعر يقصد ما يريد أحياناً ، ويهيء المسرح للقول ، فهو المسيطر على الموقف ، وصاحب التصرف ، وما على المسرح هو من وضعه وترتيبه ، جاء إليه بنية مبيتة ، وخطة معدة ، يحرك الأشخاص ، ويعين مواقعهم ، ويتحكم في أعمالهم وإشاراتهم ، فتأتي القصيدة محكمة مؤثرة ، ويبلغ بها مراده ، وينال هدفه .

وأحياناً يكون الشاعر عبداً مملوكاً لشعور يطغى عليه ، فلا يستطيع إزاءه إلا الخضوع ، وتسليم القياد ، ويمشي خلف المقود حيثما يقاد ، لأن الشعور أقوى من بقية الحواس عنده ، ويأتي من الشاعر حينئذ ما قد يهز الكيان في السامع ، ولو فكّر الشاعر ، وكان حر التصرف ، لربما ألجم بعض الفكر أن تظهر ، ولون بعضها بلون يخفي بعض معالمها مما يثير عليه فئة ، أو

يجلب عليه ضرراً، يقبل العنت فيه خضوعاً
للشعور، وتسليماً له .

والشاعر بإحساسه الرقيق ، ذو عين بصيرة
ترى ما لا يراه الآخرون ، وأذن تسمع غير ما
يسمعه الآخرون ، وترسم من جراء ما يرى أو
يسمع صور تتكيف في ذهنه بطريقة لا يشاركه
فيها أحد . ولهذا فالوحي الذي يستوحيه مما
حوله ، وممن يحيطون به ، لا يستجيب له إلا
هو ، ولعل في القصة التالية من تراثنا الغني
ما يبين شيئاً من ذلك :

قال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان
الجشمي السجستاني : «أنشدنا الأصمعي :

إذا جاء يوم صالح فاقبلنه
فأنت على يوم الشقاء قدير
ثم قال : «أتدرون من أين أخذت هذا؟
أخذته من قول العيارين (الفوضويين) : «أكثر

من التخم فإنك على الجوع قادر»^(١).

هذا الشاعر الفحل ، أخذ قطعة طين ،
ملقاة على الأرض ، فصنع منها تحفة نادرة ،
توضع في أعلى مكان في البيت . من غير الشاعر
المجيد ترى عينه «هذا التبر في ذلك التراب !» .



(١) أخبار الطراف : ٩٥ ، ١٠٧ .

فرح ظاهر وحزن دفين^(١)

لا تصفو هذه الحياة لأحد، ولا تدوم نعمها
لشخص، إنها لا تبقى على حال، ولا تستمر
على نسق، إن سرت اليوم أحزنت غداً، وإن
جادت في وقت شحت في وقت آخر، وإن
ابتسمت لسبب كثرت لسبب، دأبها التقلب،
وطبيعتها التغير، والمرء معها في سجال، وفي
أخذ وعطاء، تعاديه مرة، وتصفو مرة، وهكذا
دواليك.

والناس في تقبل ما يغضب منها أو يفرح
مختلفون، فمنهم من يقابل ما أظلم منها بالسخط
والتأفف، ويتلقى تجهمها بالرفض والمقاومة،
ويثير عنها وحولها الغبار، وقيم الدنيا ويقعدها،
وكأنه نذُّ يصارع ندأً، «ولا يضيرها، وأوهى
قرنه الوعل».

(١) المجلة العربية: رجب، ١٤١٥هـ.

ومنهم من يجارها ويسوسها ، ويهادنها
ويراضيها ويماشي تيارها ، ويعزف لحن قيثارتها
حتى يخذعها ؛ لتنكسر شوكتها ، وتضعف قوتها ،
وتخف حدتها . وعلى هذا فالناس فريقان : فريق
يظهر ما يبطن من الغضب والسخط والتأفف
والشكوى ، وفريق يبطن ما يحس به ، ويظهر
الرّضى ، وعدم المبالاة وهو يغلي داخلاً .

وهؤلاء الذين يظهرون عدم المبالاة ، وينجحون
في أن يجعلوا مظهرهم يبدو وكأنهم سعداء
جذلون ، أو يبتسمون وهم يعانون الألم الذي
يعصر أكبادهم ، أناس غير قليلين ، تراهم في
كل مجتمع ، وفي كل مهنة ، وفي كل طريق في
الحياة ، وفي كل عصر من العصور .

وقد يكون مبدو الرضى رضوا بما جاء من
الله ، وسلموا له الأمر ، واحتسبوا عنده الثواب ،
أو لعلهم يتصبرون مع هذا ، وينتظرون حادثاً

يحدث ، وطارئاً يطرأ ، وهم في أثناء ذلك يضللون
الناظر إلى حالهم ؛ خوفاً من الشماتة ، وخشية
فرحة الأعداء ، مما يزيد خسارتهم ، ويضاعف
ألمهم ، وقديماً قال الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتزعزع

هناك شاعر شعبي عبر بلهجته العامية عما
يختلج في صدره من حزن ، وما يعتلج في فؤاده
من همٍّ وغمٍّ ، وما يعتمل في نفسه من ألمٍّ ،
ورسم صورة دقيقة ناطقة معبرة ، واستطاع
بما أظهر أن يخدع من ينظر إليه ، فجعله يتيقن
أنه فرح جذل سعيد ، ولكنه عندما نطق بما
يجول داخله ظهرت صورة الهمٍّ على حقيقتها :

أضحك مع اللى ضحك والهم طاويني

طوية شنون الطرق وان قطروا ماها

إنها لوحة مؤثرة ، فالشاعر يجاري الضاحكين ،

ويباري الجذلين ، ولكن الهم في الحقيقة يعصره
داخلياً إلى الحدّ الذي كان الهم يطوي جسمه
من الألم طياً ، كما يطوي المسافرون قربهم
القديمة ، بعد أن فرغ الماء منها .

ولم يقل الشاعر العربي الفصيح جودة في
التعبير عما يجول في نفسه من كرب ، عندما واجه
موقفاً مماثلاً . والشاعر الأمير أسامة بن مرشد
بن منقذ جدير بأن يجيد ، فقد قال :

انظر إلى حسن صبر الشمع يظهر للـ
رائين نوراً وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكاً جذلاً
وقلبه بدخيل الغم منفطر^(١)
وقديماً قيل : « كالطير يرقص مذبوحاً من
الألم » .

(١) معجم الأدباء : ١٩٩/٥ .

من أول من قاله^(١)

يحلوا للناس أن ينحلوا أناساً من معاصريهم أقوالاً قيلت منذ قرون ، وقد يكون الأمر في بدئه اقتباساً من التراث ، وتمثلاً به ، ثم مع مرور الزمن بهتت بعض جوانب النص ، خاصة اسم قائله ، ومع الزمن تغيرت بعض معالمه ، فرُئيت هذه الجوانب من أحد المتأخرين ، فوضع مكان الأسماء المفقودة أسماء أناس عرفوا بالزعامة والرزانة وقول الحكم ، أو صفة من الصفات التي تتلاءم مع القول كأن يكون فكاهاة ، فينسبه إلى معاصر عرف بالظرف والفكاهاة .

سمعت من عدة أشخاص عن رجل كبير في السن لوحظ عليه من شاب قَصُرَ خطوه ، فقال له الشاب «قصر خطوك يا عم ، وكأنك ترسف في قيد» ، فرد عليه الرجل قائلاً : «إن

(١) المجلة العربية : شعبان ، ١٤١٥ هـ .

الذي عقلني مقيم على قتل قيدك» صَوَّرَ مرور
الزمن بحركة قتل القيد .

وقد ادعى كثير من المعاصرين على أن القائل
من منطقتهم ، وأنه فلان بن فلان ، وأنه قاله
لفلان ، بعض من قيل أنهم قالوه أحياء ، أو أن
«شمسهم في رؤوس العسبان» تنجح للمغيب ،
وبعضهم تحت الثرى ، ولا غرابة أن تتسابق
المناطق إلى ادعاء الحِكم والأقوال الحكيمة
والأمثال السائرة الصادقة ، وتعليقها على
مشاجب في مدن بعينها ، فحب الوطن من
الإيمان ، فالذي ولد في مدينة وعاش فيها تَنَحَّفِرُ
ذكريات الصغر في ذاكرته ، وصورها الجميلة
تنقش في فؤاده ، فلا غرابة أن يأخذ الصور
الجميلة أو الطرفة التي يسمعها أو يقرؤها ،
فيلبسها أناساً يعرفهم وهو صغير ، ويجد أنها
تراكبهم وتناسبهم ، فيقص ما يقص مرتبطاً

بمحيطه وأشخاصه ، ومع الزمن لا يكون من
علقت عليه هذه الحكم أو الطرائف مجرد وسيلة
إيضاح ، ولكنها تصبح حقيقة ليس بجانبها ما
ينافسها أو يشكك فيها . ولهذا عندما يقص
أحدهم القصة يقصها بثقة ، ويحيلها باسم
الرجل الذي ظن أنه فعلاً قائلها .

والتعبير الذي مر بنا على أنه قيل في زمننا
هذا قد جاء في تراثنا المدوّن ، ونسب إلى عدد
من الأشخاص أيضاً ، وجاء بصيغة نثر ، ونُظم
شعراً ، واختلفت الروايات فيه كما اختلفت
الصيغ ؛ فمثلاً هناك نص يقول :

« رأى بعضهم شيخاً قد انحنى ، فقال :
« يا شيخ بكم القوس ؟ » فقال : « إن عشت أخذته
بلا شيء » .^(١)

وهناك نص آخر يقول :

(١) أخبار الظراف : ١٥٠ .

«رأى آخرُ شيخاً مسناً، فقال له : «يا شيخ
من قيدك؟» قال : «الذي خلفته يفتل قيدك» .

ويقصد الزمن ، وامتداد العمر .^(١)

وهناك نص ثالث يقول :

«مرّ أعرابي ، وهو شيخ كبير ، ببعض الغلمان ،
فقال له : «من قيدك أيها الشيخ؟» قال : «الذي
هو دائب في فتل قيدك» . يعني الزمن ومروره .^(٢)

وأنشد أعرابي من القيسيين ، وقد وطئ
المئة أو ناهها :

الدهر أبلاني وما أبليته
والدهر غيرني وما يتغير
والدهر قيدني بقيد مبرم
فمشيت فيه وكل يوم يقصر^(٣)

(١) أخبار الظراف : ١٥٠ .

(٢) بهجة المجالس : ٣ / ٢٢٠ .

(٣) كتاب العمر والشيب : ٦٥ .

وهناك شعر آخر ، يقول فيه قائله :

حَتْنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى
كَأَنِّي خَاتِلٌ أَذْنُو لَصِيدٍ
قَرِيبِ الْخَطْوِ يَحْسِبُ مِن رَّأْنِي
وَلَسْتُ مَقِيداً أَنِّي بِقِيدٍ^(١)
وهناك شعر آخر يقول :

قال الراوي : سمعت عبدالله بن سعيد يتمثل :

رَمَانِي الزَّمَانُ بِنَشَابِهِ
فَحَلَّ بِهِ الظَّهْرُ وَالرَّكْبَتَيْنِ
فَقَرَّبْتُ أَمْشِي بَعْدَ انْبِسَاطِ
كَمْشِي الْمَقِيدِ فِي الْحَلَقَتَيْنِ^(٢)
وقال محمود الوراق من أبيات ، مشيراً
إلى تأثر الرجل بالكبر :

(١) بهجة المجالس : ٣ / ٢٣٠ ، وكتاب العمر والشيب : ٧٢ .

(٢) كتاب العمر والشيب : ٧٢ .

ودل المشيب على رأسه
وأعقب من بعد شيب صلع
وقوس متنيه بعد اعتدال
وأثبت في الرجل منها الظلع^(١)

(١) بهجة المجالس : ٢٣١ / ٣ .

الصيد السائح^(١)

تتناقل العامة في منطقة من مناطق نجد قصة قصيرة طريفة، ولكن مدلولها في الحياة كبير وعميق، ومدلولها يُلاحظ في كثير من مسارب الحياة وطرقها، بأشكال مختلفة، ومناخ متنوعة، وتكمن في أخاديد أذهان الناس وأفكارهم، حتى يأتي ما يخرجها من مكانها، فتقفز إلى المقدمة، وتحتل الصدارة في صورة مثل.

يقال إن امرأة رأت طفلاً مليحاً يتسول، فأعجبها منظره، فعَلَّقت قائلة: «ما أجمل هذا الطفل!» ولعلّها قالت هذا عطفاً منها عليه، وأسفاً عليه وعلى خلقته السوية أن تمتهن في هذه المهنة الوضيعة. فلما سمع كلمتها، وأحسن دَفء العاطفة فيها، استيقظت فيه ملكة المهنة، وتنبه إلى أصولها، وأهمية بلوغ الأهداف فيها،

(١) المجلة العربية: رمضان، ١٤١٥هـ.

ونادته أصوات الحرفة ، وطمأنه اتقانه لها ، فقال
للمرأة : «مادام الأمر كذلك أعطني ثمرة» .

ولقد أصبح قوله وقولها مثلاً يضرب ، ويدور
على ألسنة الناس ، خاصة النساء . تنطق امرأة
كلمة حنان ، توجهها لابنها ، فيشعر معها
بلمسة الحنان ، فيتذكر رغباته التي لم تُجَب في
وقت سابق ، ويتأكد أن هذا هو وقتها المواتي ،
فيعرض رغبته على أمه ، أملأ أن يقيم الظرف
حظه في هذه الفرصة ، فتنبه الأم إلى ما جال
بذهنه ، وهي أقرب الناس إلى تفكيره و «ولد
بطني يعرف رَطني» ، وقد تغمض عينها وتتعمى ،
وتظهر له أنها لم تقرر الحاليتين ، فتستجيب لطلبه ،
وقد تختار أن ترمي عليه المثل فلا ينال طلبته ،
ويوصد دونه الباب بمزلاج وثيق متين .

ولو تتبعنا بعض الأمور اليومية التي تمر بنا
مع الناس ، وما يحتاجون فيه للحصول على

ما يريدون ، اهتبالاً للفرص التي تسنح ، لرأينا
صوراً مماثلة لهذه الصورة فإن كلفت صاحب
مهنة ، واتفقت معه على سعر العمل ، وقام به
وأتقنه ، فأبديت - فيما بعد - امتنانك ، لاجتهاده ،
وإتقانه ما وكل إليه ، سارع يطلب إكرامية فوق
ما اتفق عليه ، وإن لم يفعل هذا صراحة ولا تلميحاً
فأحر «بدواليب» ذهنه أن تدور في هذا الاتجاه .
وإن كان موظفاً ، ومدحت عمله - وهو جزء
من واجبه الذي يأخذ عليه أجره ، ويسد به حاجة
معاشه - تطلع إلى الإكرام بإعفائه من شيء من
أعباء عمله ، أو إعطائه ميزة . وهكذا تسير
الأمور في دروب الحياة مع كثير ممن يسير في
دروبها .

وطالب الميزة يعتبر ما طلبه أمراً مشروعاً ؛
لأنه مكافأة على عمل متقن ، أو على استحسان
معلن ، والمعطي قد يشعر بالغبن ، ويأسف أنه

أبدى ما أبدى ، ويندم على ما بدر منه ، ويتمنى
لو أن بإمكانه رد ما فات ، أو تدارك ما نتج عنه ،
إلا حادثة واحدة ، لم يتنصل قائل الكلمة فيها
مما أدت إليه ، ولم يندم ؛ لأن النبل فيها متبادل ،
والشرف ينال الطرفين ، رغم أن أحدهما اهتبل
الفرصة بما يشبه الحيلة .

قال عبدالله بن الزبير الحميدي الأسدي ، من
أعلام الحديث ، وهو شيخ البخاري :

« كنا عند سفيان بن عيينة ، فحدثنا بحديث
زمزم أنه لما شرب له . فقام رجل من المجلس ،
ثم عاد . فقال : « يا أبا محمد ، أليس الذي حدثتنا
في زمزم صحيحاً ؟ » فقال : « نعم » . قال : « فإني
قد شربت الآن دلوّاً من زمزم ، على أنك تحدثني
بمئة حديث » فقال سفيان : « اقعد » ، فحدثه
بمئة حديث » .^(١)

(١) أخبار الظراف : ١٤٢ .

هذا الطالب النابه لم يفوت الفرصة ، واستغلها
خير استغلال ، وبنى على كلمة سمعها مكسباً
عظيماً ، فَعَمِلُ الاثنين شريف ونبيل ، وكلا
الرجلين قد كسب - إن شاء الله - أَجْرًا ؛ فشربة
من زمزم فيها أجر ، ونية لأخذ حديث فيها
أجر ، وتلقي الأحاديث فيه أجر ، وإعطاء
سفيان الحديث فيه أجر . وإذا أراد الله أمراً هياً
أسبابه ، وسهل سبل الوصول إليه ، وأعان فيه
على بلوغ الهدف .

حقيقة كالخيال^(١)

يقف أحدها حائراً أمام بعض القصص في الأدب العربي لغرابتها، فلا يدري أيقبلها أم يردها، ففيها الغرابة المبعدة في درجتها، بحيث يخيل للإنسان استحالة توافق الظروف لحدوثها، ومع هذا إذا أخذها في ضوء بعض الاعتبارات يميل إلى قبولها، خاصة إذا أخذها مجزأة فوجد أن كل جزء، منفرداً، مقبول، وأنه من السهل أن يقع في الحقيقة: فمثلاً القصة الآتية كل جزء منها يمكن أن يقع، بل إنه يكاد يقع كل يوم في المحكمة:

أخبر عمر بن محمد بن أبي الحكم بن جناد عن عطاء بن مسلم قال: كنت عند ابن أبي ليلى، فشهد عنده رجل بشهادة، فقال: «اكتبوا شهادته»، ثم نظر إلى شعره مصففاً على جبينه،

(١) المجلة العربية: شوال، ١٤١٥هـ.

فقال : «تصفف شعرك؟ ردوا شهادته» . فقال :
«إن لي عذرا» ، قال : «وما عذرك؟» قال : «إن
برأسي سجاع ، فأنا أفاديها بهذا الشعر» ، قال :
«لا بأس ، اكتبوا شهادته» ، ثم نظر فإذا أظفاره
فيها آثار الحناء ، فقال له : «تخضب يدك بالحناء ،
ردوا شهادته» . فقال : «إن لي عذرا» قال : «وما
هو؟» قال : «إن لي أبا شيخاً فأنا أخضبه» . قال :
«لا بأس ، اكتبوا شهادته» . ثم ولى ، فنظر في
قفاه ، فإذا ثوبه يجره ، فقال له : «تجر ثوبك؟
ردوا شهادته» . قال : «إن لي عذرا» . قال «وما
عذرك؟» قال «إنا ثلاثة إخوة في حالنا بعض
الضعف ، وإنا قطعنا هذا القميص على أوسطنا
يتجمل به إذا خرج ، وإني إذا لبسته أنا أجره» .
قال «لا بأس ، اكتبوا شهادته» .^(١)

يصعب على الإنسان قبول هذه القصة الجميلة ،

(١) أخبار القضاة ، لو كيع : ١٣٦ .

التي لو لم تأت بهذه الصفة لحسن أن تأتي بصفة
أحجية فقهية، لأنها تصلح لذلك، والاعتراض
يأتي إليها، من تتابع الصدف التي توجب رد
الشهادة، مع وجود تلك الاعذار المتقنة التي
لا يسع القاضي ردها. وإذا تغاضينا عن ذلك
واجهنا عامل أقوى لرد القصة وهو أن القاضي
يكتشف كل واحدة من مسببات رد الشهادة على
حدة، مع أنها كلها أمامه مجتمعة، كان بالإمكان
أن يلقي بأسئلته واعتراضاته دفعة واحدة، كما
يفعل غيره من القضاة.

لهذا يبدو أن القصة، مثل كثير من القصص
القصيرة الطريفة، التي يؤتى بها لتخدم غرضاً
في ذهن الكاتب، لا يجد مكاناً لعرضه أحسن
من سبكه في قصة، فالفكرة السياسية تأتي في
ذهنه، فيضعها في قالب قصة، ويختار لها من
الأسماء السياسية ما يجعلها مشجباً يعلق عليه

فكرته، وآخر تخطر في باله فكرة أدبية، لا يستطيع
مقاومتها، وتصبح مثل ابنته، وهو يعرف أنها
لن تقبل منه في زمانه من معاصريه دون نقد
وتمحيص، وربما ينتهي الأمر بتسفيهه، وتشويه
فكرته ورفضها، فهو يلبسها لباس الفكرة
القديمة بقصة ينحلها أحد فطاحلة الأدب،
ويكفي أن يدخل هذه الشخصية الأدبية في
سلسلة الرواية، ليضمن لها التسجيل لدى
الوراقين، ثم تنداح في أرض الله الواسعة في
المشرق والمغرب.

وبعض هذه القصص يؤتى به للتسلية والترويح،
تماماً مثل قصص اليوم التي يلقي بها في المكتبات،
يقرأها ملايين من الناس، يعرفون أنها مركبة،
ولكنهم يجدون فيها المتعة والترويح، وبعضهم
إذا سمع أن هذه القصة قد أخرجت في فيلم
حرص على رؤيته، ليرى أي الاثنين، الكتاب

أو الفيلم، أكثر شداً له وجاذبية. وقصص
الأمس على قصرها وبساطتها تخدم أفكاراً
مماثلة لقصص اليوم، وتوصل إلى القارئ على
هذا الجسر كثيراً من الأفكار الحائرة الدائرة
في المجتمع.

وقد أفسدت هذه القصص الحقائق التاريخية
عن العصر الأموي والعباسي بالذات، فأصبح
المؤرخ في هذين العصرين اليوم يخوض في بحر
مليء بالقروش المفترسة، وفي نهر مليء بالتماسيح،
فلا يلتقط جوهرة حلите، ولا سمكة لطعامه،
إلا بعد أن تخلص من هذه الشوائب القاتلة.
إلا أن في هذه القصص طرافة، وتعكس صورة
ذلك العصر بما فيه من تطاحن سياسي بعضه
خفي، وقد لا يكون التصريح به ممكناً، لأن
بعض الخطورة تحف به، فيجد حامله المتنفس
في إدخاله في هذه «البرشامة» المناسبة.

فإذا جاء يوم استطعنا أن نميز الحقيقة التاريخية من القصة المفتعلة، أمكن أن ندرس هذه القصص الجميلة الممتعة دراسة توفيقها حقها، وتحللها محلها اللائق بها في أدبنا العربي، وربما استفدنا منها في زمننا هذا بالتأليف على نسقها، وخدمنا بعض الأفكار خدمة أوفى من المقالات المطولة الصريحة المملّة، وقد نجد في مداخل الطرافة التي اكتشفها آباؤنا ما يعضد «الكاريكاتير» الذي يبدو أنه في هذا الزمن صورة أخرى لهذه القصة القصيرة، ويخدم الأغراض نفسها، باتخاذ المنهج نفسه.

هذا يؤكد أن في تراثنا جواهر تنتظر من يزيل عنها الغبار لتشع إشعاعها الطبيعي الذي هيأه الله لها.

نطاح المتعاصرين^(١)

التنافس بين متعاصرين يجمعهما علم واحد، ملحوظ في كل الأزمان، ومشاهد بين مختلف الفئات، ومن بين من يُلاحظ فيه هذا الأمر، بصفة بارزة، بعض العلماء والشعراء. وإذا قُبِلَت المنافسة الحادة، والتطاحن الملح بين الشعراء، فإن ذلك لطبيعة الشعر والشعراء، وما قد تتطلبه أهداف الشاعر ومقاصده، وما يستلزمه الأمر، إن كان من المداحين، من إخلاء الميدان من الآخرين، حتى يصفوله الجو، ويتفرد بالموقف، فإنها لا تقبل بسهولة من العلماء، سرج المجتمع ومرشديه، ويصعب إيجاد المبرر لما يبدر من بعضهم من تطاحن، أو معرفة الأسباب التي تكمن خلف ما يأتي منهم من عداء يوجهه بعضهم لبعض؛ لأن العلم نور

(١) المجلة العربية : ذو القعدة، ١٤١٥ هـ.

يشع في القلب والذهن والنفس ، في حين أن
التطاحن والتنازع والغيبة ، ومحاولة التقليل من
القدر ، والطعن في الكفاية ، وتسقط الزلات ،
وإبرازها ، ظلمة لا يتوقع أن تجتمع مع النور
في قلب واحد ؛ فالنور يبدد الظلمة ، والخير
يطرد الشر ، والمحبة تقضي على الكره ، وتحارب
البغضاء .

ولعل النظر في بعض الحالات التي سجلت
في العصور السابقة ، وهي قليل من كثير ، يعطي
ضوءاً يكشف بعض الأسباب التي تكمن وراء
التطاحن بين العلماء ، والدوافع التي أدت إليه ،
فيتبين بالتدبر والفحص ما لم يتبين بالنظرة
السريعة العابرة . وقد يتبين بعد التمهيد
والتدقيق أن هناك فرقاً بين العالم الذي يغلبه
علمه ، فيساعده على الاحتساب ، وطلب الأجر
من الله ، وبين عالم يغلب علمه فيسخره للنفع

الديوي ، ولا يستفيد منه في منعه من الإثم .
وفرقاً بين عالم أخلص النية لله ، ورجا بعلمه
ثواب الله ، وعالم بيت نية تخالف ظاهر ما يبدي ،
وفرقاً بين عالم وقف حياته على كسب العلم ،
وعالم أخذ من العلم ذنباً ضحلاً اكتفى به ،
وأخذ يضخم منه ما لا يحتمل التضخيم ؛ ليملاً
الدنيا ضجيجاً وعجيجاً . وفرقاً بين عالم أبعد
عن العمل في صمت واحتساب ونفور من الدنيا ،
ومجال العثار فيها ، وعالم اتخذ العلم حرفة ومهنة ،
لا تعدو في نظره أن تكون مصدر رزق وغنى ،
ورئاسة وزعامة ؛ فالعالم الأول صاحب مبدأ
وفكر وإشعاع روحي ، والثاني لا يختلف عن
النجار أو الحداد أو الصائغ أو الحوذي ، أو ما
يمثل هذه من المهن اليدوية .

ولعل الأمثلة التي يمكن أن تساق في هذا
المجال من التاريخ توضح هذا ، وتبين أمراً لم

يخطر على البال ، مثل كون الأمر يتوقف على طبيعة المرء وتربيته ، وما مر به في مبدأ حياته من أمور صبغتها بالصبغة التي أوجبت هذا التصرف ، وأنه لا دخل لهذا من قريب أو بعيد بالعلم الذي درسه أو الصنعة التي اختارها :

كان الحسن بن صافي النحوي ، ملك النحاة ، يستخف بالعلماء ، فكان إذا ذكر واحد منهم يقول :

« كلب من الكلاب » ، فقال رجل يوماً :
« فلست إذاً ملك النحاة ، إنما أنت ملك الكلاب » .
فاستشاط غضباً ، وقال : « اخرجوا عني هذا الفضولي » .^(١)

وهناك قصة ثانية فيها مثل على سوء ظن عالم بآخر ، ومحاولة التقليل من شأنه علناً :
قال أبو بكر بن عياش : كنا نسمي الأعمش

(١) معجم الأدباء : ٨ / ١٣٢ .

سيد المحدثين ، وكنا نجيء إليه إذا فرغنا من
الدوران ، فيقول : «عند من كنتم؟» فنقول :
«عند فلان» فيقول : «طبل مخرق» ويقول :
«عند من؟» فنقول : «فلان» ، فيقول : «دفّ
ممزق» .^(١)



(١) أخبار الظراف والمتماجنين : ٨٢ .

النصفة جمال^(١)

أن تنصف من نفسك ، وتشهد لخصمك
ضد نفسك أمر لا يتم إلا من فئة قليلة من الناس
في المجتمع ، وهذه الفئة هي التي تعطي المجتمع
الجمال الذي يحتاجه أي مجتمع ، ويتميز به
مجتمع عن مجتمع ، وقد يتصف به فرد نتيجة
خميرة جيدة وضعها الله فيه ، فزكت ونفعت
صاحبها . وقد تعم الفضيلة المجتمع ، فتصبح
صفة من صفاته ، والاعتراف بحق العدو من
الصفات الحميدة ، وهي في النهاية ذات فائدة
كبرى لهذا المجتمع ، وبدونها يصبح المجتمع
منتقداً من أجل هذا النقص ، فالعربي عندما
تقاتل قبيلته قبيلة أخرى تصفها بالشجاعة ،
وتقر لها بما تأتي به من بطولات ، رغبة في قول
الصدق ، وتهيئة القبيلة للاستعداد التام لمن

(١) المجلة العربية : ذو الحجة ، ١٤١٥ هـ .

سوف يلاقونه ، فلا يستهينون بهم ، فإذا غلبوهم
زاد هذا في مقامهم ، وإن غلبوا عُدِرُوا لتفوق
خصومهم .

وقد أصبحت هذه قاعدة عند العرب ، ومن
خرج عنها اعتبر شاذاً ، لهذا تفننوا في أقوالهم
في وصف لقاءاتهم مع أعدائهم ، ونوعوا في
وصف بطولات أولئك ، وما قابلهم به هؤلاء ،
ولا تتردد وأنت تتابع هذه الأقوال نشرّاً أو شعراً
إلا وتقدر هذا الفعل منهم ، وتحترمهم من أجله ،
بل وتفاخر بهم .

وأما قول عبدالشارق بن عبدالعزيز
الجهني ، وهو من أحسن ما قيل في الانصاف
في صفة الحرب واللقاء والصدق في ذلك :

تنادوا يالَ بُهْثَة يوم صبر
فقلنا : أحسنى ضرباً جهيناً

سمعنا دعوة عن ظهر غيب
فجلنا جولة ثم ارعونا
فلما أن تواقفنا قليلا
أنخنا للكلأ كل فارتمينا
ولما لم ندع قوسا وسهماً
مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤم مزنة برقت لأخرى
إذا جاؤا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتل منهم
ثلاثة فتية وقتل قينا
وشدوا شدة أخرى فجرّوا
بأرجل مثلهم ورموا جويننا
وكان أخي جوين ذا حفاظ
وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسرات
وأبنا بالسيوف قد انخينا

فباتوا بالصعيد لهم أحاح
ولو خفّت لنا الكلمى سرينا^(١)

لقد أنصف الشاعر خصومه ، فأرى التساوي
في كل أمر تقريباً ، وهذا الانصاف التام ، والتعبير
الفصيح المعبر ، هو الذي جعل قصيدته تبقى ،
وتكون مثلاً دقيقاً للانصاف في ذلك الزمن بين
قبائل العرب ، لقد حافظ الشاعر على هذه الروح
محافظة مدهشة ، حتى آخر بيت عندما قال : ولو
خفّت لنا الكلمى سرينا ، ليعدل ما قاله عن أعدائه
الذين باتوا بالصعيد لهم تنحنح وحزن .

فإذا كان القتل للفتيان زينا ، كما قال
عبدالشارق في قصيدته السابقة ، فقد أخذ
عبدة بن هلال في أبيات له يصف هذا القتل ،
ويعطي صورة دقيقة لمراحل إحدى القتلات في
إحدى الوقعات ، وبعد ذلك يختم أبياته بتأكيد

(١) بهجة المجالس : ٤٧٣ / ٢ .

لما قاله عبدالشارق ، فيقرر أن السراة أعمارها
قصيرة ، لأنها في الغالب تكون في مقدمة الصفوف ،
وعرضة لتناوش السيوف والرماح ، فهم الدرع
البشري لقومهم :

يهوي وترفعه الرماح كأنه
شلوّ تنشب في مخالب ضار
فيرى صريعاً والرماح تنوشه
إن السراة قصيرة الأعمار^(١)

(١) بهجة المجالس : ٤٧٨ / ٢ .

استقالة من الحسن^(١)

هل يمكن أن تستقيل امرأة من دعوى الحسن
والجمال؟ هل يمكن أن تخرج المرأة من طبيعتها،
فتتمرد عليها؟ هل يمكن لامرأة جميلة أن تقر
لأخرى أنها أجمل منها؟

فخر المرأة بجمالها، واعتزازها بحسنها،
إن كان ناقصاً أكملته بالكحل والأصباغ، بل
وبالخروق، تلبدها هنا وهناك، فتملاً ما انخفض
هنا، وتساوي ما تنافر هناك، لا تتعب من تجميل
نفسها، ولا تمل من التزويق والتزين.

تساهل المرأة في كثير من الإهانات، ولا
تساهل مع من يقلل من مباهاتها بجمالها،
صراحة أو تلميحاً، بل إنها تغضب عندما تتزين،
فلا يمدح الناس زينتها وجمالها، فلا يكفيها
الموقف المحايد أو السلبي تجاه حسنها، فهي

(١) المجلة العربية : محرم، ١٤١٦ هـ.

تريد ايجاباً يطفح بالمدح ، ويتغر بالإطراء ،
ويمتلئ بالثناء . هذا هو ثمن رضاها ؛ وإطراء
حسنها يخدرها ، فالزوج الذي يريد أن تغفر له
زلة ، أو تتغاضى عن خطأ ، عليه أن يبادرها
بالإطراء ، ويغالي في هذا ، ويتبع بعض هذا
بعضاً ، فيضمن أن يزول غضبها .

والمرأة لا تقبل المزاح والمداعبة في تقليل شأن
جمالها ، ولو كانت أقبح خلق الله ، وتعرف هذا ،
فإنه يخدرها الادعاء بجمالها ، ولا تطرب لمن
يمدح حسن خُلُقها مثل من يمدح حسن خُلُقها ،
ولا تلام ، أليس هو بضاعتها في سوق الأزواج .

ومهما كانت المرأة متدنية ، فإن حسنها يحتل
من قلبها ما لا يتصور من الحيز ؛ كان هناك امرأة
في زمن آبائنا ، وكانت على منزلة من الخلق والديانة
متناهية ، وكانت جالسة في مكان من منزلها ،
وعندها صويحباتها ، وكان هناك عمال يصعدون

وينزلون ، يصلحون سطح البيت ، فمرت أول
دفعة من العمال لم تتنبه لهم ، فتستر وجهها ،
فنبهتها إحدى الجالسات ، وقالت لها :

إن العمال رأوا وجهك عندما مروا .
فقالت : الحمد لله أنهم رأوني كاحلة .

إنها لم ترد أن يروها في حالة لا ترضاهها ، فلم
يقلقها أنهم رأوها ، لأنها لم ترد هذا ، ولكن مادام
الأمر قد وقع ، ولا حيلة لها فيه ، فقد غلبتها
طبيعتها ، وأبدت الملاحظة التي تهمها ، فلم
تقل : اللهم اغفر لي ، أو سامحني ، أو أعف عني ،
أو ويلي من ربي . لقد راح تفكيرها رأساً إلى
مصدر عزها وفخارها : جمالها ، فعزّتها تأبى
عليها أن تُرى ولم تكتحل ، فهذا نقص في حق
جمالها ، وإهانة لحسنها ، رحمها الله رحمة الأبرار .

فمتى إذاً تستقيل المرأة من حسنها ؟
عندما يخرج من صلبها ابنة جميلة ، ترى

فيها جمالها الغابر ، وتذكر حسنها الذي ولى ،
ورونقها الذي عصفت به رياح الزمن . تجد في
ابنتها عزاءها ، ووسيلة إغاظة الأمهات الأخريات ،
اللاقي يباهين بناتهن .

سكينة بنت الحسين كانت من أجمل النساء
في شبابها ، وقد استقالت من الحسن ، وذهبت
إلى «المعاش» ، ولكنها عادت من باب خلفي ،
كيف ؟ هذه هي القصة :

«لقيت سكينة بنت الحسين سعدة بنت سالم
ابن عبد الله بن عمر ، بين مكة ومنى ، ومع سكينة
بنت لها ، فقالت لها : قفي يا بنت سالم .

فوقفت . فكشفت عن بنتها ، فإذا هي قد
أثقلتها بالدر . فقالت : والله ما ألبستها إياه إلا
لتفضحه» .^(١)

لقد سلّمت «وظيفتها» لابنتها راضية طائعة .

(١) ربيع الأبرار : ٣٠ / ٤ .

عمر بن الخطاب^(١)

عمر بن الخطاب رجل فذّ لم يأت بعده خليفة يغلبه في صفاته الحسنة ، ومزاياه الفائقة ، فهو يقظ ، حذر ، حازم ، عادل ، قوي ، شجاع ، صريح ، نابه ، لا يُخدع إلا في الله ، ولا يختل بسهولة ، يقظته جعلته يخزن من التجارب والاستفادة منها ما نفعه في مستقبل أمره ، ومتأخره ؛ حذر يقلب الأمر على وجوهه ، فلا يأخذ بالصورة الأولى ، ولا يكسل عن أن يتدبر الأمر في ذهنه ، ويدخله في قوالب يتأكد من أنه لا يشذ عما أظهر من أجله .

وهو حازم لا يتوانى في أخذ الحق من الكبير وإعطائه للصغير ، وخطفه من القوي ، وتسلميه للضعيف ، لا يهاب أحداً ، ولا يخاف من أحد ؛ لا يغريه المدح ، ولا يشجيه الذم ؛ مهيب لا يهفي

(١) المجلة العربية : صفر ، ١٤١٦ هـ .

قدره، متواضع لا يرفع أنفه؛ لم تستطع الدنيا
ببريقها أن تغريه، ولا السلطة أن تورم أنفه،
عمر هو عمر في خلقه المستقيم المشع، قبل
الإسلام وبعد الإسلام؛ يغلب عليه الجد في
عمله، ويغلب عليه الحنان والعطف والتواضع
داخل بيته.

همه الأول صلاح الناس، وخدمة الناس،
يخدم القوي في مساعدته على نفسه، فيحميه
من الزلل، والتعدي على الآخرين، ويحمي
الضعيف بحراسة حقوقه، وضرب سياج على
حياته من أن تنغص؛ وزن مجتمعه، فلا يطغى
فيه جانب على جانب، ولا ينقص جانب عن
جانب؛ يلمح الخطأ قبل وقوعه، يلحظ
بوادره، فيسارع إلى إيقافه قبل أن يستفحل
أمره، ويقطع دابر الشر قبل أن ينتشر.

وعمر عادل، لا يهمه ممن أخذ الحق؛

حتى على نفسه يحجور ليكون في مأمن من الظلم،
أو الزحف على حقوق الآخرين، يبدأ بنفسه، في
الأمور التي ينوي أن يسيّر الناس عليها؛
القدوة عنده في المقام الأول، فهو يريد من
نفسه في أقواله وأعماله أن يكون قدوة، ويطالب
الصحابة - رضوان الله عليهم - في أن يكونوا
مثله، فهم سرج المجتمع، والعين إليهم ناظرة،
وهم المربون للجيل الذي يليهم.

وعمر قوي في تصرفه، لأنه ينطلق من بؤرة
الإسلام، يرى، ويستشير، ويقدم، وهو واثق
أنه لم يترك جانباً من جوانب الأمر لم يعرف
الرأي فيه، ثم يتوكل على الله فينفذه؛ يعجبه
الرأي الصائب، والقول الحسن، ولا يكتفي
بإعجابه، بل يسارع إلى إعلان ذلك، والإشادة
بصاحب الرأي أمام الجميع، وكأنه يقول:
هذه جائزة من قال الحق، مناصرة للحق؛

ومن اقتدى نال حقه من التكريم ، والإشادة .

شجاع في قول الحق ، يجد لذة في التصريح
بالمواقف التي تحتاج إلى ذلك ؛ والشجاعة في
داخل النفس أوفى أنواع الشجاعة ، فهي تقوي
القلب ، لامتلاء صدر صاحبها بالثقة ، وإيمانه
بأنه على حق ، فيجهر بما قد يتردد أناس آخرون
في إبداء رأيهم .

وصراحته أراحت من حوله ، لأنه بها يكشف
عما في نفسه ، فيتصرفون معه وعنه بعلم
ومعرفة ، فلا يضربون أخماساً في أسداس ، لما
يريده منهم ، خاصة عماله بعد أن أصبح
خليفة ، وحبه للصراحة جعله يطالب من حوله ،
أو من يعمل معه بها ؛ ولا يقبل عنها بديلاً .

توسعت رقعة الخلافة في زمنه ، إلا أن
الحكم وجد فيه - رضي الله عنه - خليفة كفيئاً
لمسايرة هذا التوسع ، وما نتج عنه من احتكاك

أمة العرب بغيرها من الأمم، وما واكب هذا من تغير، في العادات والتقاليد، وما يمس من ذلك بالدين، وضياء جوهره، فكان عليه - رضي الله عنه - أن يعد العدة لمقابلة ذلك بأَمْضى سلاح، وهو سلاح التنظيم؛ فأوجد الدواوين، وأعطى تعليماته عن الطريقة التي يمكن أن تكون عليها الأراضي المفتوحة، وأراضي الخراج.

ثم التفت للنواحي الأخرى، فوضع الأسس، ومن جملة هذه الأمور القضاء، الذي ازدهر في ذلك الوقت، لكثرة المستفتين عن أمور جدت، ومشاكل طرأت، ولهذا رأى عمر أن يضع الأسس، فكان يأتي بها على صورة نصائح ووصايا، وهذا نموذج من وصاياهم:

«قال حفص بن صالح الأزدي، عن عامر

الشعبي:

كتب عمر إلى معاوية :

أما بعد : فإني كتبت إليك بكتاب في القضاء ،
لم آلك ونفسي فيه خيراً . الزم خمس خصال ،
يسلم لك دينك ، وتأخذ فيه بأفضل حظك :

إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة
العادلة ، واليمين القاطعة ، وادن الضعيف حتى
يشد قلبه ، وينبسط لسانه ، وتعهد الغريب ،
فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ، ورجع إلى أهله ،
وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ؛ وآس بينهم في
لحظك وطرفك ؛ وعليك بالصلح بين الناس
ما لم يستبن لك فصل القضاء» .^(١)

(١) البيان والتبيين : ١ / ٢٨٩ .

كذب مقصود^(١)

الكذب من أسوء الصفات في الإنسان، تنعدم الثقة في صاحبه، فلا يقبل منه قول، ولا ينظر في شهادته؛ والكذب من أمتن العقد الإنسانية في الشخص، يعمد الكاذب إلى الكذب، لأنه يشعر بنقص يكمله بالكذب؛ فالحقائق عنده لا تكفيه، ولا يرى أنها تأتي له بالمجد الذي يتطلع إليه، فيعمد إلى الكذب يسد به الثغرات، التي يشعر أنه يأتيه منها ريح عاصف.

والكذب أنواع، يكاد لا يحصرها حد، يتوقف نوعها على الشخص، وما اعتاد عليه، والهدف من الكذب، وما هو موجه له؛ فالتدليس كذب، والتزوير كذب، وعليه فالكذب ليس في الأقوال فقط، ولكنه في الأفعال أيضاً، ولعله أشد أذى في بعض الأحيان، وقد يكون محبطاً

(١) المجلة العربية: ربيع الأول، ١٤١٦هـ.

للدين أحياناً إذا كان العمل رياءً .

وإن كان كذب الأقوال في الأمور اليومية محقوتاً ، فهو في الأمور المكتوبة أشد مقتاً ، لأنه أبقي ، وأكثر للتداول ؛ وقد يزيد مع تداوله ، حتى يصبح كذباً مركباً ؛ والتاريخ اليوم يعاني من الكذب ، الذي ملأ صفحات الكتب ، وكذلك الأدب دخله من النخل ، والتلفيق والوضع ما أوجد كلفاً واضحاً في صفحة وجهه المضيئة .

وكذب الأدباء له دوافع متعددة ، فقد يكون الهدف إيذاء أحد الأدباء أو الشعراء بالصاق شيء به يؤذيه ، أو نحل ما أبدع فيه لغيره ، وقد يكون الكاذب وقع على فكرة جميلة ، أو نظم قصيدة أبدع فيها ، ورأى أنه إذا أظهر الحقيقة ، ونسبها إلى نفسه ، أصبح غرضاً للسهام ، فهو يعلقها على غيره ، ويرى الإعجاب بها ، لأنها نسبت إلى شاعر فحل ، أو أديب فطحل ، ويتلذذ

هو بما يسمع من الإطراء .

ومثل الأديب المؤرخ الذي يعمد إلى التاريخ
فيزوره لغرض في نفسه ، إما لتمجيد دولة ، أو
لرفع شأن قبيلة ، أو لتطيخ سمعة دولة ، أو وضع
شأن قبيلة ، فهو يدس الخبر ، ويقف ينظر وقعه
على الناس ؛ والخلفاء والوزراء ، والقبائل ،
ورؤساؤها وعمال الخليفة والقضاة ، وعلية
القوم ، ممن يشار إليهم بالبنان ، أقرب الناس إلى
أن يكونوا هدفاً لسهام الوضاعين ، وغرضاً
لبنال الكاذبين ؛ وهذا جعل القارئ للتاريخ
يمشي على شوكة ، يجرح قدمه ، ويضل سيره .

والنزاع بين القبائل ، والتصادم بين العشائر ،
كان مطية سهلة لارتكاب جريمة التزوير ،
والكذب ، ووضع الأخبار ، بعضها يأتي متقناً ،
وبعضها مهتزاً ، لا يكاد يقف على قدمين .

ومن أبرز الحقول التي زرعت ببذرة الكذب

والاختلاق النزاع الذي قام بين الهاشميين
والأمويين ، فوجد الوضاعون فيه حقلاً خصباً
يبتون فيه سموم أفكارهم ، وميداناً فسيحاً تصول
فيه خيول أفكارهم المريضة ، والنص الآتي دليل
على مثل هذا الوضع ، إذ أن النص مختلق ،
والكذب فيه واضح ، لأن الجانبين على خلق ،
يأبى لهما أن ينزلا إلى هذا المستوى من السباب ،
والعلاقة الحذرة بينهما ، والاحترام المتبادل ،
يجعل من المستحيل أن يقع شيء مما قيل أنه حدث :

«قال معاوية لابن عباس :

يا بني هاشم ، ما لكم تصابون في أبصاركم؟

فقال : وأنتم تصابون في بصائركم !

وذلك أنه لم يوجد ثلاثة مكافيف على نسق ،

غير عبدالله ، والعباس ، وعبدالمطلب» .^(١)

لقد أغرى الكاذب علمه بأن عبدالله والعباس

(١) ربيع الأبرار : ٩٥ / ٤ .

والمطلب كانوا مكافيف بالتتابع ، أن يركب
القصة ، لعدم رضاه عن معاوية ، فأراد أن يظهره
بمظهر المعتدي المهزوم .

شغاف القلوب^(١)

لمس شغاف القلوب يحركها، وترقيق النفوس
يحتلها، ويفتح الموصل من أبوابها، ويشرعها
على مصراعيها، وليس كل إنسان يستطيع أن
ينجح في هذا، ولا ينجح فيه عادة إلا صاحب
النية الصادقة، والقول الحسن، الذي يرمي إلى
المرامي الطيبة، ويعمد إلى الحقيقة فيجليها،
ويبتعد عن الكذب أو التصنع، أو الاصطياد
والختل، يسلك الطريق المستقيم إلى هدفه،
بأرق عبارة، وأخصر طريق.

يتكلم وكأنه فتح نافذة لعينه، لترى ما بداخل
نفس من يخاطبه، فهو يتكلم عنه بما يريد هو،
ويأتي في قوله بما يتمشى مع ما في نفس قبيله،
لأن الحقيقة ذات وجه واحد، لا اختلاف فيه،
ولا تلون، المبدى مع المستقبل في صف واحد،

(١) المجلة العربية: ربيع الآخر، ١٤١٦هـ.

خندقهما واحد، وممرماهما واحد.

والخداع والغش قد يقع في حبائلهما غير
الذكي، فيكون فريسة لمن هو أذكى منه، يختله
بمعسول الكلم، ومبتسم الحديث، ولكنها
مجازفة كبرى قد لا تنجح، وقد تنجح أولاً
فتكشف ثانياً؛ أما من كان في جنب الله فلا يخدع،
ولا يختل.

وعمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - كان
رقيقاً، قلبه يخفق لآلام الناس، ونفسه تصغي
لمعاناتهم؛ وكان ذكياً، لم يستطع الشعراء وهم
أصحاب الألسنة التي تقطر عسلاً ونفاقاً، أن
يخترقوا أسوار دفاعه، حمى بيت المال منهم،
فيسوا منه راضين، لأنهم لمسوا، وهم أصحاب
الثقافة العالية، والفكر النابه، أنه على حق،
وساوى بينهم وبين غيرهم من فئات الناس،
فيما اتخذ سياسة له، ونهجاً ارتضاه، عرفوه

به ، وقدروه من أجله ؛ وكان خليفة يمثل الأب الذي لا يهمل حقاً استوجب لأهله ، ولا يغفل عن مصلحة تبرز لأحد أبنائه ، يفحص كل حالة ، ويستقصي كل أمر ، فيصدر أحكاماً ، يلبسها لحالاتها ، لا يخلط بين حالة وحالة ، ولا يطبق حكماً عاماً وضعه قلباً يريحه ، فلا يتعب في الالتفات إلى كل فرد ، بل إن براءة الذمة تنسيه نفسه ، وتشغله عن راحته ؛ عينه على الآخرة في كل مكان يأتي ، وكل مكان يدع .

عرف عنه أنه لا يفرط في مال المسلمين ، فلا يعطي منه إلا لمن استحقه ، ولهذا فليس كل إنسان يستطيع أن يخترق حاجز التحري الذي نصبه عمر ، ولا ينفذ من منهج الاستقصاء الذي أقامه ، أمام كل طالب حاجة .

ولقد نفذ من سور هذا الحصن شاعر لم يقل أبياتاً ، ولكنه سكب شعوراً ، لمح عمر بن

عبدالعزیز - رضی اللہ عنہ - نور الصدق فیہ ،
وضیاء الحقیقة ، فسمح لعاطفته أن تجیش ، وهي
فی هذه الحالة مأجورة من رب العالمین ، وأعطی
مخاطبه سؤله ، ومعه دمة رقیقة ، سكبت ، أو
بقيت رهينة محبسها ، وهذا هو الموقف .

«قال نصیب لعمر بن عبدالعزیز :

یا أمیر المؤمنین ، کبرت سنی ، ورق عظمی ،
وبليت ببنيات نفضت علیهن من لونی ، فکسدن .
فرق له ، ووصله» .^(۱)

لقد کان نصیب أسود اللون ، ولكن کان له
شعر أكثر بياضاً من الأخوان ، وعقلاً أرزن من
جبل أحد ، ونية أصفى من ماء المطر فیما
تطرق له .

(۱) ربیع الأبرار : ۷۲۳ / ۳ .

الصيدلة^(١)

الصيدلة مهنة من المهن المهمة في كل مجتمع متحضر، قديماً كان أو جديداً؛ وصاحبها معضد للطبيب، بعد أن كان يزاولها الطبيب بنفسه، ويحضر الأدوية في ضوء ما يعرفه عن الأدوية، ويأتي الاسم أحياناً: «صيدلياً» وأحياناً «عطاراً».

والمهارة تلعب دوراً كبيراً في هذه المهنة، والخبرة ترفع صاحبها عن عديم الخبرة، أو المبتدئ، وقد يتوقف الضرر والنفع بإذن الله على محضر الدواء، وخالط المركبات المختلفة. وقد أصبح الصيدلي في زمننا يحتاج إلى رخصة ليزاول المهنة، ولا تعطى الرخصة إلا إذا حصل على شهادة جامعية يعترف بها بلده. وكان الصيدلي في زمن من الأزمان يعتمد كلية على ما يركبه

(١) المجلة العربية: جمادى الأولى، ١٤١٦هـ.

من مستحضرات ، وما يخلطه من أنواع ، وما يمازج بين أجزائه من أصناف ، أما اليوم فقد قل عمل هذا الجانب ، بعد أن كثرت مصانع الأدوية ، وتعددت ماركاتها ، وتشكلت بأشكال مختلفة ، منها الحبوب ، ومنها الكبسولات ، ومنها الأشربة ، ومنها التحاميل . وأصبح الطبيب أمام قائمة من مصنوعات الأدوية يختار للداء منها ما يشاء .

وأصبحت هناك تهم تكال لبعض الأطباء والصيادلة من التعاون بينهما في وجوب المريض شراء الدواء من صيدلية معينة ، لأن للطبيب «عمولة» ثابتة ؛ وقد لا يكون في هذا بأس إلا إذا حَصَرَ الطبيب أدويته فيما تبيعه هذه الصيدلية ، جادت أو لم تجد .

والتهم التي توجه إلى ذمم الصيادلة كثيرة ، وبعضها طريف ، ومنه ما يقال على سبيل

«النكتة» من أن رجلاً بعد أن تخرج ابنه من الجامعة صيدلياً، وساعده والده على فتح صيدلية، جاء الوالد يزور ابنه، فاحتفى به الابن، وأخذ يطلعه على رفوف الأدوية، ويعلمه باستعمالها؛ حتى أتى إلى رف صُفّت فيه زجاجات كبيرة، فيها شراب مختلف ألوانه، فسأله والده عن الأدوية التي توصف لها هذه السوائل الملونة؛ فضحك الابن، وقال إنها ماء وأصباغ فقط، نصرها لوصفة الطبيب التي لا نستطيع قراءتها.

ومن المعروف أنه قليل من الأطباء يعتني بخطه، فالأغلبية منهم يكتبون بخط رديء، ويؤول العارفون بهذا أن هذا ذكاء من الطبيب حتى يغطي على جهله بتهجي الكلمة الفرنجية!

لقد وجدت أن لشكوى من الصيدالة، ومما يبيعون من الأدوية قديمة، ولعل الطبيعة لكل مهنة تتسلسل عبر العصور، لا غيرها مر

الزمن ، وإليك ما وجدت :

قال يوسف بن إبراهيم : حدثني زكريا بن الطيفوري قال :

كنت مع الافشين في معسكره ، وهو في محاربة بابك ، فأمر بإحصاء جميع من في عسكره من التجار وحوانيتهم ، وصناعة كل رجل منهم .

فرفع ذلك إليه ؛ فلما بلغت القراءة بالقارئ إلى موضع الصيدالة قال لي : يا زكريا ، اضبط هؤلاء الصيدالة عندي أول ما تقوم فيه ، فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره ، ومن له دين ، ومن لا دين له .

فقلت : أعز الله الأمير ، إن يوسف لقوة ، الكيميائي ، كان يدخل على المأمون كثيراً ، ويعمل بين يديه ، فقال له يوماً :

ويحك يا يوسف ! ليس في الكيمياء شيء ؟
فقال له : بلى يا أمير المؤمنين ، وإنما آفة

الكيمياء الصيادلة .

فقال له المأمون : ويحك ! وكيف ذلك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الصيدلاني لا يطلب منه إنسان شيئاً من الأشياء ، كان عنده ، أو لم يكن ، إلا أخبره بأنه عنده ، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده ؛ وقال : هذا الذي طلبت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لا يعرف ، ويوجه جماعة إلى الصيادلة في طلبه ، ليبثاعه ، فليفعَل .

فقال له المأمون : قد وضعت الاسم ، وهو سقطيثا ، وسقطيثا ضيعة تقرب من مدينة السلام .

ووجه المأمون جماعة من الرسل ، يسألهم عن سقطيثا ، فكلهم ذكر أنه عنده ، وأخذ الثمن من الرسل ، ودفع إلي شيئاً من حانوته !
فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة ، فمنهم

من أتى ببعض البزور، ومنهم من أتى بقطعة
من حجر، ومنهم من أتى بوبر. فاستحسن
المأمون نصح يوسف لقوة عن نفسه، وأقطعه
ضيعة على النهر المعروف بنهر الكلبة، فهي في
أيدي ورثته، ومنها معاشهم، فإن رأى الأمير
أن يمتحن هؤلاء الصيادلة بمثل محنة المأمون،
فليفعل.

فدعا الأفشين بدفتر من دفاتر الاسروشنية،
فأخرج منها نحواً من عشرين اسماً، ووجه إلى
الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك
الأسماء، فبعضهم أنكرها، وبعضهم ادعى
معرفتها، وأخذ الدراهم من الرسل، ودفع
إليهم شيئاً من حانوته.

فأمر الأفشين باحضار جميع الصيادلة، فلما
حضروا، كتب لمن أنكر معرفة تلك الأسماء
منشورات أذن لهم فيها بالمقام في عسكره؛

ونفى الباقيين عن العسكر ، ولم يأذن لأحد منهم
في المقام ، ونادى المنادي بنفيهم ، وإباحة دم من
وجد منهم في معسكره . وكتب إلى المعتصم
يسأله البعثة إليه بصيادلة لهم أديان ، ومذهب
جميل ، ومتطبين كذلك ، فاستحسن المعتصم
منه ذلك ، ووجه إليه بما سأل .^(١)

هذه حال الصيادلة في الزمن الماضي ، منهم
من اجتاز عقبة الاختبار ، ومنهم من قصر عن
اجتيازها ؛ ونحتاج إلى اختبار من هذا النوع
لصيادلة اليوم ، ولكن يجب أن يكون بأسلوب
يتناسب مع حضارة اليوم !!

(١) عيون الأنباء ، لابن أبي أصيبعة : ٩٢ / ٢ .

عافية منتقدة^(١)

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شخص فريد في حزمه، وقوته على عماله، فهو لا يتهاون؛ إذا رأى أمراً انتقده، ولا يغضي عن عيب اكتشفه، يبادر بإظهار ما في نفسه، ويسارع إلى المكاشفة عما جال بخاطره؛ لا يخاف في الحق لومة لائم؛ عينه مفتوحة، وقلبه يقظ، ولا يُغفل أمراً صغيراً، ولا يتهاون في أمر عارض، يشك فيما لا يتيقن منه، ويدقق فيما يرتاب فيه؛ كلمته في الحق جاهزة، وقوله فيما يجلو الأمر ظاهر.

لقد كان - رضي الله عنه - مدرسة لجيل كامل، بل لأجيال قادمة؛ يرتب أمور عماله، وأموره معهم، ويتابع أحوالهم، ويستقصي عن تصرفاتهم؛ يختبرهم في أعمالهم في أماكنهم،

(١) المجلة العربية: جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ.

بسؤال من يأتي من جهتهم ، ويناقشهم إذا جاؤا ،
ويدقق في هذا ، وكأنه أستاذ يحاسب تلميذاً ؛
وكان لا يخدع ، لنباهته ، ولمعرفته بالناس ،
وما تسير عليه نفوسهم ، لأنه عالم نفسي متميز ؛
تفيدة فراسة فطرية أودعها الله فيه ، تهديه إلى
ما قد يعمد عماله إلى التصنع فيه ، وإظهار غير
الحقيقة .

كان يختار العامل ، ويتعب نفسه في التحري
عنه ، والاستقصاء عن حياته ، ولكنه يعرف
أنه ليس في البشر رجل كامل ؛ فيعين أمراءه
وهو يعرف جانب النقص فيهم ، فيبقى عينه
على هذا الجانب يَقْظَى لا تطرف ، وساهرة لا
تنام ؛ وكان لا يترك الأمر يستفحل ، بل يعالجه
بحزم ومن أول ما تَبَدُّو بوادره .

كان - رضي الله عنه - عادلاً في معاملته لعماله :
لا يبهت أحداً منهم ، أو يظلمه ؛ ولا يكابر إذا

بداله أنه على خطأ، بل يتراجع برجولة، وبلا تردد.

وكان أخوف ما يخاف على عماله أن يدفعهم المال في البلدان المفتوحة حديثاً، وهي غنية، مثل العراق والشام ومصر إلى لين المعيشة، ويعرف أن المال وسيلة للرفه، والرفه وسيلة للتراخي عن القيام بالواجب، والتهاون في شؤون الرعية، وإهمال حقوقهم، وله موقف مع معاوية - رضي الله عنه - مليء بالالتفاتات، ونصه:

«عن أسلم مولى عمر قال:

قدم علينا معاوية، وهو من أبض الناس، فجعل عمر يضع أصبعه على متنيه، ثم يرفعهما عن مثل الشراك حمرة، وهو يقول:

بَخْ بَخْ، نحن إذاً خير الناس، إن جمعت لنا الدنيا والآخرة.

فقال معاوية: أنا بأرض الريف والحمامات.

فقال عمر: ما بك إلا إطفائك بنفسك،
بطيب الطعام، وتصبيحك حتى تضرب الشمس
متنيك، وذوو الحاجات من وراء بابك!». (١)



(١) ربيع الأبرار: ٨٧/٤.

إختبار^(١)

إختبار المدرس للطالب أمر متوقع ومقبول ؛ وهو أمر لابد منه ، وإن لم يأت مرات بالسنة جاء مرة واحدة على الأقل ؛ وإختبار المشتري لدابة من الدواب أمر أحياناً من مكملات البيع والشراء ، وأن يختبر المرء آلة من الآلات أمر التخلي عنه يوجب الالتفات والعجب .

والإختبار وسيلة لمعرفة النّجابة ، أو الجودة ، أو كمال الصفات ، وله في كل فن أصوله ، ووسائله ، وطرقه ، حتى يأتي بالفائدة المرجوة منه .

والمختبرُ في حال ، والمختبرُ في حال مغايرة ، وقد يكون المختبرُ في عسرة ما بعدها عسرة ، يحمل من الهم ما قد يجعله يعيش منكداً عدة أيام ، حتى ينتهي الإختبار ، هذا بين الناس

(١) المجلة العربية : رجب ، ١٤١٦ هـ .

بعضهم بعضاً وليس مع الآلات الصماء التي
لا تحمل قلباً، حتى تملأه هماً.

والالتفات يأتي عندما يكون الاختبار في
جانب غير متوقع، مثل أن يختبر خصمُ القاضي،
لهدف الاطمئنان أن القاضي يقضي بالحق، ولا
يحيف، أو يميل مع خصم على خصم.

وقد ورد نص في التراث طريف هذا نصه :

قال النضر شَمَيْلِي :

كان بمر وقاض، فأتاه رجل من وجوه أهلها،
يدّعي على رجل مالا؛ وأتاه بشاهد واحد،
وحلف له، فأبى أن يقبل منه، فقال :

أيها القاضي، أترى مثلي، في قدري وحالي
في العامة، أدعي على هذا الرجل هذا القدر
اليسير باطلاً؟

فزاده إباءاً، فقال :

الحمد لله الذي وليّ أحكامنا مثلك، فوالله

مالي على هذا شيء ، ولكنني أحببت أن أمتحنك ،
وأعرف صلابتك في الحق ، وكذلك شاهدي
هذا .^(١)

هذا الرجل الذي من عليه القوم في مدينته
مرو ، أحب أن يتأكد أن القاضي المعين يدعو
حاله إلى الاطمئنان ، لأن القضاء مركز مهم في
حياة الناس ، لأنه الملاذ بعد الله من الظلم ، فإذا
فسد القضاء ضاع الناس ، وضاعت طمأنينتهم ،
وضاع أمنهم ، لأن الحاكم يسير في شكايات
الناس في ضوء أحكام القضاء ، ويقال إن أمماً
هلكت واضمحلت ، لأن الفساد وصل إلى
القضاء فيها .

ومركز القضاء في ذلك الزمان لا يقتصر
على الحكم بين متخاصمين ، ولا الفصل بين
متنازعين ، إنه مركز الفتيا ، وملجأ طالبي

(١) البصائر : ١٩٦/٥ .

الهداية والرشد لمن عمي عليه طريقهما ، ومقام
القاضي في المجتمع يجعله ركيزة من ركائزه ، لأنه
يختار من بين العلماء المتصفين بصفة الرزانة ،
وسعة الصدر ، والنباهة والذكاء والحدق ،
لأن القضايا التي تعرض عليه ، والمسائل التي
يعالجها ليست ذات طبيعة واحدة ، فقد يأتي ما
لا معرفة له به ، فيقرأ في أمهات الكتب ، وفي
أحكام القضاة السابقين ، ويستشير ، وقد لا
يتركز الحكم على العلم ، بل يتعداه إلى الفراسة
والحدق .

تري لو أراد أحد اليوم أن يختبر قاضياً ، كما
فعل ساكن مرو ، هل سوف تسمح له أنظمة
المحاكم وقوانينها بأن ينجو من العقاب ؟

نظرة خيرة^(١)

الناس قل أن يسلم منهم من به عاهة أو علة ،
فهم يعلقون ، ويلمزون ، ويغمزون ، وينسون
أن صاحب العاهة لم يختر عاهته ، أو يفضلها على
الصحة والسلامة ، ولكنه ابتلي بها ، فصبر على
قضاء الله ، أملاً في ثواب الله ؛ أو استسلم للأمر ،
وتعوّد عليه مع مرور الزمن .

وتعليق الناس يزيد إذا كان في العاهة ما يلفت
النظر ، ويوجب الملاحظة ، ويأتي غالباً من أولئك
الذين يجلسون في الطرقات ؛ وقتهم رخيص ،
ومشاركتهم للمجتمع منعدمة ؛ يجلسون يزجون
الوقت ، ويتصيدون الفرص لمنظر يجدون فيه
مادة لتعليقهم ؛ وليس من بينهم من يفكر أن
يضع نفسه موضع المنتقد منهم ؛ هم في غيهم
ساهون ، وفي ضلالهم سادرون ، لا يوقظ

(١) المجلة العربية : شعبان ، ١٤١٦ هـ .

ضمائرهم دين ، ولا يحرك تقواهم ضمير .

ويأتي الغمز واللمز ، بل أحياناً الأذى ، ومد
اليد ، من الصبيان ؛ فهؤلاء يحلو لهم أن يروا
معوقاً ، يفرغون في التبكيت عليه طاقة شر
محبوسة فيهم ، لعدم تقديرهم لأمر الحياة ،
أو نظرتهم إليها بنضج ؛ فدينهم في الغالب على
السطح ، لا يتعدى الجلد ، والخوف من العقاب
لا يأتي في ذهنهم ، فذهنهم مشغول حيزه بالتفكير
في الأذى والشغب .

والضحية تعاني في صمت ، وقد تعاني
بصخب ، فالمجنون قد يأخذ حجراً يرسله على
هؤلاء الذين تعرضوا لطريقه ، وقد يفقأ عين
أحدهم ، أو يكسر ذراعه ، أو يجز ساقه ، أو
يضر به في كليته ، حينئذ يتذكر المؤذي ، وأنّى له
الذكرى ، ويندم ولا ينفعه الندم . أما إذا كان
المؤذي كبيراً ، وليس صبيّاً ، فقد يأتيه الرد

مكياله صاع بصاعين!

والعاهات في الحياة كثيرة، يتعرض لها الإنسان، نتيجة حادث، أو إصابة بالجذري، أو نتيجة خطأ في التوليد؛ وكانت العاهات في الزمن القديم كثيرة، وأصحابها منتشرون في المجتمع، حتى إن الجاحظ كتب كتاباً خاصاً بالعرجان والبرصان والعميان. والمدن تجذب صاحب العاهة من قريته، ومن باديته، فتدخله إلى صدرها الواسع، حيث يجد الرزق هنا أو هناك.

وأمامنا نص طريف عن رجلين عالمين أحدهما أعمى، والآخر بعين واحدة؛ هذه الحالة جعلتهما عرضة للالتفات، ومرمى للتعليق؛ وهذا أزعجهما مما جعل أحدهما يفكر في هجر هذا الطريق، وتفادي من يجلسون فيه، يعلقون على المارة، ودار بين الرجلين حوار طريف،

يُري مبلغ تأثير العلم عليهما ، وتحكمه في
عقلهما ، فقد نظر كل واحد منهما نظرة خيرة ،
واختلفت النظرتان الخيَّرتان ، وهذا هو النص :

« كان الأعمش يقود النخعي ، فيصيح بهما
الصبيان :

عين بين اثنين !

فكان إبراهيم إذا انتهى إلى مجامعهم خلى عنه ،
فقال الأعمش :

وما عليك ، ياثمون ونؤجر .

قال إبراهيم : وما عليك أن يسلموا ونسلم » .^(١)

(١) ربيع الأبرار : ٩٤ / ٤ .

مظهر برّ^(١)

للدين الإسلامي إشعاع ينطلق في كل جانب من جوانبه ، فكل ما فيه لخدمة الفرد والمجتمع ، دنيا وآخره ، إذا تمسك الفرد بما جاء به من تعاليم سعد وسعد من حوله معه ، وتكوّن من الأفراد السعداء باتباع الدين مجتمع قوي متماسك .

لم يترك الإسلام صغيرة ولا كبيرة من أمور الناس دون أن ينظمها ، ويضع الأسس لاستقامة جوانبها ، إن لم يكن التفصيل في القرآن الكريم فهو في السنة المحمدية الشريفة .

ومن أهم ما نظمه الدين صلة الناس بعضهم ببعض ، حتى لا يختل نظم المجتمع ، فللوالدين على أولادهم حقوق ، وللأولاد على آبائهم حقوق ، تنتهي هذه وتبدأ تلك .

(١) المجلة العربية : رمضان ، ١٤١٦ هـ .

ولأن حق الابن والابنة على والديهما ينتهي في سن معينة ، فقد أكد الإسلام على حق الوالدين على أولادهم ؛ وحق الأبناء على آبائهم وأمهاتهم يبدأ من مرحلة ضعف ، وينتهي بمرحلة قوة ، أما حق الآباء على الأبناء فيبدأ بمرحلة قوة ، وينتهي بمرحلة ضعف .

ومرحلة الضعف عند الوالدين قد تطول ، فيضعف حماس الأبناء والبنات لرعايتهم ، ويقل التفاتهم لهم ، ويتلمسون الأعذار في عدم العناية بهم ، فيهملونهم ، أو يترأخون في القيام بواجبهم نحوهم ، فيدخلون بهذا في حدود العقوق ، وهو أمر شدد الدين في العقوبة عليه في الآخرة ؛ ولهذا أكثر الدين من الحث على بر الوالدين ، وصدر حقهم في آيات محكمات من كتابه المنزل ، فقال عز وجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا ﴿١﴾.

فقرن البر بهما بعبادته - سبحانه وتعالى -
وهذا تشريف لهما، فجاء البر بهما بعد عبادة
الله مباشرة، وأرشد إلى البعد عن أبسط أمور
الإهانة، وأضعف كلمات العقوق، ووجوب
أن يكون القول كريماً ليكون لائقاً بهما؛ ثم
أعقب ذلك بهذه الصورة البديعة للجناح
المنخفض ذلاً لهما، ودليل رحمة، وذكر بأن هذا
رد لما قاما به من تربية للابن والبنت في صغرهما
حتى أوصلاهما إلى برِّ الأمان، ومرفأ الاعتماد
على النفس، وروض من الحياة يجدان فيه إن جدا
واجتهدا ما يضيفي عليهما من السعادة ما هياه

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

لهما في تربيتهما؛ وصدر حق، وورد حق،
والحق اللاحق أكبر من الحق السابق.

ولقد أثمرت التربية الطيبة في أحد الأبناء
الشرفاء، فرأى لوالدته من حقها عليه ما لا يتنبه
له إلا نبيل الأصل، المربي تربية حسنة، ومن
أولى بابن ابن بنت الرسول ﷺ بمثل هذه اللفتة
المشرفة:

«قيل لعلي بن الحسين - رضي الله عنهما -
أنت أبر الناس، ولا نراك تواكل أمك؟
قال: أخاف أن أمد يدي إلى ما سبقت عينها
إليه، فأكون قد عققته». (١)

إننا نفاخر كل الأمم بمثل هذه التربية،
ونباهي جميع الخلق في أن يصلوا رحمهم بمثل
هذا العمق الروحي المشع؛ إن الإنسانية تطل
بأبهى صورها، وإن الارتفاع الخلقي يشمخ في

(١) البصائر: ٢٠٤/٥.

اعتلائه إلى عنان السماء ، وإنا بتعاليم إسلامنا
لمؤمنون فخورون .

البشاشة كرم^(١)

صحراء العرب صهرت خلق العربي،
وجعلت له تقاليد وعادات ترفع شأنه عند
دارسي الحضارات، وتعلي قدره بين مقدري
الالتفاتات الحسنة؛ فجفاف صحرائه عوضه
هو برقة مقابلته لشدائدها، وخشونة طبيعتها
أبدله بحسن تصرفه تجاه صعوبتها؛ ومن
أصعب ما يقابل المرء في صحرائه تنقله بين
وهادها وقفارها، مع قلة الزاد، وشح الماء،
وهذان العنصران عصب الحياة، وأعظم هم
يواجهه المسافر هو ضمان توفرهما.

لقد تغلب بقدر الإمكان على هذه الصعوبة
بأن أوجد فضيلة الكرم، وسن سنة الضيافة،
وإكرام الضيف، والسعي لتحقيق رغباته،
وجعله عندما يختاره مضيفاً يشعر أنه هو رب

(١) المجلة العربية: شوال، ١٤١٦هـ.

البيت ، وأن رب البيت ضيف عنده ؛ ومغالاة
البدوي في إكرام الضيف إنما هي تأكيد لتصميمه
على بقاء هذه العادة ، وعدم اهتزازها في يوم
من الأيام ؛ فهو يكرم الضيف إكراماً تاماً ،
ويفاخر بهذا ، ويجعله مُرْتَكِزاً لرفعه رأسه بين
بني جلدته ، به يتميز عن يقرى عنه مجهوداً ،
وبه يطالب بتقدمه في مجتمعه ؛ ويعيب غيره
على إهماله ضيفه ، أو عدم العناية به .

وحاتم طيء أشهر من نار على علم في كرمه ،
وحسن ضيافته لمن استضافه ، حتى أنه ذبح فرسه
لضيفه عندما لم يجد غيره ، ومن عرف قيمة
الحصان عند العربي أدرك المدى الذي وصل
إليه كرم حاتم ، فالحصان ثروة غالية ، لأنه
حمى صاحبه ، يرد عنه غائلة الزمن ، يصد على
ظهره العدو ، ويغير على غيره للكسب ؛ ولندرته
وما فيه من صفات أصبح يساوي الولد عند

الأعرابي .

ولو أحصي ما كتب عن الكرم في الجاهلية
لملأ مجلدات ومجلدات ، قصصاً وشعراً ، وامثالاً
وحكمة ؛ ولما فيه من فوائد ، وما يضيء به وجهه
من محامد أقره الإسلام ، وحث عليه ، وأنب
البخيل ، وألب على الشحيح ؛ ولهذا جاء في
الإسلام رجال أصبحوا قناديل مضيئة في كل
عصر من عصور الإسلام ، ومرحلة من مراحلها ،
ولا يزال هدفاً للفخر في وقتنا هذا ؛ بل إن الكرم
يغطي في كثير من الأحيان ما قد يكون في الإنسان
من عيوب ، بعضها قد يكون كبيراً بارزاً ، ولكن
الكرم نور وهاج ، يمحو ظلمة العيوب في أعين
الناس ؛ لأن الكريم صاحب نفس زكية ، وقلب
طاهر ، ومن هذه صفته يغفر الناس له كثيراً مما
لا يغفرونه لغيره .

والكرم أنواع ، قد يكون في العطاء والبذل ،

وفك ضائقة المعسر ، وإدخال السرور إلى قلبه
بلمسة حنان ، تساعده على فك دين ، أو مقابلة
متطلبات الحياة ، وقد تكون بالتنازل عن حق
مادي أو أدبي ، حَمَل شخصاً هماً مضجراً ، لا ينام
معه الليل ، ولا يهنأ بحياة في النهار ؛ وقد
يكون بكلمة طيبة يسديها إلى من هو في حاجة
إلى مثل هذه الكلمة .

والعربي وجد أن من أهم جوانب الكرم
البشاشة في وجه الضيف ، فهي أهم مما قد يقدمه
من زاد ومأوى ، وهي الواجهة للضيافة ، ونافذة
العرض ، فإذا جاءت وافية تمتع الضيف بالضيافة ،
وإذا لم تكن وافية انقلب الأمر إلى عكس ما
قصد به ، وأفسدت الصلافة والتجهم ما قد
بذل وافرأمن طعام وخلافه .

والبشاشة ، وحسن استقبال الضيف ، هي
الكرم بعينه ، لأنها تجعل الأمر يظهر على

حقيقته ، وأن المضيف مؤمن إيماناً عميقاً بهذا
التنظيم الجميل ؛ فهو يظهر السعادة لضيفه ،
ليعطاها في يوم من الأيام إذا ما حل ضيفاً على
أحد ؛ فالبشاشة دين يستوفيه في يوم من الأيام ؛
والتراث مليء بالأقوال عن هذا الجانب .

يقول الجاحظ :

«العرب تجعل الحديث والبسط ، والتأنيس ،
والتلقي بالبشر من حقوق القرى ، ومن تمام
الإكرام ؛ وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند
أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المأكلة ،
وقال شاعرهم ، وهو حاتم الطائي :

سلي الجائع الغرثان يا أم منذر
إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
هل أبسط وجهي ؟ إنه أول القرى
وأبذل معروفني له دون منكري
وقال آخر :

إنك يا بن جعفر خير فتى
وخيرهم لطارق إذا أتى
ورب نضوٍ طرق الحي سري
صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى
إن الحديث جانب من القرى .
وقال الآخر :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته
ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسي أنه سوف يهجع
وقال الآخر :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
ويُخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب^(١)

(١) البيان والتبيين : ٢٠/١ - ٢١ .

والبشاشة نور يطفح من القلب ، واسطته
الشفاه ، ورسوله طلاقة الوجه ؛ والوجه والشفاه
جسران يوصلان العواطف من قلب إلى قلب ،
ومن روح إلى روح ، ونعم الرسولان هما .

نور الشخوذة^(١)

الشباب في الغالب لا يرون إلا ما لهم فيه لذة، يعمدون إلى الغرف من وعائها، والرشف من كأسها؛ حُسن الطعام يجذبهم، وجمال اللبس يغريهم، ويفرحون بقلّة العمل، ويضيّقون بكثيره، يميلون إلى الدعة، ويبحثون عن الراحة، رغم أن أجسامهم في سن الشباب مهياة لخلاف ذلك، فالقوة في الأبدان، توجب الحركة والإنتاج، والمفروض أن تنفر نفوسهم من الكسل والتراخي، لأن هذا يتنافى مع طبيعة القوة والنشاط، المخزون في جسم الشاب وطبعه، ولكن حب اللذة والتنعم يغلب حتى الطبيعة، والدعة والراحة فيها من الإغراء ما فيها، ولهذا قال أحدهم:

إن التهاون والكسل أحلى مذاقاً من عسل
إن لم تصدقني فسل من كان قبلي في الكسل

(١) المجلة العربية: ذو القعدة، ١٤١٦هـ.

ويبقى الشاب سادراً لاهياً ، لا يفكر إلا في الحياة ، واللذة فيها ، وكأنه باق مخلد إلى الأبد ؛ فالآخرة في ذهنه لا تأتي إلا عرضاً ، ويكتفي بما تحتاجه منه إلى أداء الفروض ، وبشعور المجبر أحياناً ، وكأن الموت لا يأتي إلا إذا أذن له ، وأكمل أطول عمر يؤمله الإنسان .

ينظر إلى الآخرة وكأنها بعيدة ، وأن بيده أن يتدارك أمره متى شبع من الدنيا ، وملذات الدنيا ، هذا إذا لم يقده السير خلف شهواته ، وتحدي نصح الناصحين ، وجهد المربين ، إلى العناد ، فيدخل في جدله وتصرفه حدود الإلحاد ، والتهاون بأسس الدين ، والتشكيك فيها ، لأن الشيطان أقدر ما يكون عندما يركز جهده على الشباب .

ثم ينضج ، إذا أراد الله أن يتداركه برحمته ، فيبدأ يقلل مما كان يكثر منه ، ويبعد عما كان

يقترّب منه ، ويصدّ عما كان يقدم عليه ، ويأنف
مما كان يفخر به ، ويخجل من ذكر ما كان يأتيه ،
ويدهش في داخل نفسه مما كان عليه ، ويبدأ
يلتفت إلى نفسه ، ويمهد لها السير في طريق
مغاير ؛ لقد كان اتجاهه لليسار فأصبح لليمين ،
وكان أكثره للدنيا وقليله بل نزره للآخرة ، ثم
بدأت تزيد حصيلة الكفة الناقصة ، وتنقص
الكفة الزائدة .

الموت أصبح لذكره صدى في نفسه ، وموقع
في أذنه ، أصبح يعني شيئاً بعد أن كان لا يعني
شيئاً ، أصبحت تذكره به الأمراض ، والضعف
في الجسم في هذا الجانب أو ذاك ، وأصبح لا يأتي
بما كان يأتي به من قبل ، فالحركة قلت ، والخطوة
ثقلت وقصرت ، وأصبح الطلوع إلى أعلى يهّمه ،
وصعود الدرج يقلقه ، والنزول يضره أكثر
فأكثر .

ويكتشف في هذه المرحلة نعيم النضج ،
ورحمة الإدراك ، ويبدأ يعرف الحياة ، ويدرك
هدفها ، فتصغر الدنيا في عينه ، ويصغر هو
عند نفسه عندما يتيقن من هوانه بالنسبة للكون
حوله ، الذي نظمه خالقه فأحسن تنظيمه ، لقد
مر بالحياة جده ، وَوَالده ، وها هو يقترب من
آخر الرحلة ، ولم يبق له إلا التزود بالزاد المقبول
للحياة الأخرى .

كثيرون ممن تداركهم الله مروا بمثل هذه
الأطوار ، وانتشلهم خالقهم من انحدار كانوا
بدؤوه ، فأصبحوا قدوة في الاستقامة ، وحسن
التصرف ، والنظر إلى ما عند الله . هذا عمر بن
عبد العزيز المدلل في شبابه ، لقد كان لا ينقصه
شيء : مجد النسب ، ووفرة النشب ، وبهاء
الشباب ، وجمال الخَلقة ، في زمن كانت هذه
السلع فيه رائجة ، ينتقل بتوفيق الله - سبحانه

وتعالى - من هذه الحالة إلى الحالة التي يمثلها
النّصّ الآتي :

«كان عمر بن عبدالعزيز تُشترى له الحلة
بألف دينار، فيقول :

ما أجودها لولا خشونة فيها ! فلما استخلف
كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم ، فيقول :
ما أجوده لولا لينه» .^(١)

(١) ربيع الأبرار : ٩ / ٤ .

نامي قبله^(١)

تختلف الشعوب العربية في نظرة الزوج إلى أم زوجته (حماته)، ففي بعض الشعوب يعتبر الزوج أم الزوجة عدواً له، لأنه يظن أنها تخرب العلاقة بينه وبين زوجته، لما تمدها به من تعليمات تعتقد أنها في صالح الزوجة دون تفكير في مصلحة الزوج، وبعض هذه التعليقات قد تكون مضرّة بالزوج، ومبعدة للزوجين أحدهما من الآخر، وتأثير الأم على البنت في بعض الأحيان قوي جداً، ويغلب تأثير الرجل، ومن هنا تقع المشاكل بين الزوجين، وقد تتفاقم حتى لا يوقفها إلا الطلاق.

وفي بعض المجتمعات من الجزيرة تكون الأم دائماً في صف الزوج ضد ابنتها، فتؤنبها إذا قصرت، وتسكتها إذا شكت، وتلومها إذا

(١) المجلة العربية: ذو الحجة، ١٤١٦هـ.

طمعت ، وتجعل من الرجل وطلباته ورغباته
ما يوجب الطاعة العمياء ، وتسفه الزوجة إذا
أرادت أن تسلك المنطق في المطالبة بحقوقها ،
وتقنعها في أن عليها أن تأخذ ما تعطى ، وألا
تطلب ما لا تعطى ، وترعبها من أي سخط
تظن معه أن بإمكانها العودة إلى بيت والدها ،
وتؤكد عليها أن بيت زوجها هو بيتها إلى الممات ،
فعليها أن تجعل منه وكرًا هادئًا ، وأن تتحمل
أي نوع تظن أنه من حقوقها وسلب منها ، مادام
السالب هو الزوج ، وأن تقبل أي أذى يأتي عليها
مادام قد أتى من الزوج ، ولهذا فأم الزوجة في
بعض مناطق نجد تعتبر الصديق الأول لزوج
الابنة ، وقد عمرت بيوت هناك بسبب هذا
التصرف ، ودام لها الهناء ، وتعلمت الابنة من
هذه التربية ، وعلمتها ابنتها فيما بعد عندما
أصبح لها ابنة ، ولابنتها زوج .

أما الأم في بعض البلدان ، فإنها تكون شوكة
في حلق الرجل ، وأحياناً تحرك ابنتها بنصائحها ،
بما لا تعتقد الابنة ، أنه في صالحها ، ولكن إلحاح
أمها المستمر يصبح طرقاتاً على الباب لا يفتأ أن
يفتحه . فالأم قد تحث ابنتها على استمرار إرهاب
زوجها بالطلبات التي تنزع أقيامها ما في جيب
زوجها من نقود ، لئلا يتوافر عنده المال فيتزوج
عليها أخرى ، وفي هذا ما يقنع الزوجة بتنفيذ
نصيحة أمها ، وأي امرأة لا تقبل مثل هذه
النصيحة .

وصداقة أم الزوجة بدأت قديماً ، وتواكبت
مع أم الزوجة الأخرى التي على نقيض تلك ،
ولإدخال السرور على الأزواج سوف آتي بمثل
مفرح لهم من أم زوجة ، أعطت ابنتها نصيحة
غالية عند أول زواجها وسنرى قيمة هذه النصيحة
في ضوء مراميها ، وما انطوت عليه من مبادئ

هي أعمدة لبناء الزواج المهم :

قالت أم لابنتها :

بنيتي إن نام نامي قبله
وأكرمي تابعه وأهله
ولا تكوني في الخصام مثله
فتخصمي فتكوني بعله^(١)

هذه نصائح قيمة ، تكسب قلب الزوج ،
فالزوجة إذا أراد زوجها أن ينام ، وأخذت تحمله
بهموم يومها أطارت من عينه النوم ، فالأم نتيجة
تجاربها أعطت ابنتها حصيلة سنين من المعاناة .
وباب قلب الزوج لا يفتح بمثل إكرام تابعيه
من أصدقاء وأخوان وخدم ، والأهل هم المفتاح
الأهم ، وإكرامهم يكسبها الاعتراف من الزوج
بجميلها ، لأن هذا أولاً يظهرها بمظهر القبول
من قبل الأهل ، فيعاملونها بالمثل ، وفي هذا

(١) الحيوان : ١٣٩/٥ ، راجع : «إطلالة على التراث : ١٢/١٩٢» .

عمار للعلاقة بين الفريقين ، وثانياً ترتفع منزلة الزوج عند ذويه ، لأن هذا يدل على شخصيته ، وقوته في تسيير زوجته ، وحياته .

والنصيحة الغالية الكبرى هي أنها لا تقف ندّاً له في الخصام ، فإن هذا يجعلها في منزلة الرجل ، ثم يبدو الأمر وكأنها هي الزوج ، وهذا قلب للأوضاع ، وهدم للبيوت ، وتشتت للأولاد . وبهذا تختفي السعادة ، ويحل الشقاء .

مراحل من عمر اللغة^(١)

اللغة العربية الفصيحة لم يهددها عدو في عصر الجاهلية، لأنها كانت محصورة في حصنها الصحراء، وفي واحاتها المنعزلة؛ فلم يجسر متطفل من لغة أخرى، فيندس فيها، ولم يغامر صاحب كيد أن يترك محيطه المترف، فيتعمق في بيئتها الخشنة، وإن دبّت كلمة هنا، أو كلمة هناك، خلصة وتسلاً، طليت بسرعة فائقة طلاءً عربياً، وألبست ثوب الفصحى، وعممت بعمامتها، حتى لا يكاد أصلها يعرف، أو منبتها يحدد، إلا من عالم لغة باحث.

ولم يَلَنْ جانبها، ويطمع فيها عدوها، فيخترق أسوارها الصامدة، وحجبها السميكة، إلا بعد أن خطت خطوات خارج بيئتها، وتجرات، فاقترحت بيئة العراق، والشام، ومصر،

(١) المجلة العربية: محرم، ١٤١٧هـ.

فقارعت الفارسية والرومية والقبطية ، فتركت
سيوف هذه اللغات في أديمها ندوباً تؤلم ، ولكنها
لم تمتها ، وكلفا في وجهها لم يقض على سماتها ،
وانبرى حاملوها من العلماء والغيورين يدافعون
عن أصالتها ، ويحمونها من الزحف الجارف ،
فنجحوا في ذلك ، وأصبح كفاحهم هذا مستمراً
قروناً إلى اليوم ، وأصبحت صحة اللغة من صحة
الغيرة عليها من المدافعين عنها ، وعافيتها ،
وصفاء أديمها تبعاً لما يبذل من جهود من حراسها ،
إن شملوا ساعدهم ، وأحدوا سيوفهم ،
واستماتوا ، فهي بخير ، وإن ضعفوا ، واستكانوا ،
وقالوا : إن السيل جارف ، ولا طاقة لنا بالوقوف
أمامه ، أو قالوا : الأعداء من كل جهة ، فلو
قاومنا عدواً في هذه الجهة ، فكيف لنا بمصادمة
الأعداء من الجهات الأخرى ، وتركوا الجيوش
الغازية لحرماها ، تتوغل ، وتختار لها الأماكن

العزيزة، أنت اللغة العربية الفصحى، وتأوّهت
بآهات حرّى .

وفي زمننا هذا دموع اللغة تنساب على خدها
الأسيل من أبنائها الذين خانوها، ومن حراسها
الذين استداروا عليها، وطعنوها في الصدر؛
ذهبوا إلى الغرب، وهم لا يعرفون أمهم الرؤوم
حق المعرفة، ولم يدركوا الجواهر المخبأة
في صدرها، ولم يمعنوا في اللؤلؤ المكنون في
جيدها، فجأؤوها بلؤلؤ مستورد، هو تقليد
براق مغشوش، وأحضرُوا معهم جواهر خداعة
هي حراب سوء تطعن في جنبها؛ وهاجموها
بأسلحة مزيفة: قالوا عنها إنها جامدة، ولم
يقل الصينيون الذي تعلموا في الغرب أن
لغتهم جامدة، ولم يقل اليابانيون أن لغتهم
جامدة؛ وقال العرب المتعلمون في الغرب أن
العربية قاصرة، لا تفي بالمطلبات الحديثة،

وهي سبب ركود العرب ، ولم يقل اليابانيون
والكوريون والصينيون ، ولغاتهم أصعب ،
وأضيق من اللغة العربية أن لغاتهم قاصرة ، بل
جعل الله تقدمهم في العلوم الحديثة حجة للغيورين
من العرب ، أن اللغة العربية وافية ، وأن القصور
هو في أنحاح أبنائها ، المتغربين ، الذين جذبهم
بريق الغرب ، والكسل العقلي في التفكير في
أسباب تأخر أمتهم ، واللغة العربية بريئة من
التهمة التي يكيدونها بها .

وتغلغل المفردات من اللغات الأخرى في
اللغة العربية ، ومحاولة إقامة كلمات مكان
أخرى ، والزحف التدريجي ، يدفعه البريق
الحضاري ، من البلدان التي افتتحها المسلمون ،
وحلوا بين ظهراني أبنائها ، وهم قلة بين كثرة ،
أخذ مراحل ، ومر بأطوار ، تهيم طبيعة المجتمعات
جواً يساعد على هجوم اللغات على لغتنا العربية ،

وتتنبه الغيرة، فتقيم السدود والحواجز، وتضع
المصفيات، والمنقيات، فيضعف الزحف على
اللغة العربية إلى حين، حتى أصبح لجهود
الغازين للغة ثمرة، هي اللغة العامية، وهي
خليط من هذه اللغة وتلك اللغات؛ وأصبح
لجهود المقاومين، المتصددين لهذا الزحف ثمرة،
هي بقاء الفصحى للعلم والخطب والتأليف.

والجاحظ يأتي بلمحة تبين بعض مراحل
هذا الزحف على اللغة العربية الفصحى :

«ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من
الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم؟
ولذلك يسمون البطيخ الخربز، ويسمون
السميط: الرزدق، ويسمون المصوص: المزوز،
ويسمون الشطرنج: الأشرنج، في غير ذلك
من الأسماء.

وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة: بال،

وبال بالفارسية .

ولو علق ذلك لغة أهل البصرة، إذ نزلوا بأدنى
بلاد فارس، وأقصى بلاد العرب، كان ذلك
أشبه، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد
النبط، وأقصى بلاد العرب .

ويسمى أهل الكوفة الحوك : الباذروج،
والباذروج بالفارسية، والحوك كلمة عربية .

وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها
مربعة، ويسمونها أهل الكوفة : الجهارسوك،
والجهارسوك بالفارسية، ويسمون السوق
والسويقة : وازار، والوازار بالفارسية، ويسمون
القضاء خياراً، والخيار بالفارسية، ويسمون
المجدوم : ويذي، بالفارسية» .^(١)

(١) البيان والتبيين : ١ / ١٩ - ٢٠ .

ضاعت في مهب الحضارة^(١)

عادة كانت شائعة في بلاد المسلمين، يحتفلون بها احتفالاً يليق بها، وقد تطور هذا الاحتفال مع الزمن، فأصبح له مظهر يختص به؛ وتفاوتت الأمم الإسلامية في طريقة الاحتفال بهذه العادة، كل أمة اتخذت نهجاً، وسلكت طريقاً، وارتضت مظهراً، يليق بهذه العادة، ويتناسب معها.

وبعض الأمم تجمع عدداً كبيراً من المحتفى بهم، وبعضهم لا يجمع إلا عدداً قليلاً؛ يجمع الأقرباء من سن واحدة، أو من شارع واحد، وأحياناً يزيد الاحتفال بتكريم المحتفى بهم، ويكون على شرف ابنه، أو حفيده، وأحياناً يطلب الأجر بشارك الأيتام أو الفقراء.

والأمم التي تشارك العرب والمسلمين هذه

(١) المجلة العربية: صفر، ١٤١٧هـ.

العادة قليلون ، وإن كان العالم المتحضر اليوم أقبل عليها ، لما أدرك فوائدها الصحيحة ، وإن كان لا يحتفي بمن تقع عليه هذه العادة ، لأنها أصبحت تجرى في المستشفى ، لا يشهدا إلا الطبيب والمرضة وتتم بهدوء وسكون .

وبعض الأمم تجري هذه العملية بطرق بدائية ، ومؤلمة ، ولا تقوم بها إلا بعد أن يكون الصبي قد أصبح شاباً ، يتحمل ألم سَلْخ يلحق بالعملية ، ويقف رافعاً رأسه ، لا تطرف عينه ، ولا يتجهم وجهه ؛ وبيده بندقية يطلقها عند انتهاء الأمر ، أمام شباب القرية وشاباتهما ، اللاتي يزهدن في الزواج منه إذا ما بدا منه أي تألم ، أو أظهر تألفاً ؛ لأن هذا يعني أنه غير شجاع ، ولم يتحمل ما تحمله شباب سبقوه .

وكانت في الماضي تجرى في سن تتراوح بين خمس سنوات وسبع سنوات في بعض البلدان ،

أما اليوم فإنها تجرى للطفل في اليوم الثالث من ولادته ، وتجرى بطريقة فنية ، تخضع لآخر تطور في هذا الفن .

لعلك الآن عرفت أني أعنى بما قلت عملية ختان الأبناء ، ومن عاصر ما كان لها من زهو ومفاخرة ، وما كان يقام لها من احتفاء واحتفال ، يأسف لما وصلت إليه اليوم لأنها فقدت بهرجها ولمعانها ، ويحمد الله في الوقت نفسه أنها لم تعد تعمل بالطريقة الأولى ، لما فيها من ألم ومعاناة لصبي يعقل ؛ أما اليوم فالطفل الرضيع لا يعاني هذه المعاناة لأنه لم يبدأ يعقل ، ولأن أساليب عملها تقدمت ، وأدوات إجراءاتها تطورت .

والذي ذكر بهذا الأمر نص قرأته في التراث يقول :

«ختن ابن عباس بنيه ، فأرسلني فدعوت

اللعابين ، فلعبوا ، فأعطاهم أربعة دراهم» .^(١)

وصاحب كتاب «ربيع الأبرار» لم يستشهد
بهذه الحادثة لما استشهدنا بها له ، وإنما أراد أن
يري أن ابن عباس يحيز اللعب في الأفراح ،
ويثيب عليه ؛ لأنه ساق بعد ذلك أمثلة عن
لعب الصحابة ، أو حثهم أولادهم عليه .

(١) ربيع الأبرار : ٨١ / ٤ .

سماحة الخلق^(١)

سماحة الخلق هبة من الله يضيفها على من يشاء ممن وفقه الله لرضاه، وهي إما جبلة في المرء، يرثها عن أب أو أم، أو صفة يكتسبها، ينسجها فوق استعداد فيه، قابل للتحسن والترقي، والعلم ببركته المعهودة يضيفي على المرء المستعد من سماحة الخلق وحسنه الشيء الكثير.

والعلماء أقرب الناس إلى السماحة، وتواضع النفس، لأنهم أقرب إلى معرفة النفس البشرية، وما قد تتعرض له من ضعف يؤدي بصاحبها إلى الخروج عن المألوف من التصرف الحسن؛ ولا يتحمل أمثال أولئك إلا العارفون بما وراء المظهر، مما يجعل هؤلاء الناس محل الرحمة، والحاجة إلى العلاج، ولا أنجع في ذلك من

(١) المجلة العربية: ربيع الأول، ١٤١٧هـ.

التسامح ، وطول البال ، والمجاراة إلى حد ما ،
حتى تتفتق حيلة لمقابلة ما يبدر منهم ، والعلماء
هم أقرب إلى صفات السماح ، وحسن الخلق ،
فهم أطباء الأرواح ، ومعالجوا النفوس .

ويخرج المرء عن طبيعته إلى ما ينتقد منه بسبب
مرض مضمّن ، وعلة ممضّة ، وقد يكون ذلك
صدمة هزت كيانه ، فأفقدته توازنه النفسي ،
أو خمر أخل بتوازنه العقلي ، فأصبح عبأ على
من حوله ، أو من يأتي في طريقه ، وهذا العامل
الأخير هو الغالب في مثل هذه الحالات المزعجة ،
للعب الخمرة بالعقل ، وسيطرتها على الإنسان ،
فيصبح طوع أوامرها المتهالكة والمتناقضة ،
تركس الإنسان إلى أن يكون طفلاً أرعن في
تصرفاته ، عنيفاً في معاملة من حوله ، أو
محرراً لهم .

ويمكن للإنسان أن يتصور اثنين ، أحدهما

بكامل قواه العقلية، يتصرف تصرفاً حسناً، يأخذ ويعطي بعقل، يقبل الناس ما يأتي منه، ويعطي الناس ما هو مقبول منهم؛ والآخر مهتز العقل، يتصرف تصرف المجنون، قوله متناقض، وفعله غير متناسق، لا يتابع ما يقال له، ولا يقول ما هو منتظم، أو ما هو مقصود ومقبول. أحدهما عبء ثقیل على الآخر، والآخر لا يدري أنه كذلك، لأن ميزان التمييز عنده مفقود.

والمجتمعات مليئة بالمتصرفين بسماحة الخلق، ومليئة بغيرهم ممن لا يتصف بهذه الصفة، والمقارنة هي التي تري لمعة المعدن الثمين في هؤلاء، وانعدامها في أولئك.

وقد يكون فاقد العقل مؤقتاً من الذين على سماحة خلق قبل أن يفقد توازن عقله بإدخال العامل المؤقت الذي أخرجه عن طوره، فتجاذبه

طبيعته الأصلية ، وتحاول أن تغلبه ، في حين أن حالته الطارئة تحاول أن تسيطر عليه ؛ هذا العراك والتجاذب بين الطبيعتين ، وحسن خلق العلماء في مقابلة ما يأتي من مواقف هي محك لما هم عليه من سمو في الخلق ، وحسن في التصرف تتمثل في القصة الآتية ، وهي قصة طريفة ، من أي زاوية نظرت إليها :

«خرج سوار القاضي إلى المسجد ماشياً ، فلقيه سكران ، فقال :

القاضي أعزه الله يمشي ! امرأتي طالق إن حملته إلا على عاتقي !

فكره سوار أن تطلق امرأته ؛ فقال :

أدن ، يا خبيث .

فحمله على عاتقه ، ثم رفع رأسه فقال :

أأهملج أم أعنق ؟

فقال : مشياً بين مشيين ، واحذر الآبار ،

والزلق ، والصق بأصول الحيطان .
فقال : كأنك أردت المرائي من الفروسية .
فلما أوصله إلى المسجد أمر بحبسه . فقال :
أهذا جزائي منك ؟
فتبسم وتركه » .^(١)



(١) ربيع الأبرار : ٥٥ / ٤ .

من أجل القصة^(١)

في وقتنا هذا ازدهرت القصة المتخيلة، وصار لها كتاب، وتخصص منهم كتاب عرفوا بأساليبهم، وهي في كل أمة ناهضة اليوم، ويتلقف الناس منها ما تخرجه المطابع، وما تجود به قرائح الكتاب. ويتسابق كتاب القصة في كسب رضى الناس، فهم يتحسسون أراضي ذوقهم، ويتلمسون مرامي ما يعجبهم، فينصرفون إلى ما يعجب الناس، ويشد انتباههم، ويتماشي مع ذوقهم.

وقليل من الكتاب يكتب ليرضي ذوقه، ويبث مذهبه، ويصر على ما يعجبه هو، أو يرى أن القارئ يجب أن يقبل منه ما يختاره له، والأسلوب الذي يتبعه، فلا يلتفت إلى نقد ناقد، ولا صراخ معترض؛ يرى أن له رسالة يريد أن يؤديها،

(١) المجلة العربية: ربيع الآخر، ١٤١٧هـ.

ولا يقبل أن يقف في طريقه أحد؛ فهو الأقوى في نظره، وهو الذي يخط الخط، وعلى الناس أن يسيروا عليه.

وكتاب اليوم أمناء، فهم يعلنون أن قصصهم مخترعه، وأن ما يكتبون هو من نسج الخيال؛ ولكنه لا يبعد عن الحقيقة، فهو صورة لما يعيشه الناس، وليس فيه اختلاف إلا أن الكاتب أمامه هدف يريد أن يخدمه، وصور يريد أن يشيعها، فهو قد يجمع لذلك، حوادث مختلفة في قصة واحدة، قد لا يكون اجتماع مثلها في الحقيقة لأحد يعرفه، ولكنه واءم بين تلك الحوادث، لأنها تخدم الغرض الذي أنشأها من أجله.

ولكل قصة هدف، وغاية يريد الكاتب أن تصل إليها، وأغلب الكتاب يهدفون إلى إصلاح خطأ شائع في المجتمع، يرون أنه داء، تجب معالجته، فهو طبيبه، وما في قصته هو دواؤه

الناجع ، وقد تتعدد القصص عند كاتب من الكتاب ، لتخدم غرضاً واحداً ، يكون في الغالب قد سيطر على شعور كاتب القصص ، وأقلق فكره ، إما لأنه يحس به في مجتمعه ، أو لأن مجتمعه ، أو قسم منه ، في ضنك منه ، فقد يكون الكاتب غنياً ، ولم يعان الفقر ، ولكن في مجتمعه من يعانیه ، وقد تكون ظاهرة الفقر مقلقة لأنها في ازدياد مثلاً .

وقد اختار الكتاب والأدباء في التراث العربي معالجة أدواء مجتمعهم ، ولكن الفرق بينهم وبين كتاب اليوم أن كتاب الأمس كانوا يوهمون أن القصة حقيقة ، ويرون أن إشاعتها في الناس ، وقبول الناس لها ، وإقدام الوراقين ، وهم بمثابة المطابع والناشرين اليوم ، عليها ، يوجب أن يعلقوها على مشجب يتناسب معها ، فيختارون لها شخصاً مشهوراً ، فيدعون أنه صاحبها ،

فإما أن يلصق به أنه قالها، أو رواها، أو حدثت له .

وبعض الكتاب تخطر له فكرة، وتكون عن رأي في الأدب، أو اتجاه في السياسة، وتعجبه الفكرة، ولكنه يعرف أن أهل زمانه لا يقبلونها منه، وإن كانت قوية، وشائقة، ولهذا يعمد إلى إلصاقها بآخرين، حقيقين أو متخيلين، وقد وقع هذا لأحد الكتاب، إذ أعجبه فكرة فقهية، فصاغها في قصة لا أشك في أنها مختلقة، ولكنها طريفة، والأساس الفقهي الذي اختاره ببراعة، يغري بقبولها وتناولها، والقصة المكذوبة هذا نصّها :

«اجتمع محدث ونصراني في سفينة، فصب النصراني من زكوة كانت معه في مشربة وشرب، وصب فيها وعرضها على المحدث، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني :

جعلت فداك ، إنما هي خمر .
فقال : من أين علمت أنها خمر ؟
قال : اشتراها غلامي من يهودي ، وحلف
أنها خمر .

فشربها بالعجلة ، وقال للنصراني :
أنت أحمق ، نحن أصحاب الحديث نضعف
سفيان بن عيينة ، ويزيد بن هارون ، أفنصدق
نصرانياً عن غلامه عن يهودي ؟ والله ما شربته
إلا لضعف الإسناد» .^(١)

وهل لا يعرف الخمر إلا بقول البائع ويمينه ؟
من هنا على الأقل تبين أنها قصة لم تقع ، وإنما
اخترعها كاتبها .

(١) ربيع الأبرار : ٥٨ / ٤ .

الملك عبدالعزيز^(١) فريد بين الرجال

كُتِبَ عن الملك عبدالعزيز كثير من المعلومات ،
مقالات وكتب ، وبقي أكثر مما كتب ، مما هو
في صدور الناس ، أو في الكتب ، مما يحتاج إلى
دراسة وتحليل ؛ لأن الملك عبدالعزيز فريد بين
الرجال ؛ وعبقريته مضيئة في جميع الجوانب .

وضع الأسس للمملكة في كل المجالات ،
في المجال الحربي ، وفي المجال الاقتصادي ، وفي
المجال الاجتماعي ، وفي المجال الديني ، وفي
المجال العلمي ، وفي غير هذا من المجالات ؛
ووضعها على صورة البناء الذي في ذهنه ، وما
يريد أن تكون عليه المملكة .

والإتقان الذي جاء في ثمرة عمله هذا يدل
على عبقرية منقطعة النظير ، لأنه فرد واحد ،

(١) المجلة العربية : جمادى الأولى ، ١٤١٧هـ ، ونشرت في كتاب : «يوم
وملك» ، للمؤلف ، الطبعة الثالثة : ١ / ١٩١ .

كان يخطط وكان يختار، اختياراً متقناً، الرجال الذين ينفذون؛ وكان يضع كل واحد منهم في المكان اللائق به، فيأتي بما يستطيعه، وعين الملك عبدالعزيز ترقبه بالفحص والتوجيه والتسديد، فكان كل واحد من رجاله تلميذ له، ويصبح مع الوقت صورة من الملك عبدالعزيز في الحرص، والأمانة، ومراقبة الله، فاعتلى البناء سريعاً، وشمخت أعمدته.

لم يكن بناء المملكة سهلاً، فقد كانت العوامل الداخلية والخارجية توقف أمامه من المعوقات ما لا يستطيع الوقوف أمامه إلا رجل ذو عزم قوي، وإرادة حديدية؛ فالأمارات المختلفة التي سعى إلى إرجاعها إلى الحضيرة، والمقاومة العنيفة التي قابلته، كانت شحذاً لهمته، وصقلاً لرجالها؛ وجاءته الحرب العالمية الأولى بعوز حربي واقتصادي، ركز له صدره الواسع،

وكتفه القوي ، حتى مرت الأزمة بسلام ، وكانت له لا عليه .

لم يكن شيء من المعوقات التي ترفع رأسها في جانب ، ترده عن إتمام برنامجه الثابت في مجال آخر ؛ فدرسه اليوم في أوقات مختلفة بقي محافظاً عليه ، يتلقاه في وقته ، إن كان في خيمة أو على ظهر البعير ، ليلاً والناقة تدرعهم ، أو نهاراً والخيول تصهل وترهم ، في المجلس في المدينة ، أو في المسجد في القرية ، أو في قهوة الشيخ فلان ، أو في خيمة الشيخ فلان ، حتى أصبح واسع الثقافة ديناً وتاريخاً وأدباً ، وهياً الله له حافظاً مدهشاً وهو العجيري ، حفظ أمهات الكتب غيباً في بعض فنون العلم ، فما على العجيري ، وهم سارون في الليل ، إلا أن يهمز ناقته ، ويباري الملك عبدالعزيز ويقص عليه وقعة القادسية ، أو معركة حنين ، أو يسمعه معلقة لبيد ، أو

قصيدة فتح عمورية؛ فيعي الملك التاريخ،
ويحفظ الشعر، ويتفهم الحديث، ويتفقه في
الأحكام، ويعرف التفسير.

بعد سنوات، وقد انتهت الحروب، ولانت
يد الملك عبدالعزيز بعد أن أغمدت السيف،
وامتشقت القلم، صافحه أحد أفراد رعيته،
وكان فيه جرأة، ودالة عليه، قال له:

أرى أن يدك - يا طويل العمر - لانت بعد
الخشونة.

فما كاد الرجل يتم قوله هذا حتى رد عليه
الملك ببديهة مواتية، وسرعة خاطفة، مستمداً
من ذاكرته ما خزنت، ومختاراً بعبقريته ما هو
مناسب منها للرد، بقوله:

إِنَّ الْأَفَاعِيَّ وَإِنْ لَأَنْتَ مَلَأْمِسُهَا
عِنْدَ التَّقَلُّبِ فِي أَنْيَابِهَا الْعَطْبُ
هذه صورة من صور الثقافة؛ والحكمة على

لسانه دائماً، وتبين للمتفهم سياسة الملك التي
كان يدير بها ملكه؛ فمن درس أعماله وجد
الحزم صفته، وإنجاز الأعمال ديدنه، فلا يتردد
في اتخاذ الإجراء حيال ما يتبين له من أمر، ولا
يؤخر عمل اليوم إلى غد، يجلس لعمله عدة
مرات في النهار، وفي الليل؛ في المدينة أو في البر،
صيفاً أو شتاءً، «الشنطة» معه مثل ظله؛ والقول
الآتي يحدد الصورة التي في ذهنه عن إنجاز العمل؛
كان يردد كل يوم:

الحزم أبا العزم أبا الظفرات .

الترك أبا الفك أبا الحشرات .

وهذا نبراس وضعه أمامه، يحدد له علامات
طريقه .

وله قول آخر، يدل على اهتمام بمرامي
الفكر ورياضاته:

الدنيا دواهي والدواهي .

ما نصبر بلاها والبلاهي .

رحمه الله فقد كان فلتة من الفلتات ، وعبقريه
من العبقریات ، ظهر فلمع وسطع ، وبني فأحسن
البناء .

مصائد الأقوال^(١)

بعض الأقوال مصائد، تنتصب ليقع في فخها بعض الناس، وبعض هذه الأفخاخ ناعمة الملمس، لا تؤذي من يقع فيها، بل لعلها تأتيه بلذة لم يقصدها، أو لم يتنبه أن ما بدأه من طريق سيوصل إليها.

وهذه المصائد عالية الثمن، نادرة الوجود، لا تأتي من عامة الناس، لا تعطي قيادها إلا لمتميزين، قادرين على نصبها بإتقان وجودة؛ وأفضل ما تكون عندما يكون الحابل والمصاد في درجة واحدة من الذكاء والفطنة؛ فحينئذ يُضمن أن يطبق الفخ بإتقان، وأن تقع الضحية في الفخ بحنان ورفق، وإن لم يتعادلا في الذكاء، أو لم يتساويا في الفطنة، فإن رحلة القنص هذه تحفّق؛ فقد يكون هناك صيد ولا مصيدة أو

(١) المجلة العربية: جمادى الآخرة، ١٤١٧هـ.

هناك مصيدة ولا صيد .

وسوف أعطي مثلين من التراث لما تلاعبت
بالألفاظ من أجله :

النص الأول يأتي هكذا :

«لبس ابن أبي دواد طيلسانا جديداً ، فزال
عن منكبه ، فقال :

ما أُحْسِن أن ألبس الجديد .

فقال له أبو العلاء المهدي :

إن كنت لا تُحْسِن أن تَلْبَسَه ، فإنك تُحْسِن
أن تَلْبَسَه ، فوهبه له» .^(١)

لقد وقع ابن أبي دواد في مصيدة لم يدر أنه قد
أعدها ، وأطبق عليها أطرافها أبو العلاء المهدي ،
فآب بصيد ثمين ، طيلسان القاضي ، وياله من
طيلسان جديد !!

والنص الآتي فيه ما في النص الأول ، من أن

(١) ربيع الأبرار : ١١ / ٤ .

من أحضر الشباك هو من وقع فيه ، دون أن يدري
أن ما أحضر شباكاً ، وأنه سيصبح أداة صيد ،
يصيده هو . والنص كما يلي :

« جاء سيار أبو الحكم إلى مالك بن دينار في
ثياب اشتهرها مالك ، فقال له :

ما هذه الشهرة ؟

فقال سيار : أَتَضَعُنِي عندك أو ترفعني ؟

فقال : تضعك !

قال : أراك تنهاني عن التواضع .

فقعده مالك بين يديه » . ^(١)

لقد كانت الأداة التي أطبق بسببها شباك
الصيد هي تلاعب سيار أبو الحكم بالألفاظ ،
فاستغل كلمة «الوضع» لغير ما قصد مالك ،
دون أن يخطأ ، بل جاء الأمر بأفضل ما يتمناه
ناصر شباك .

(١) ربيع الأبرار : ١٣/٤ .

ضياء الإيمان في قلب امرأة^(١)

عندما يريد أعداؤنا أن يهاجمونا يعميهم الله عن عيوبنا فيلجؤون إلى تهم يقلبون فيها الحق باطلاً، والصحيح خطأ، والنور ظلمة، ويقولون عنا ما يكذبه الواقع، وتدحضه الحقيقة، ولكنهم يضعون أملهم في اقتناص الجاهل، وختل الغافل، ويكتفون بهذا، ولكن هذا وخزات إبر تؤلم أرجلنا، وتقض مضاجعنا، لأن لها ألماً وإن لم يكن قاتلاً، وأذى وإن لم يكن مميتاً.

ومن أبرز الأمور التي يتهموننا بها أننا نستعبد المرأة ونهينها، ولا نكن لها احتراماً، ونسلبها حقوقها، ونعتبرها من سقط المتاع، وهو أمر يخالفه الواقع، ويرفضه التاريخ، لأن المرأة كانت ولا تزال تحتل مكانها المتميز، أعطاه إياه الرجل بحكم عادة متمكنة، وأعطاه إياه

(١) المجلة العربية: رجب، ١٤١٧هـ.

الإسلام مع ميزات أخرى ، نظمت حقوقها ،
ومكنت لها مكاناً مقدراً في المجتمع ، سواء
كانت أمّاً أو زوجة ، أو بنتاً أو أختاً ، أو عمّة
أو خالة ، أو زوجة أب ، أو قريبة لها حقوق
صلة الرحم ، وتقصي الأحوال ، وأداء الواجب
نحوها حسب سنّها وحالتها .

هذا كله تم والغرب في سباته العميق ، والمرأة
عنده في مجتمعاته لا تزيد كثيراً عن الدابة ، إن لم
تكن الدابة تعامل معاملة خيراً منها ، ومن أراد
الدليل فليقرأ رحلة ابن فضلان التي قام بها
لشمال أوروبا في العصر العباسي المتأخر .

هناك حالات خاصة في عصر الجاهلية ،
وأبرزها وأد البنات ، وهو أمر منقطع ومحدود ،
وسببه نبيل في نظر القوم ، ولا يقاس عليه ، وهو
اليوم في ثنايا التاريخ ، والقصص التي تروى فيه
كثير منها موضوع ، والأمر لم يصل إلى الصورة

التي ترسمها الأقلام المترصدة؛ وإذا كانوا
يتسقطون اليوم بعض مظاهر العادات التي تكمن
وراءها أعلى القيم، وأسمى الأسباب، بعضها
يخص العرض، وبعضها يرمي إلى الفضيلة،
أو تكون العفة هدفها، أو الغيرة على المرأة
غايتها، فهذا من جهلهم، أولاً، وعدم التفاتهم
إلى مرامي الخلق النبيل، ثم ما يقتضيه العقل
من حكم الصغيرة حتى تكبر، والناشئة حتى
تنضج؛ وماذا جاءتهم به الحرية المطلقة، التي
يقدمون لها مقدمات براقية، لمعانها الظاهري
يعشي العين حتى لا ترى العفن الذي يكمن
تحتها؟! وعندما تمكنت من مجتمعهم النتائج
السيئة يؤسوا واستسلموا.

إن الأدب العربي مليء بالضياء الباهر لمعاملة
الرجل للمرأة، وما لعبته في مجتمعها، وما ساهمت
به في المجالات المختلفة، ليس هناك حقل من

الحقول إلا وللمرأة فيه دور بارز، بدءاً بزوجات النبي ﷺ وزوجات الصحابة والتابعين، ونساء الخلفاء، وما سجل عنهن في التأثير الكامل، المرحب به في المجالات المختلفة؛ لم يقمعن بالمطارق على رؤوسهن، ولم تقطع ألسنتهن عن القول والمشورة والانتقاد.

في الدين والعبادة برزت نساء عرفن ربهن وكن قدوة في عبادتهن، وعلى السنتهن جرت الحكمة، ورويت عنهن المواعظ، وما يرقق القلوب، وعجز عن الوصول إلى درجتهم كثير من الرجال؛ هذه مؤمنة بنت بهلول العابدة، وهذه ميسون الكلبية وقبلهما أم الدرداء وعائشة بنت طلحة؛ وغيرهن كثير ممن لا يحصى.

وليسون موقف مع زوجها معاوية يدل على موقع المرأة، واحترام زوجها لرأيها، وهو

خليفة المسلمين ، ولم يكن ذلك إلا لما تعرفه من تقديره لها ، وإعطائه وزناً لإنتاج فكرها ، يدل على ذلك القصة الآتية :

«دخل معاوية على زوجته ميسون بنت بجدل الكلبية ، ومعه حديد الخَصِيّ ، فاستترت ، فقال لها معاوية :

إن هذا بمنزلة المرأة ، فعلام تسترين منه .
فقالت له : كأنك ترى أن المثلة أحلت له
مني ما حرم الله عليه» .^(١)

رأي أمام رأي ، وحجة أمام حجة ، وفتوى أمام فتوى ، تساوى رأي الرجل والمرأة في قوة الحجة ، بل إن رأي المرأة رجح ، لأنه اعتمد على أقصى درجات العفة في الدين ، وأقصى درجات المنطق في العقل ؛ نسي معاوية أنها مبصرة ، ولها عين ترى قد تكون أداة إثم عليها .

(١) الحقائق الغناء في أخبار النساء : ٣٤

شكوى الناس من الزمان^(١)

يبحث الناس عادة عن مشجب ، في تناول اليد ، يعلقون عليه نقائصهم التي لا يودون أن تلصق بهم ، وعيوبهم التي لا يريدون أن يعترفوا بها ، أو يقرّوا باتصافهم بها ؛ واللوم أحد الأمور التي يحاول الناس ألا توجه إليهم ، ويسعون جاهدين أن يبرئوا أنفسهم منها . والمشجب الذي يختارون لا يكون أحياناً إنساناً ، وإنما شيئاً غير مادي ، لهذا فالتهمة تبقى ملصقة به .

ومن المشاجب التي يصلون إليها بسهولة ، ويعلقون عليها ما شاؤا : الزمان ، ويظلمونه ما شاء لهم أن يظلموا ، وهم في مأمن من الاعتراض منه ؛ يتهمون به بعض التهم ، وهو بعيد عنها ، ويرمون عليه ثقلهم ، ليخففوا عن أنفسهم تحمله ؛ ولو نطق الزمن لرد التهمة على

(١) المجلة العربية : شعبان ، ١٤١٧ هـ .

أصحابها بلسان طرب فصيح ، ولأثبت لهم
بالمقارنة بين زمن وزمن أنهم هم المخطئون ،
وهم الملوومون ، والزمن لا لوم عليه ، ولا حرج
في مروره بهم ؛ والتطور فيهم هم ، والتغير بهم
هم ؛ بأفعالهم يختلف مظهرهم من زمن إلى
زمن ؛ يدخلون أموراً جديدة على حياتهم ،
فيحدث تفاعل يأتي بنتائج غير متوقعة .

وإذا كان الزمن لا يتكلم ، ولا يفصح عن
مكنون ما في نفسه ، ولا يدافع عما يرمى به ،
فهناك من قيضه الله له من الناس أنفسهم ،
يجادل بني نوعه ، ويرد عليهم رأيهم ، ويثبت
خطلهم فيما رموا به الزمن ، ومن بين المدافعين
من تعدى خط الدفاع ، ودخل حيز الهجوم ،
فحرم سب الزمن ، لأن الزمن له مدلول أشرف
مما يظنه ضحلو التفكير .

وسابّوا الزمن الحاضر ، مقارنة بالماضي ،

ينسون بعض ما كان يجب ألا ينسوه ، مما يماثل
فيه الحاضر الماضي ، ويكاد يكون مثله في وجوب
اللوم أو أشد ، ولكن صاحبه مع تقدم السن ،
نسي ما كان منه من خطأ هو الآن يلوم ابنه عليه ،
وقد ارتكب مثله في شبابه ، عندما كانت الأسباب
لذلك متوافرة ، وعقله حينئذ لم ينضج .

لهذا اعتاد الناس على الشكوى من الزمن
الحاضر ، وأصبح تكرار ذلك على الألسن ،
وكأنه أمر مسلم به ، وكأن بينهم وبين الزمن
عداء ، يودون أن يدينوه بأي حال من الأحوال ،
وقد تنبه أحد فلاسفة اليونان لهذا ، وانتقد من
يشكو من زمنه ، ويتوجد على زمن مضى ،
وأثبت أن هذا رأي فاسد ، ووهم باطل ، ولم
تعدم العصور الماضية من مجيء أفراد يزعمهم
ما يسمعون عن نقد الزمن الحاضر ، مقارنة
بالماضي ، فيعددون الحجج التي تؤكد أن

الزمن هو الزمن : شمس تطلع ، وشمس تغيب ،
وفجر يبرز ، وليل ينزل ، وهلم جرا .

والشافعي من الذين أدلوا بدلوهم في هذا
المجال ، وأبدى رأيه بأبيات جميلة المعنى ، وافية
القصـد ، تؤكد ما يعتقده ، بأسلوب سهل ممتنع ،
يقول الشافعي :

«نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا
ونهجوا ذا الزمان بغير ذنب
ولو نطق الزمان لنا هجانا»^(١)

(١) ديوان الشافعي : ١١٧ .

النفس الخيرة^(١)

النفس الخيرة لا تكتفي من الخير بما على السطح ، ولا يقنعها ما هو مبتذل عند الناس ، ولا ما فائدته قليلة ، أو نفعه وشل ؛ بل يعجبها أن تذهب في التفكير بعيداً ، وتغوص على الأمور في الأعماق ، وتذهب في العمل إلى نهاية ما تستطيع تحقيقه ، وإلى غاية ما يمكن أن تصل إليه ، فيما يفيد وينفع .

والنفس الخيرة بهذا تغوص على اللؤلؤ المكنون ، فيما تأتيه ، وتلتقط الجوهر النفيس فيما تعالجه ؛ في جانب تحرص على التبصر والتدبر ، وفي جانب تبذل الجهد ، ولا توفر الطاقة . وهذا يتوافر لها من معدنها الذي اتصف بالفطرة السليمة ، ثم صُقل بالتربية ثم جلت صفحته التجربة المتبصرة .

(١) المجلة العربية : رمضان ، ١٤١٧ هـ .

والنفس الخيرة عقل صاحبها دائم التفكير،
ينشغل بتقليب الأمور على وجوهها، يتبصر
في الظواهر، ليعرف ما في البواطن، ويستقرئ
الفواتح، ليدرك النتائج؛ وصاحبها كذلك
يستنبط ما لا يستنبطه سواه، له في كل أمر نظر،
وفي كل حادث فكر؛ يسمع لما يفكر فيه صوتاً
لا يسمعه كل الناس، ويرى من الوهج في
الأفكار المنيعة ما لا يراه غيره إلا من هو مثله.

وجانب الخير يغلب على اتجاه النفس الخيرة،
فالخطأ الذي يأتي من الناس تجد هذه النفس له
مبرراً، والمنتقد من الأعمال تتلمس له عذراً،
وهي بهذا لا تسلم بسهولة لعنصر الشر، ولا
تأس من زرع الخير في محله؛ تبذل الجهد للتغلب
على ما يترأخى غيرها تجاهه؛ هي تنقص من الجانب
المظلم، وتزيد الجانب المضيء نوراً على نور.

هذا المعدن النفيس من النفوس الخيرة هو

قوام المجتمع السعيد ، وهو عماد بقاءه وازدهاره ؛
والعاقِل في المجتمع لا يفوته ملاحظة أصحاب
الأنفس الخيرة ، ولا يعوزه معرفتهم ، ولا ينقصه
تقدير هذه الصفة فيهم .

وأول من يدرك هذا علماء المجتمع وكتابه
ومثقفوه ، ولهذا يحرصون على تسجيل مظاهر
النفس الخيرة ، وتدوين ما يأتي منها مضيئاً ،
ويتناقلونه جيلاً بعد جيل ، ومن أمة إلى أمة ،
وقد امتلأت صفحات الكتب بأمثال ذلك ،
ووجدته القراء عِلْقاً نفيساً من أَعْلَاق الجواهر ،
التي يعرف الناس قدرها ، فيقتدون بما فيها .

وعِلية القوم في أي مجتمع هم من يتوقع
منهم أن يكونوا أصحاب نفس خيرة ، لأن
ارتفاعهم في مجتمع سَوِيٍّ ، يوحى بتميز هذه
الأنفس ، وماداموا عند تقديم مجتمعهم لهم
ميزوا ، فأخر بمرور الزمن أن يزيدهم هذا

خير أعلى خير، وأحر بالتجربة أن تجلو صفحة
أعمالهم، وتظهر ما فيها من بريق الفطرة،
وحسن التربية.

والرعيّل الأول من أجيال الإسلام الأولى
خير من يتوقع منه أن يأتي بما يكون قدوة
حسنة لمن جاء بعدهم؛ وزمن الخلفاء الراشدين،
وزمن الخلفاء الأمويين، وأوائل زمن الخلفاء
العباسيين، عرف عنهم أنهم أهل فكر ناضج،
وبصيرة ثاقبة، وعلم واسع، يسعون إلى الخير
لأنفسهم، ولبثه في مجتمعهم، ويجتهدون في
هذا، ولهم كلمات مضيئة عما يرون فيه
النفع، وما يجب أن يعم وينتشر، وهي نصائح
غالية، وهما مثل منها:

«قال بعض خلفاء بني أمية (وقيل جعفر
ابن محمد الصادق):

ما توصل إلى أحد بوسيلة، ولا تذرع بذريعة،

هي أقرب ما يُحب مني من يد سبقت مني إليه ،
أتبعها أختها ، ليُحسن حفظها ، لأن منع الأواخر
يقطع لسان شكر الأوائل ، وما سمحت نفسي
برد بكر الحوائج» .^(١)

هذه كلمات رجل درس الأنفس ، وجال
في أعماقها ، وعرف مراميها ؛ وهو بهذا القول
يعطي خلاصة ما وصل إليه عن النفس الإنسانية ؛
فالإنسان إذا أعاد الطلب ، ولم يُستجب له ،
فهو في كثير من الأحيان ينسى المعروف الأول ،
ولا يبقى في ذهنه إلا حرمانه من طلبه الثاني ؛
أما إذا أجيب إلى الثاني ، فالاعتراف بالمعروف
يقوى ؛ ولهذا صاحب القول يجد أنه لا شيء
أحب إليه من أن يُركب الطلب الثاني على الأول ،
ويكون الأول هو الوسيلة للحصول على الثاني ،
ونظرة صاحب النفس الخيرة إلى كل طلب ،

(١) المجلس الصالح : ٣٩/٢ ؛ عيون الأخبار : ١٧٣/٣

على أنه مثل أول طلب، لا يضيق به، ولا يتأفف
منه، يعتبر منتهى الخير والسؤدد.

عمر بن الخطاب والحق^(١)

عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هو الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ عرفت عنه الصراحة ، وعشق الحق ، كان لا يخفي ما يجول في ذهنه مما يتوقع أن فيه نفعاً للمسلمين ، ولهذا تأتي منه أمور مفاجئة ، تدهش السامعين .

كان عمر قوي الشخصية ، شجاع الرأي ، مما جعل له مقاماً في مجتمعه في الجاهلية ، حتى أن الرسول ﷺ دعا الله أن يُعز الإسلام بأحد العمرين ، فاستجاب الله - سبحانه وتعالى - دعاءه وهدى عمر بن الخطاب إلى الإسلام ، فكان إضافة حميدة له ؛ كان عضداً قوياً مع أبي بكر - رضي الله عنه - ، للرسول ﷺ ، وكاناً بجانبه ، يساعدان في نشر الدعوة ، وثبتت حكم الإسلام ؛ وخلف أبو بكر الرسول ﷺ ،

(١) المجلة العربية : شوال ، ١٤١٧ هـ .

ثم خلف عمر أبا بكر .

انشغل عمر بالخلافة ، صرف وقته كله لها ، لا يفتر ، ولا يستريح ، عمله لها دائب ليل نهار ، يتفقد أمور الناس ، يساعد هذا ، وينظر في أمر هذه ، يعضد هذا ، ويأخذ على يد هذا ، يرقب ، ويتحرى ، ويتحسس ؛ يقارن ويستنبط ، فالإسلام في أوله ، والعين اليقظى تحميه ، والحزم يحوطه .

هذه جيوش تُسَيَّر ، وهؤلاء عمال يعينون في أنحاء مختلفة من الجزيرة ، وهؤلاء قضاة ينصبون ، وهذه وفود تقابل ؛ وهذا خراج يقسم ، وهذه زكاة تعطى ، وزكاة تجبى وتخرج ؛ والجيوش التي تسير تحتاج إلى قواد ، وإلى تنظيم دقيق يمنع تحاسد القبائل ، واحتكاكها ، والعمال يختارون بدقة ، تُراعى وضعهم ، ووضع من يحكمون ؛ وهي دقة تقاس بمعيار الذهب ، وتوزن بميزان الجواهر ؛ والقضاة يُدَرِّسُونَ

وَيُعَلِّمُونَ قَبْلَ أَنْ يَرْسَلُوا، بَلْ وَيَمْتَحِنُونَ
وَيَخْتَبِرُونَ، فَالْقَضَاءُ هُوَ الْمَحْوَرُ الَّذِي تَقُومُ
عَلَيْهِ الْحَيَاةُ، وَيَرْتَكِزُ عَلَيْهِ الْحُكْمُ.

وَتَدْفَقُ الْأَمْوَالُ زَكَاةً وَخَرَاجاً، وَتَعْدُتُ
الْحُدُودَ، الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ، وَأَصْبَحَ
هُنَاكَ حَقُوقٌ تَرْتَبُ عَلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الْحَدِيثَةِ، لِلجِيُوشِ، وَلِلْأَفْرَادِ، وَلِلْوَلَاةِ وَلِلْقَضَاءِ،
وَلِغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَاجَةِ مِنَ الضَّعْفَاءِ
وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالْعَجِزَةِ وَالْمَعْوِقِينَ، فَالْتَفَتَ
لَهَا هَذَا الْعَبْقَرِيُّ عَمْرٌ، وَأَخَذَ يَرْتَبُ أَمْرَهَا فِي
ظِلِّ نَصُوصِ الدِّينِ وَرُوحِهِ، وَكَانَ كَفِيئاً فِي
هَذَا، بَلْ خَيْرُ كَفِيٍّ، سَاسَ الْأُمُورَ، وَوَضَعَ
الْقَوَاعِدَ، وَأَشْرَفَ عَلَى التَّنْفِيزِ، وَاطْمَأَنَّ عَلَى
اِحْتِكَامِهِ وَقُوَّتِهِ.

وَانْشَغَلَ فِي بَحْثِ أُمُورِ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ
الْجَدِيدِ، الَّذِي اخْتَلَطَتْ فِيهِ الْأَجْنَاسُ، مِنْ

القبائل وغيرها من أهالي البلدان المفتوحة؛ جاؤا
لعاصمة الإسلام الجديدة، وكثر الغلمان
والجوارى، وبدأ مجتمع المدينة يشكل عبئاً في
تسييره للوجهة الصحيحة، فتصدى عمر لكل
ذلك بجدارة ومقدرة.

التفت عمر لهذا، ولغيره، ولم يذهل عن
غذاء الفكر والروح، إذ أفرد لهذا من جهده،
ووقته، ما رأى أنه يستحقه، والأدب والشعر،
وفيهما من مكارم الأخلاق، وحفظ اللغة، ما
جعل عمر يعطيها التفاتة خاصة؛ وهناك
مثل على ذلك، يكشف هذا الجانب، ويكشف
عراً عظماً عمر، وتفوقه، وهو يغلب نفسه،
ويخضعها للحق، فلا تأخذه في ذلك لومة نفسه،
ولا يمنعه كبرياء حكم، ولا سلطان السلطة؛
طأطأ رأسه للحق، وأقر بخطئه، ووضع الأمر
في نصابه، والقصة كما رواها ابن أبي الدنيا:

«كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة
أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في
الجاهلية والإسلام، فأرسل إلى الأغلب العجلي،
فقال: أنشدني، فقال:

أَرْجَزًا تُرِيدُ أَمْ قَصِيدًا فَقَدْ سَأَلْتَ هَيْنَا مَوْجُودًا
قال: ثم أرسل إلى لبيد بن ربيعة، فقال:
أنشدني:

فقال: إن شئت أنشدتك مما قد عُفي عنه
من شعر الجاهلية؟

قال: لا، أنشدني ما قلت في الإسلام، فانطلق
إلى أديم (جلد)، فكتب فيه سورة البقرة، فقال:
أبدلني الله مكان الشعر هذا.

قال: فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب،
فكتب إليه عمر:

إنه لم يعرف أحد من الشعراء حقَّ الإسلام
إلا لبيد بن ربيعة، فأنقص من عطاء الأغلب

خمس مئة ، واجعلها في عطاء لبيد .

قال : فركب إليه الأغلب .

فقال : تنقص عطائي من أن أطعتك !

قال : فرد الخمس مئة ؛ وأقر في عطاء لبيد

الخمس مئة .^(١)

هذا هو عمر ، رأى نور الحق فاتبعه ، لم
يكابر ، ولم يبحث عن وسيلة يتمسك بها تجاه
ما فعل ، حفاظاً على كرامة الحكم ، كما قد
يعمل غيره ، ولم يبحث عن حجة يدحض بها
حجة «الأغلب» ، بل انصاع انصياع تقي تبين
له الحق ففرح به ، واحتضنه .

(١) الإشراف : ١٠٩ .

أم الدرداء - رضي الله عنها^(١)

خلق الله الخلق ، وأودع فيهم من الصفات ما جعل بعضهم يختلف عن بعض ، فليس كل الرجال سواء ، ولا كل النساء سواء ، وقد يحظى رجل بالفضيلة ، ولا تحظى امرأة بمثلها ، وقد يقصر باع رجل ، بل رجال ، عما تتحلى به امرأة ، وهبها الله من فضله ما جعل هالة النور تحيط بأقوالها وأفعالها ، فجعل أقوالها صائبة ، وأفعالها قدوة في الفضيلة ، وحسن التصرف .

وقد لمع في كل عصر من العصور نساء يزن في فضلهن عدداً غير محدود من الرجال ، لعبن دوراً حميداً في بيوتهن وفي مجتمعهن ، فجاء التاريخ يروي بأحرف من نور سيرتهن ، ويعدد ما قمن به من أفعال ، وما تلفظن به من أقوال ، ويكشف

(١) المجلة العربية : ذو القعدة ، ١٤١٧ هـ .

ما يدور في أذهانهم من أفكار ، هي درر وجواهر
إذا كشف عنها الغطاء ، يراها الرجال والنساء
إشعاعاً يهتدى بضياءه للسير في الطريق السوي
المستقيم .

وأم الدرداء ، زوجة أبي الدرداء المعروف
المشهور ، كانت من هؤلاء النساء ، وقد كشفت
النصوص التي رويت عن أقوالها وأفعالها أنها
امرأة ولا كل الرجال .

وأم الدرداء العابدة تروي عن أصحاب
الرسول ﷺ وهي فقيهة في الدين ، تضع الأحكام ،
تستقيها من الأحاديث ، ومن القياس على ما في
روح الإسلام من معانٍ ، ومن تتبع ما قالت
يرى تميزها في هذا المجال ، ومن أمثلة ذلك :

«قال إبراهيم بن أبي عبلة :

رأيت أم الدرداء جالسة مع نساء المساكين
في بيت المقدس ، فجاء إنسان ، فقسم بينهم

فلوساً، فأعطى أم الدرداء فلساً، فقالت لجاريتها :
اشترى لنا بهذا جروزاً (بقلاً) .
قالت : أوليس صدقة ؟
فقالت : : إنه جاءنا عن غير مسألة» .^(١)

أم الدرداء الفقيهة ردت على جاريتها الشبهة ،
وأوضحت لها الفرق بين استحلال الصدقة ،
وبين التحرج منها ، وأن لكل منهما طريقه ،
ولعلها رأت ألا تتعالى على المسكينات بجانبها ،
فجارتهن في قبول الصدقة ، وأرتهن فعلاً أنها
أكلت بهذا الفلس شيئاً .

ومثل هذه الأمور يبدو أنها تشغل بالها ،
لأنها مما يدور في مجتمعها في تلك الأيام ، ولهذا
فهي وهي الفقيهة تبدي رأيها واضحاً ، تأتي به
مباشرةً ، فتقول :

«قال عثمان بن حيان :

(١) الحداث الغناء في أخبار النساء : ٤٩ .

سمعت أم الدرداء تقول : إن أحدهم يقول :
اللهم ارزقني ؛ ؛ وقد علم أن الله لا يمطر عليه
ديناراً ولا درهماً ؛ وبعضهم يَغْنَى برزق من
بعض ؛ فإذا أُتي أحدكم شيئاً فليقبل ، فإن كان
غنياً عنه فليضعه في ذي الحاجة من إخوانه ؛ وإن
كان إليه محتاجاً فليستعن به على حاجته ، ولا يرد
على الله - تعالى - رزقه الذي رزقه .

وأم الدرداء دائمة التغذية لعقلها بمجالسة
خيرة العلماء ، وحرصها على ذلك ، واعتبارها
هذا من الأسس التي تنمي المدارك .

«قال عون بن عبد الله :

جلسنا إلى أم الدرداء فقلنا لها :
أمللناك ؟

فقالت : أمللتموني ؟ لقد طلبت العبادة في
كل شيء فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من
مجالسة العلماء ، ومذاكراتهم ؛ ثم احتبت ،

وأمرت رجلاً يقرأ، فقرأ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾^(١).

أما عملها في الطاعة، فيمثله النص التالي :
«قال إسماعيل بن عبدالله، ويونس بن حليس :

كان النساء يتعبدن مع أم الدرداء، فإذا ضعفن عن القيام في صلاتهن تعلقن بالحبال»^(٢).
أما أخلاقها فيمثلهما النص التالي :

«إن رجلاً أتاها فقال :
إن رجلاً قد نال منك عند عبد الملك .
قالت : إن نؤبى بما ليس فينا فطالما زكينا
بما ليس فينا»^(٣).

(١) سورة القصص، الآية : ٥١ .

(٢) الحدايق الغناء في أخبار النساء : ٤٩ .

(٣) الحدايق الغناء في أخبار النساء : ٥٠ .

الجنة تحت أقدام الأمهات^(١)

قول ينبض بالحياة؛ هو عين الحقيقة، وأس العقل، ومح المنطق؛ النور منه يضيء، والإشعاع منه يبهج؛ ليس هناك ما يكافئ الأم على تعبها في جسمها وفي نفسها، وليس هناك ما يعادل المجهود الذي تعانيه، والتعب الذي تكابده، وهي تتابع نمو ابنها من رضيع، إلى فطيم، إلى شاب، إلى رجل؛ قلبها يخفق دائماً بحبه، وبالخوف عليه؛ إن حضر ابتهجت، وإن غاب قلقت؛ يبقى ابنها، وتبقى عاطفتها معه، لا تتغير ولا تتبدل، ولا تصغر بعد أن يكبر، ولا يخف وهجها، عندما يتزوج، ولا يضعف ومضها حتى لو انشغل عنها، وانشغلت عنه.

والأم ابنها له قسطه من الحنان كاملاً غير منقوص، سواء كان ابناً واحداً أو عشرة، هو

(١) المجلة العربية: ذو الحجة، ١٤١٧هـ.

قطعة من قلبها ، فالإبنة تتزوج ويحتل قلبها زوجها ، ثم يضاف إليه أبناءها ؛ والأخت مثلها ، وتبقى الأم وحدها التي يبقى سرها متصلاً ، لا تقطعه قابله ، ولا تفصمه مولده .

والتاريخ ، والحياة ، فيهما من الأمثلة على حنان الأم وطغيانه ما لا يكاد يحصى ، وليس هناك أم إلا وهذه صفتها ، إلا المرأة المريضة في نفسها ، الشاذة عن جنسها ، وهذه إن وجدت فلا يعتد بها ، ويكفي أنها شاذة .

ولهذا حث الدين على البر بالوالدين ، وَخَصَّ الأم ، ورجح البر بها ، وبطاعتها ، والعطف عليها ، ولما قال أحد الأبناء البررة لعمر بن الخطاب إنه بار بأمه ، وإنه يحملها على ظهره لقضاء حاجتها ، ولهذا هل يرى عمر أنه قد وفاها جزاءها؟ قال له : لا ، أنها كانت تحملك لقضاء حاجتك ، وهي تتمنى بقاءك ، وأنت

تحملها وتتمنى زوالها .

وهناك قصة مشهورة تبين حنان الأم وعطفها ،
وتحملها الأذى ، والعنت لراحة ابنها ؛ لا تتأفف ،
ولا تتأوه ، ولا تشكو ، ويكفيها أن ابنها المريض
المعاق على قيد الحياة ، تراه كل يوم ؛ وخلاف
هذا زوجته التي بعد أن أعاقه جرحه ملته ،
وصرحت بهذا ، وهذه هي قصة صخر وأمه
وزوجته :

قال الأصمعي : التقى صخر بن عمرو بن
الشريد السلمي ، ورجل من بني أسد ، فطعن
الأسدي صخرًا ، ف قيل لصخر :
كيف طعنك ؟

قال : كان رمحه أطول من رمحي بانبوب .
فمرض صخر منها ، فطال مرضه ، فكانت
أمه إذا سئلت عنه قالت :
نحن بخير ما رأينا سواده بيننا .

وكانت زوجته إذا سئلت عنه ، قالت : لا
حي فيرجى ولا ميت فيبكى .

فقال صخر :

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ مَا تَمَلُّ عِيَادَتِي
وَمَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي
إِذَا مَا امْرُؤٌ سَوَى بَأْمٍ حَلِيلَةً
فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقَى وَهَوَانٍ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَيْقَظَتْ مَنْ كَانَ نَائِمًا
وَأَسْمَعَتْ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
بَصِيرًا بِوَجْهِ الْحَزْمِ لَوْ يَسْتَطِيعُهُ
وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ^(١)

(١) المجلس الصالح : ١٠١/٢ .

الملاحه في القول^(١)

عدم التزمت هو الغالب على الناس ، والتزمت خروج عن القاعدة ، والطبع السليم في السماحة ؛ وقبول الأقوال المرحه ، والقصص البهجة ، لأن فيها راحة للنفس ، ومتعة للروح ، تريخ من العناء ، وتقلل من التعب ؛ وقد حث كبار القوم على الإحماض ، والإتيان بغير الجاد من القول بعد القول الجاد ، لتهدأ النفس ، ويرتاح الفكر ، وتنشط قواه .

والأقوال في هذا المجال في كتب التراث ، أدبها ، وتاريخها ، كثيرة ، قالها أناس ، رأيهم مقدر ، وفكرهم محترم ؛ وما قالوه جاء عن تجربة ، وما نصحوها به بنوه على علم ؛ وهم بعيدون عن الزلل في حق الدين ، وعن الخطأ في حق الخلق ، وعن الإزورار في جمال المرءوة ،

(١) المجلة العربية : محرم ، ١٤١٨ هـ .

منهم علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن عباس
- رضي الله عنهما - .

ويأتي الحث على الترويح عن النفس ، مفيداً
في ذاته ، وراداً على بعض من يتخرجون من
المزاح ، وقصص الظرف ، وحكايات الملاحاة ؛
خوفاً من أن يشيع هذا ، فيطغى على غيره من
مسالك الجد ، التي فيها قوام الرزق ، وركائز
الخلق .

وفي الأدب العربي أشخاص عرفوا بميلهم
إلى الفكاهة ، وبث المرح فيمن حولهم ، وإشاعة
البهجة بين الناس ؛ أعطاهم الله ملكة لا تخونهم ،
ومقدرة لا تتخلى عنهم ؛ يأتون بما يدهش
ويعجب ؛ لهم في هذا سرعة بديهة ، وقوة ذاكرة ،
ومعرفة بطبائع الناس والأشياء ، يستمدون منها
مادة أقوالهم ، وأحياناً أفعالهم ، ؛ وكتب الأدب
ملأى بحصيلة ما روي عنهم ؛ بعضها جاء مبثوثاً

في ثنايا الكتب ، وبعضها جاء فصلاً في كتاب ،
وبعضها أفرد له كتاب مخصص .

والنص الذي نسوقه في هذا المجال يرويهِ
الأصمعي ، والأصمعي عرف بروايته للأمور
العجيبة ، والحوادث المدهشة ؛ وذلك يرجع
إلى صفاء ذهنه ، ومقدرته على سبر غور الأمور ،
مع ذاكرة قوية ، تسعفهِ برواية ما يمر من حوادث ،
وما تحتوي عليه من نصوص أدبية ، شعرية أو
نثرية ؛ وأفاده في كثرة محصولة اختلاطه بالناس ؛
وفي سعيهِ للاستزادة مما يحتاجه في حياته فكراً
ورزقاً ، رحلاته إلى البادية ، واختلاطه بأهلها ،
وبقائه معهم ، واستشارته لما عندهم .

ولما امتلأ به الأصمعي من خزين التجارب ،
وحصيلة المشاهدة ، أصبح خير سفير للخلفاء ،
وخير مؤدب لأولادهم ؛ وقد أفادنا هذا إذ دُوِّنَ
كثير من ذلك ، وحُرِّصَ عليه لما فيه من فائدة

وعلم ، وطرافة وظرف ؛ ولكن هذا أوصل إلى آفة ، تعكر صفو ما يروى عنه ، وهو الوضع على لسان الأصمعي ، ونحله ما لم يقله ، وجعله مشجباً يعلق عليه ما يتسق مع ما يقوله الأصمعي عادة ، خاصة إذا كان غريباً عجيباً ، أو طريفاً معجباً .

ومن النصوص التي رواها الأصمعي نص جميل يدور حول ملاحاة الأقوال ، وإباحة قولها ، وإباحة سماعها ، وإزالة ما يثار حول ذلك من شبهة ، وما قد يأتي عليها من اعتراض .

يقول النص كما رواه ابن أبي الدنيا :

«قال الأصمعي :

أنشدت محمد بن عمران ، قاضي المدينة ، وكان من أعقل من رأيت من القرشيين :

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ مَنْزِلِي
نَزَلْتُ فِي الْخَانِ عَلَى نَفْسِي

يَغْدُو عَلَيَّ الْخُبْزُ مِنْ خَائِبٍ
لَا يَقْبَلُ الرَّهْنَ وَلَا يُنْسِي
أَكْلُ مَنْ كَيْسِي وَمَنْ كِسْرَتِي
حَتَّى لَقَدْ أَوْجَعَنِي ضَرْسِي

فقال لي : اكتبها .

فقلت : أصلحك الله إنما يروي هذه الأحداث .

فقال : ويحك ! الأشراف همته الملاحه ^(١) .

هذا لأن الأشراف عندهم ذوق ، ويقدر
الجمال في الشيء ، على ألا يחדش الحياء ، ولا
يجرح المروءة ؛ بل إنهم يسعون إلى الطريف من
القول ، لأن حياتهم معرضة للإجهاد من كثرة
ما يعالجون من مشكلات الناس ، وللعنت مما
يتحملون من الصعوبات ، التي يتصدون لها
وهم يقومون بعملهم السياسي أو الاجتماعي ؛
فهم أحوج ما يكونون إلى ملاحه الأقوال ،

(١) الإشراف : ١١٧ .

وطريف القصص ، وظريف الروايات ؛ ففي
هذا تجديد لقواهم ، وقلما تخلو طريفة من فائدة
جانبية ، أو نفع عميم .

أضواء الصدق^(١)

للصدق أضواء لا تخفى على أحد، مثلما أن للكذب ظلمات لا تخفى على أحد، والصدق يزين صاحبه، ويلبسه حلة زاهية يفخر بها من يتصل به، ويغبطه من يراها عليه، والصدق حسب العلم والتجربة منجاة لصاحبه، يبعد عنه الأذى، ويجلب له الفائدة، والنفع، يفتح أمام صاحبه الأبواب المغلقة، ويشرع النوافذ الموصدة.

والكذب يشين صاحبه، ويلبسه ثوباً دنَّسه العيب، ونزعت من حافاته الثقة، تحف به الريبة، ويلابسه الشك، لا يقبل منه قول، ولا يعترف له بفعل، ما جاء شيئاً لوحظ ورفض، وما جاء زيناً أوَّل، وفسَّر تفسيراً ليس في صالح صاحبه؛ صاحب الكذب خاسر، خائب،

(١) المجلة العربية: صفر، ١٤١٨هـ.

تقصر جهوده عن الهدف ، ويطيش سهمه عن إصابة القصد ؛ لا يُقبل إلا من أمثاله ، والطيور على أشباهها تقع .

والحكام ، وهم المسؤولون عن الأمم ، يشددون على تحلي من يعمل معهم بالصدق ، ويتغاضون أحياناً عن عيوب كثيرة ، وأخطاء متعددة ، ولكنهم لا يتسامحون مع الكاذب ؛ لأنهم يعرفون أن ضرر الكذب معهم قد يصل إلى إزهاق أرواح ، وتشويه سمعة ، وإضاعة حقوق ؛ وقد بيدر منهم بسببه أمر عظيم لا يمكن تداركه ، ونتائجه مثله عظيمة ، وأضرار مثله جسيمة ، ولهذا فأحدهم لو تبين له الكذب ، ولو في أحد من أولاده ، التفت للأمر التفاتة المددوغ ، وتألم تألم المطعون .

والكذب أنواع لا يكاد يحصر عددها ، وتنوعها يأتي في ضوء النية تكمن خلفها ،

والهدف يُرمى إليه من ورائها؛ فشيء منها
لتغطية نقص يشعر به الكاذب، ليلبس نفسه
لباساً غير لباسه، وليهيئ لنفسه مقاماً غير
مقامه، تلذذاً بذلك، أو كسباً لغنيمة تأتي من
التظاهر بمظهر هذا المركز، وأحياناً يكون ذلك
لإسقاط حق، بالحكم فيه تأتي غرامة، والغرامة
خسارة.

والكذب أحياناً وراءه مركب نقص، يكمل
صاحبه فجواته بدعوى يلفقها، لتسد ما انفرج
في أمر من أموره؛ وهذا فيه جانب جبن، إذ لم
يستطع الكاذب أن يواجه الحقيقة، وأن يقبل
بالواقع؛ فإن تظاهر، وكذب، وادعى أنه يحمل
شهادة علمية أعلى مما عنده، فهذا مركب نقص.
تواكب فيه الكذب مع الجبن؛ ووراء هذا الوهم
بأن مثل هذا سوف ينقص قدره؛ ولو أراد
قدراً خيراً مما جاء به جهده لسعى إليه، وناله،

والمرء بما يدرك ، وبما يتقن ؛ فهو ، داخلاً ،
مقر بأنه مضر في حق نفسه فعلاً ، فهو يريد أن
يكمل ذلك ادعاءً وتظاهراً .

والإنسان في هذه الحالة ينسى أن الناس في
الغالب يدركون أن عمله هذا متصنع ، وأنه
يدعي ما ليس فيه ، وأنه غارق في عيبي الجبن
والكذب ، ولكنه يبذل الجهد ليقنع نفسه أن
هذا لا يحدث ، وأن الناس لا يعلمون ، وأنه من
المقدرة والذكاء بحيث استطاع أن يخدعهم .

وخلافه الصادق ، الذي يأتي ظرف يسمح
له أن يتشامخ ، ويتعاضم ، ويكسب من فرصة
لم يسع إليها ، وإنما جاءته تسعى له بقدميها ،
ومع هذا يركلها بقدمه ، وينبذها عنه ، ويفضل
عليها رداءه الحقيقي المتواضع ، ففي بياض
الحقيقة الناصع ما يملؤه فخراً ، والقصة الآتية
تمثل هذا النوع الراقي من الرجال ؛ كان بإمكان

هذا الرجل أن يدعي أن الشجة التي في وجهه
ضربة سيف ، وجاءته نتيجة هجوم أو مبارزة ،
ولكنه أبى إلا أن يقول الحقيقة بصيغتها الساذجة
البديعة :

«عن العلاء بن المنهال ، قال :
أتى خاقانَ رجلٌ من غنيٍّ ، في وفد أتوه من
العرب ، وبوجه الرجل ضربة منكرة ، فقال له
خاقان :

أي يوم ضربت هذه الضربة ؟ وهو يرى أنها
ضربة سيف .

فقال الرجل : ضربني فرس لي .
فقال خاقان : لَصِدْقُهُ أعجب لي مما ظننت ،
ما أحسن الحق !
فأضعف له الجائزة» .^(١)

(١) المجلس الصالح : ٣٢٧ / ٢ .

نِجاة وهلاك^(١)

أمامي الآن قصة من التراث ، فيها متعة القصة ، وفيها دهشة الصدفه ، وغرابه الحادث ؛ وفي داخلها عظة ؛ وهي في مجموعها تبعث على التأمل ، وتدعو إلى التفكير ؛ فيوم المرء إذا جاء لا يردده شيء ، وقد ينوى الهلك للمرء ، فيسلم ويهلك غيره .

وقد يجري الإنسان وراء شيء ثمين ، ويعرض ما هو أثمن منه للخطر ، فالرجل في القصة جرى وراء ماله ، وعرض نفسه للهلاك في أرض مسبعة ، نُبه إلى الخطر فيها ، وآمن بهذا الخطر ، بدليل تصرفه ، وتحرزته ، ومع هذا لم يمنعه ما أحاط به من خطر من أن يجازف مقابل حفنة من النقود ، وقد يكون ندم على ما فعل ، عندما أحاط به الخطر ، وهو عمل كل إنسان مستهين

(١) المجلة العربية : ربيع الأول ، ١٤١٨ هـ .

ومجازف ، عندما يدرك الخطر ، يقول : ليتني لم أفعل ، وليتني سمعت صوت العقل .

وقصص الأسود في العراق في عصر الأمويين والعباسيين كثيرة ، ومتنوعة ، لوجود غابات الأควاب قرب النهر ، حيث يستكن الأسد ، ويخرج إلى السابلة عندما يعن له هذا ، ولعله من بقايا ما كان العرب يتحدثون عنه في شعرهم ، وفي قصصهم ؛ وعلمهم به ، ودخوله حياتهم جعل له عدداً كبيراً من الأسماء ، والصفات ، سموا بها أبناءهم ، وفاخروا بها ، لأنها مثال للشجاعة ، والإقدام ، والعزم ، والقوة .

والقصة الآتية تروي حادثة من حوادث الأسد ، وتعطي صورة عما كان عليه السفر في تلك الأيام ، وما فيه من مخاطرة ، وتري أيضاً جانباً من الحياة الاجتماعية للسادة والرقيق ، والعلاقة بينهما ، وما قد يطرأ على هذه العلاقة ،

وتصرف السادة والموالي حينما تهتز العلاقة
بينهما .

«قال أبو الحسن بن راهوية الكاتب :
حكى بعض التجار أن مملوكاً سرق منه كيساً
فيه جملة من الدنانير وهرب .

قال : فخرجت في طلبه ، فأدركني المساء في
موضع حدده ، وذكر لي أنه مسبع ؛ فرأيت
شجرة عالية ، فتسمنتها ؛ فلما كان من الليل
أقبل الأسد ، والأرض كادت تنشق من زئيره ؛
فجزعت ، وجذبت غصناً من الشجرة متعلقاً
به ، لأرتفع من مكاني ، وأزداوا بعداً من الأرض ؛
فسقط شخص من الشجرة ، سمعت وجبته
(صوت سقوطه) .

فوثب الأسد عليه ، وجعل يلغ في دمه ،
ويلتهم لحمه ، ثم ولى ، وأقامت مكاني حتى جاء
الصبح ، وانتشر الناس ، فنزلت ، فإذا رأس

غلامي ملقى ، وإلى جنبه كيسي بحاله ، فأخذته ،
وانصرف^(١) .

هذا الرجل خسر كثيراً ، وغنم كثيراً ، خسر
عبده ، وخسر تعباً ، ولكنه غنم حياته ، وهي
أثمن من أي شيء خسره ؛ أما العبد فقد اهتم
بالمال ، وجازف في هذه الطريق ، وظن ، وهو
على الشجرة ، أنها تحميه ، وجاءه حتفه من حيث
لم يحتسب ، لأن يومه قد أزف ، ولأن المال
لم يقسم له ؛ ولعله مال حلال ، حفظه الله
لصاحبه ، وجاء الموت العبدَ على يد سيده ،
وبهذه الطريقة العجيبة ، وفي الصدف عجائب ،
تجهد العقل في تقبله إياها .

(١) الجليس الصالح : ٣٢٧ / ٢ .

سعة أفق^(١)

الحاكم لبلد مترامي الأطراف همه أكبر من غيره، لأن الجزء من بلاده كلما بعد زاد همه، وانشغال باله؛ لهذا يحرص مثل هذا الحاكم على اختيار الرجل الكفيء، القادر على إدارة الأمر إدارة ناجحة، تُطمئن مَنْ نَصَّبه وأتمنه، ورجا منه النجاح، وله الفلاح.

فإذا ما عين الحاكمُ الرئيسُ عامله، أخذ يوصيه، ويشدد في وصيته على الجوانب المختلفة، خاصة تلك التي تلمس الناس من جانب أو آخر، وتأتي بمردود خير أو مقلق؛ فهو يحث على هذه، ويحذر من هذه، وليس هناك خير من أبي بكر الصديق، وقد خلف الرسول ﷺ في إدارة أمور الأمة، والنظر في شؤونها، والسعي فيما يخدمها، ويصلح حالها؛ وأول أمر اهتم

(١) المجلة العربية: ربيع الآخر، ١٤١٨ هـ.

به تعيين الولاية والعمال، ومنحهم وصاياه
الحكيمة وهذه إحدى وصاياه، المليئة بالحكمة،
وكشف أصول السياسة الناجحة، وإدارة أحوال
الناس على الوجه الأمثل؛ وكل جملة ملآى
بالمعاني المنيرة، والأفكار المضيئة.

«قال أبو عبيدة: قال أبو بكر - رضي الله
عنه - ليزيد بن أبي سفيان، وقد بعثه إلى الشام:
ابدأ بالصلاة إذا حل لك وقتها، ولا تشاغل
عنها غيرها، فإن الإمام تقتدي به رعيته، وتعمل
بعمله في نفسه؛ وإذا وعظت فأوجز، ولا تكثر
الكلام، فإن كثرة الكلام تنسي بعضه بعضاً؛
وإنما يغني منه ما وعي عنك.

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق
المشورة، ولا تدخرن عن المشير شيئاً فتكون إنما
تؤتي من نفسك، ولا تلجن في عقوبة، فإن أدناها
وجيع، ولا تسرعن إليها وأنت مكتف بغيرها.

ولا تكشف الناس عن أسرارهم ، واستغن
بعلاانيتهم ، ولا تجسس في عسكريك فتفضحه ،
ولا تغفله فتفسده ؛ ولا تقاتلن بمجروح ، فإن
بعضه ليس معه ؛ واستثل الناس بالدنيا ، فإن
ذا النية تكفيك نيته .

ومن أعطيته شيئاً بشيء فف له ؛ ولا تتخذن
حشماً تضع عنهم ما تحمله على غيرهم ، فإن
ذلك يضغن الناس عليك ، ويستحلون به
معصيتك» .^(١)

لقد جمع أبو بكر - رضي الله عنه - سياسة
الحكم في هذه الكلمة الجامعة ، ففيها من العناصر
البناءة ، والمبعدة عن الخلل والضعف ، ما لا مزيد
عليه .

بدأ - رضي الله عنه - بعماد الدين ، فنبه إلى
الصلاة ، ونبه إلى حقها ، وإلى ما فيها من قدوة ،

(١) المجلس الصالح : ٣ / ١٣٥ .

على يزيد أن يراعيها ، والقوم في أول أمرهم ،
فإذا لم يعط هذا الجانب اهتمامه ، أضعف أهم
سارية يرتفع عليها بناؤه .

ثم التفت إلى أمر مهم آخر ، وهو الحديث
والخطب والوعظ ، وسوف يكون لها نصيب
من سياسته ، ووقته ؛ وهي أداة صلته بالناس ،
فأرشده إلى أصولها ، وإلى ما يجعلها مفيدة ، أو
عديمة الفائدة .

ثم جاء إلى أمر ثالث لا غنى للحاكم عنه
وهو الاستشارة ، والحاكم الناجح من يستشير ،
وتلاقح الأفكار باب واسع من أبواب النجاح
في الأمر ؛ فنبه إلى ما يغفل عنه أناس كثيرون ،
وهو حجب جزء من الأمر عن المستشار ، وهذا
يضر بالاستشارة ، فالمستشار مثل الطبيب ، يجب
أن لا يحجب عنه أمر .

ثم انتقل إلى بعض ما سوف يتعرض له ،

بصفته حاكماً، وهو العقاب، فرسم له سبيل
النجاح فيه؛ ودله على أن العقاب ألم رادع،
وليس انتقاماً وحقداً.

ثم لمس جانباً مهماً وهو أسرار الناس،
وما خفي منها عنه مما لا يضر بالحكم، ثم أمره
بالاقتناع بما يظهره الناس، أما النيات فلا
يعلمها إلا الله.

والعسكر عنصر مهم، لتوطيد الحكم،
وللمرابطة على الحدود، ولدفع الثغور الإسلامية،
وتوسيع الفتوح؛ وهم همٌّ قائم بذاته، يجب أن
لا يغفل عنه، ولا يتجسس عليه إلا بمقدار؛
والجريح لا بد أن يراح، لأن همه في جرحه.

ثم أمره بأمر يبعد عنه الحقد، ويقطع دابر
العصيان، وهو أن لا يزيد في بر أحد، من حق
أحد، فمن أخذ حقه جريح ينتهز الفرصة،
ليسترد حقه.

الخاتم تائه^(١)

للخاتم تاريخ ممتع ، وهو تاريخ طويل ، يمتد بامتداد الزمن ، وتختلف النظرة إليه باختلاف الأمم ، كل أمة له عندها اعتبار يختلف عنه في أمة أخرى ، وله شكل يميزه في هذه الأمة عن خاتم في أمة أخرى .

فبعض الأمم تفضل خاتم الذهب للرجال ، وبعضها تفضل خاتم الفضة ، وهناك خواتم من معادن أخرى ، وقد يؤلف بين معدن ثمين ومعدن آخر ، وقد يخلط في سبكهما ، ولكل أمة من هذه الأمم في سبك الخاتم هدف وغاية ، ومعنى يختفي خلف ما هو ظاهر .

والخاتم أنواع ، بعضه عريض ، وبعضه يدق حتى يكون رمز خاتم ، والعرض وخلافه يخضع لاعتبارات قد تعرف ، وقد تجهل ، لأن الأسباب

(١) المجلة العربية : جمادى الأولى ، ١٤١٨ هـ .

اختفت مع الزمن الذي وجدت فيه ، فيصبح الأمر عادة تتبع ، وقد تدخل في تنظيم ، يصبح معتبراً ، وإن كان عند البحث والتنقيب يتبين أنه لا صلة بينه وبين ما ابتدع له ، فإن كان العريض للزينة في أصل الأمر ، فقد يصبح رمز زواج ، وقد يصبح ختماً تطرز به الوثائق ، وإن كان دقيقاً فقد يكون رمزاً لحزن حل أو ارتفع ، ثم يصبح مع مرور الزمن رمزاً للفرح والبهجة وهكذا .

والخاتم قد يكون ثمنه عالياً ، لا لأنه من ذهب أو فضة ، ولكن لأنه قد فصص بحجر كريم ، قيمته تتعدى قيمة الذهب والفضة ، والقيمة أحياناً تأتي من جمال الفص ، وأحياناً من ندرته ، وبعض الفصوص يكون فيه من الصور أو الزبرقة ما يجعلها محل الإعجاب والاطراء ، وأحياناً يكون للخاتم ذكرى تجعله غالي الثمن ، وعزيزاً عند صاحبه .

وإذا كان الخاتم عند بعض الناس رمز زواج ، فهو عند آخرين رمز جمال ، وعند أناس فائدته في أنه يحمل اسم صاحبه ، يختم به وثائق ، ويطمئن إلى أنه بيده لا يستعمله غيره .

وفي زمن من الأزمان كان يلبس الخاتم الثمين في الأسفار ، حتى إذا انقطع صاحبه ، كأن طالت الرحلة عما قدر ، أو عما أخذ معه من مال ، أو سرق ما معه ، فإن الخاتم يصبح وثيقة بنكية يبيعها حيث يشاء ، فيحل بهذا ضيقة عرضت ، وظرفاً طرأ . وفي الغالب في مثل هذه الحالة تكون القيمة في الفص ، ولهذا يبحث عن أغلاها لمثل هذه الحالات .

والأمم يختلف الرجال فيها في أي الأصابع يلبس الخاتم ، فهناك من يلبسه في يده اليمنى في أصبعه الخنصر ، وبعضهم يلبسه في البنصر ، وهناك من يلبسه في أي أصبع ، وبعضهم يلبسه في يده اليسر ، ولكل حكمة وغرض ، وهناك

من يلبس أكثر من خاتم ، وقد يُلبس خاتمان
في أصبع واحد .

ولابد أن المسلمين الذي اقتبسوا من الغرب
عادة لبس خاتم الزواج ، عندما تزوجوا أكثر
من زوجة احتاروا في عدد خواتم الزواج ، خاصة
إذا كان الواحد منهم له أربع زوجات ، والحمد
لله أن هذه العادة لم تأت عندما كان هناك سراري !!
وفي التراث نص ، يعطي لمحة من تاريخ
الخاتم ووضعه ، والنص يقول :

«ذكر السلامي أن رسول الله ﷺ كان يتختم
في يمينه ، والخلفاء بعده ، فنقله معاوية إلى
اليسار ؛ فأخذ المروانية بذلك .

ثم نقله السفاح إلى اليمين ، فبقي إلى أيام
الرشيد ، فنقله إلى اليسار ، فأخذ الناس بذلك» .^(١)

(١) ربيع الأبرار : ٢٤ / ٤ .

فزع القضاة^(١)

التقى من العلماء يتخرج من منصب القضاء ؛
لأن أمام أعينهم مدلول قول الرسول ﷺ قاضٍ
في الجنة وقاضيان في النار ؛ ولأنهم يعرفون أن
في المسائل التي توضع أمامهم في مجلس القضاء
ما هو معمى ، وصعب ، والجزم بالحق فيه
ضعيف ؛ ويخشون أن يلحق ذمتهم شيء ، وأن
تأكلهم النار دون أن يدروا .

ولهذا كان بعضهم يعتذر ، ويقبل عذره ،
ويحمد الله على العافية ، وبعضهم يرغم ، فيقبل ،
ويحاول أن يبرئ ذمته بسؤال العلماء إذا ما أشكل
عليه أمر ، وقد يجلس عالماً بجانبه ، طوال الوقت ؛
وزيادة في التحرز لا يأخذ على القضاء أجراً ،
إذا كان له مرزق آخر ، من مال أو عقار ، أو
يأخذ الكفاف إذا أخذ .

(١) المجلة العربية : جمادى الآخرة ، ١٤١٨ هـ .

وبعضهم يعتذر، فلا يقبل عذره، فيحتال
بأسباب يبتدعها، وحجج يخترعها، هي صادقة
بالتأويل، غير صادقة في الحقيقة: يشير أحدهم
بأصبعه إلى عينه، ويحلف أنه لم ير بها منذ كذا،
وهذا نقص في كفاءة القاضي إذا لم يكن له إلا عين
واحدة، فيعفى لأجل ذلك؛ والقاضي يحلف
على أصبعه أنه لم ير بها، والخليفة يظن أنه يشير
إلى عينه؛ وآخر عندما يدخل على الخليفة
يخذرف، ويرمي نفسه في الأرض، فيأمر الخليفة
بأخذه خارجاً، إذ لا بقية فيه تصلح، وهكذا
أعذار متتالية.

وهذا لا يعني أن القضاة دائماً ينجحون في
التخلص من الوقوع في مصيدة الخليفة؛ فالخليفة
يجد أحياناً أنه من الإثم عليه ألا يجبرهم؛ لأنهم
أصلح الناس لتولي قضايا المسلمين، وأن من
حقهم على أنفسهم أن يعترضوا، ويتمنعوا،

ويستमितوا في ذلك ، ولكن من حقه أن يصر
ويجبرهم على تولي القضاء ، لأن فيه مصلحة
المسلمين ، وهم في عنقه ، وهو يعلم أن هذا
العالم هو الأفضل ؛ وقد وصل ببعض الخلفاء
الإصرار إلى سجن القاضي ، وإجباره ، وقد
أفلح جهده ، وأخفق جهده .

والقضاء مع الجوانب الدينية التي يخشى
القاضي أن يحاسب على الخطأ فيها ، يقابل بالأمور
الدنيوية ؛ فالقاضي إذا حكم بين متقاضيين ،
ففي الغالب يغضب أحدهما إن لم يغضب الإثنين ،
فأعداؤه بين حصيلة المتقاضين تصل إلى نصفهم ،
ومعاداة الناس أمر يتفاداه العاقل ؛ ويتجنبه
من يريد العافية في حياته ؛ وقد أبان أحد القضاة
طرفاً من همه في هذا المجال في أبيات هذا نصها :

« قضى ابن شبرمة بقضية ، فبلغه أن بعض من
كان بينه وبينه وحشة تكلم فيها ، فقال ابن شبرمة :

مَا فِي الْقَضَاءِ شَفَاعَةٌ لِمُخَاصِمٍ
عِنْدَ اللَّيْبِ وَلَا الْفَقِيهِ الْحَاكِمِ
أَهْوَنُ عَلَيَّ إِذَا قَضَيْتُ بِسُنَّةٍ
أَوْ بِالْكِتَابِ بَرَّغَمِ أَنْفِ الرَّاعِمِ
وَقَضَيْتُ فِيمَا لَمْ أَجِدْ أَثْرًا بِهِ
بِنَظَائِرٍ مَعْرُوفَةٍ وَمَعَالِمٍ^(١)

وَيُطْمئن ابن شبرمة القاضي نفسه أنه على الحق
لم يجد عنه قيد أنملة، وسار على ما أرشد إليه
الرسول ﷺ وسار عليه خلفاؤه الراشدون، من
السير في هدي القرآن أو السنة، أو بالقياس
عليهما.

وتأتي حيل القضاة في دفع ولاية القضاء عنهم
متنوعة، وفيها ذكاء، والمعية، ولا غرو فهم
علماء، وأهل فطنة، هي التي أهلتهم لأن
يُختاروا لهذا المنصب الخطير، ومن صور

(١) المجلس الصالح: ١٢٦/٤.

الحيل التي فكر فيها قاض ، بعد أن وليّ القضاء ،
القصة التالية :

«وليّ عمر بن عبدالعزيز رجلاً ، فكره الولاية ،
فكتب إلى عمر : بسم الله الرحمن الرحيم
لعبد الله عمر ، أمير المؤمنين
أما بعد :

فَاسْقِنِي شَرْبَةً أَلَذُّ عَلَيْهَا
ثُمَّ عِدَّةً مِثْلَ شَرْبَتِي لِهِشَامِ
فكتب إليه عمر : اعتزل عملي .
فاعتزل ، ثم كتب إليه :

عَسَلًا سَائِغًا وَمَاءً قَرَا حَا
إِنِّي لَا أَحِبُّ شُرْبَ الْمُدَامِ
فكتب إليه عمر : عد إلى عملي .

فكتب إليه : لا حاجة لي في عمليكم» .^(١)

(١) المجلس الصالح : ٣٥ / ٢ .

خمس شمعات مضيئات (١)

الابن فلذة كبد والديه ، يريان فيه صورتها ،
والأب ينظر إلى ابنه منذ صغره على أنه رجل ،
وهو خليفته ، وقبل ذلك هو عضده ، ويريد له
من الخير ما يريد لنفسه ، ولهذا يسعى العاقل
في أن يجعل ابنه خيراً منه إن استطاع ، ولا يرضى
أن يبه أحد ، أو يسبقه غيره ، إلا ابنه ، فهو قرير
العين أن يرى ابنه أعلى منزلة منه .

من هنا أصبحت تربية الابن مهمة عند الأب
سليم التفكير ، كامل العقل ، يسعى لأن يوفر
لابنه في صغره ما يفيد في كبره ، يختار له من
العلم أحسنه ، ومن التدريب أفضله ، يراعي
ما فيه له فضيلة ، ويبعده عما يوصله إلى رذيلة ؛
يختار له معلمه ، ويختار له إن استطاع قرناء
وجلساءه ، عينه عليه ، لا تغفل ؛ وربما غالى في

(١) المجلة العربية : رجب ، ١٤١٨ هـ .

تلقينه ما ينوء به حملة لصغر سنه ، ولكن حرص
الأب على فائدته أحياناً تنسيه بعض ما تتطلبه
التربية .

كم من أب استدان لينشئ ابنه تنشئة حسنة ،
وكم من أب تعب ليستريح ابنه ، وكم من أب
جاع ليشبع ابنه ، وكم من أب فادى ليسلم ابنه ؛
وكم من أب ركب الصعب ليمهد الطريق السهل
لابنه ؛ وهذه عاطفة ملأ الله بها روح الأب ،
ليصلح الكون ، ولتستقيم أموره ، والله حكمة
في كونه وعماره ، وله الأسباب التي يعلم وحده
ما توصل إليه ، وما تمهد له .

والعلماء وكبار القوم هم أولى من يعرف
فائدة التربية السليمة ، لأن آباءهم أحسنوا
تربيتهم ، وقد ذاقوا طعم التربية الحسنة ،
ويريدونها لأبنائهم .

والآباء يتسقطون ما يسنح ليلتقطوه ، ويفرحون

بالحكمة تمر ، ليقتطفوا زهر فوائدها ، فيهدوه
لأبنائهم ، وهذه قصة رجل من بيت كريم ،
ونسب نبيل ، رجل عالم ، يشار إليه بالبنان ،
ويتطلع منه إلى مثل ما جاء منه ، وهذه هي القصة :
«عن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي ،
قال : قال لي أبي :

«يا بني ، انظر خمسة ، لا تحدثهم ، ولا
تصاحبهم ، ولا تُرى معهم في طريق .
قلت يا أبة ، جعلت فداك ! من هؤلاء الخمسة ؟
قال : إياك ومصاحبة الفاسق ، فإنه يبيعك
بأكلةٍ ، أو أقلَّ منها .

قلت : يا أبة ، وما أقلُّ منها ؟
قال : الطمع فيها ثم لا ينالها .
قلت : يا أبة ، ومن الثاني ؟
قال : إياك ومصاحبة البخيل ، فإنه يخذلك
في ماله أحوج ما تكون إليه .

قلت : يا أبه ، ومن الثالث ؟

قال : إياك ومصاحبة الكذاب ، فإنه يقرب
منك البعيد ، ويباعد منك القريب .

قلت : يا أبه ، ومن الرابع ؟

قال : إياك ومصاحبة الأحمق ، فإنه يحذرك
ممن يريد أن ينفعك ، فيضرك .

قلت : يا أبه ، ومن الخامس ؟

قال : إياك ومصاحبة القاطع لرحمه ، لأنني
وجدته ملعوناً في كتاب الله عز وجل في ثلاثة
مواضع ، في «الذين كفروا» : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ
إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا
أَرْحَامُكُمْ ﴾ . (١)

وفي الرعد : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ . (٢)

(١) سورة محمد ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٢٥ .

وفي البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾^(١) .

هذا جانب من جوانب التربية، هو من أخطرها، لأن تأثير القرين، ومن يخالطه الناشئ أكثر تأثيراً عليه من والديه، لطول مكثه معه، وإلحاحه عليه، ولتقارب عقليهما، وتماثل رغباتهما، وما لم يأت في هذه الجلسة ففي الجلسة الأخرى، والطَّرُق المتواصل على الباب يفتحه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦، المجلس الصالح الكافي: ١٢٨/٢.

قصة وعبرة^(١)

بعض القصص فيها من غرائب الصدف ما يربو على الخيال، وتكاد لا تصدق، ولكن تتابع الحوادث، وترابطها القوي، يجعل المرء يميل إلى تصديقها، أما المتعة في قراءتها فثابتة، وهي تشد القارئ، حتى أنه ينسى ما يجب ألا ينساه، وهو مدى صحة ما يكتب من عدمه، ولكن المتعة عامل مخدر، وعنصر منوم، قد يتكرر مع الإنسان، وهو يقرأ، وكلما تذكر واجبه، وجمع جيوش التركيز، ووسائل الانتقاد، قابله من النص جيوش المتعة، وكمين اللذة، وهكذا دواليك، والقصة الآتية فيها مثل شاهد على ذلك:

حدث عمر بن شيّة عن رجل من أهل البصرة
قال:

(١) المجلة العربية: شعبان، ١٤١٨هـ.

«مررت بالنخاسين ببغداد، فإذا أنا برجل
ينادي على غلام نظيف، له هيئة وجمال، وهو
يقول:

من يشتري غلاماً، سارقاً، آبقاً، قتولاً
لمواليه؟

فعد خلال سوء، قال: فقلت:
يا غلام، ما هذه الصفات بك؟
قال: فقال لي: امض إلى عملك، إن أردت
أن تمضي، فإن مولاي يريد أن يستعينني بهذا. ^(١)
قال: فرغبني هذا الكلام فيه.
فقلت للمنادي: بعنيه.

فقال: مع كل ما وصفت من الخلال المذمومة
فيه؟

قال: فقلت: أرمي بثمرن هذا في البحر.
فاشتريته بسبعة عشر ديناراً، وصرت به إلى

(١) ابراء لذمته، وهي عادة الأتقياء عند البيع، يكثرون من تعداد العيوب.

منزلي ، فمكثت شهوراً لا أرى إلا كلَّ خلّة جميلة :
حيطة ، وشفقة ، ونصحاً ، حتى أمنت ، وسلّمت
إليه ؛ فقبض على كيس لي فيه جملة ، ثم هرب ،
فلم أعرف له خبراً ، ولم يكن لي على بيعه حجة
لما بيّن من خلاله .

قال : فقلت : ما أرى كل ما قيل فيه إلا حقاً ،
فحمدت الله - عز وجل - إذ كانت النازلة بمالي ،
ولم تكن بي .

قال : ثم اتصل بي الخبر أنه بالكوفة ، قد
انقطع إلى صيرفي .

قال : فخرجت خلفه ؛ فأراه قاعداً في الصيارف
في دكان رجل نبيل منهم .

قال : فقبضت عليه ، وقلت :

يا عدو الله ، يا آبق .

قال : فقال الصيرفي : أهو مملوك ؟

قال : فقلت : نعم ، هو عبيدي .

قال : فقال الغلام : نعم ، هو مولاي ، وأنا
 مملوكه ، فراعني تماوته . قال : وخفت أن
 ينالني ما قال المنادي أنه قتول لمواليه .
 قال : فجئت به إلى حداد ، فقلت له :
 ضع بيدي ويده مصكة (مغلاق) وثيقة .
 قال : وقلت : والله لا نزال هكذا إلى بغداد .
 وخرجت من الكوفة أمشي ويمشي لا يتهايا
 لنا الركوب من أجل المصكة ، حتى وافينا بريقيا .
 قال : فنمنا في الخان على تعب .
 قال : فما شعرت إلا بوثة الأسد فوق الغلام .
 قال : فأخذه يحره ، ويجرني معه بالمصكة .
 قال : فذكرت سكيناً في خفي صغيرة ،
 فأخرجتها ، فحزرت يده ، فبقيت في المصكة ،
 ومضى به الأسد ، ثم نزع المصكة ، ودفنت
 يده^(١) .

(١) المجلس الصالح : ٢٣٦/٢ .

مداخل الضعف على هذه القصة كثيرة،
ولكن التفكير فيها، وتعدادها، وتحليلها،
يضيع لذة القصة، ولهذا سوف نعتبرها أو جزءاً
منها خيلاً، درج عليه أصحاب القصص في
تلك الأيام؛ ويكفي أن نلاحظ أن الراوي لم
يذكر اسم التاجر، وهو أول مداخل الضعف!

رئيس الحكمة^(١)

رئيس الحكمة هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - آتاه الله منها ما استفاد منه قولاً وعملاً؛ عنده صفاء ذهن، ودقة ملاحظة، وسرعة تصرف، وحزم لا يخالطه تراخ، وعزم لا يحد منه توان، إن قال فعل، وإن فعل شفى؛ ذهنه في عمل ليل نهار، لا يعطيه إجازة، ولا يمنحه راحة؛ يحلل ما يمر أمامه، ويتدبر فيما يبصره أو يسمعه؛ له معرفة بأنفس الناس، لا يُخدع ولا يُخدع؛ نظرتة تتخلل حواجز الابتسامات، وتخرق العبوس، التصنع لا يعجبه، والتكلف عدوه.

حذر فيما قد يطمئن إليه غيره، لا تخدعه المظاهر، ويغوص على السر، ويستنبط الحق؛ خير من يعالج الظواهر، فإذا كانت بدء تغيير

(١) المجلة العربية: رمضان، ١٤١٨ هـ.

في المجتمع تصدى لها بما يؤكد أنها تكون في
المسار الذي ينفع المسلمين .

عمر خير من استفاد أثناء حكمه من استشارة
أهل الرأي ، وأهل الخبرة ؛ أثبت أنه إداري من
الطراز الأول ، في أدائه عمله ، وفي اختيار الرجال ،
وفي قيادة عجلة الحكم أثناء التبدل الاجتماعي
في البيئة الجديدة ، التي بدأت تغطي فيها عناصر
أجنبية على الجنس العربي ، وبدأت تفد عادات
وتقاليد غريبة عليه ، فكان يرقب الأمور وكأنه
ربان سفينة ، تمر بشعاب من المرجان المخيفة .

مجتمعه الجديد جعله يلهث ليل نهار ، يتابع
الأمور فيوجه ، ويعدل ، ويعاقب ؛ درته في يده ،
وعينه يقظة ، ولسانه فصيح ، يُغذيه فكر نير ،
فيه من القدرة على الإقناع ما يضمن النتيجة ،
ويأتي بالمقصود ، ويوصل إلى الهدف .

كان - رضي الله عنه - لا يأخذ بالظنه ، ولا يتوانى

في إعطاء الحق حتى من نفسه ، التي لم يوفرها
في كبيرة ولا صغيرة ؛ ولعله أقرب أن يوصف
بأنه يظلم نفسه ، لأنه يريد أن يطمئن أنها لم
تغلبه ؛ يمنعها عن أن تزل في الملابس ، ويوقفها
عن أن تتعدى الحد في المأكل ؛ هو يقظ دائم
تجاهها ، لأنه يعرف أن المزالق في هذا المجال
كثيرة وسهلة .

أُحِبُّ الناس وها بوه ، وقدروه واحترموه ، لأنهم
وجدوا فيه الرجل الذي لا يحابي ولا يداجي ،
الناس عنده سواسية كأسنان المشط ، لا يُفَضِّل
أحداً على أحد في الحق ؛ حَمَى الدين من كثير من
الأمور ، التي كادت أن تزحف إلى صفوفه ،
وأبان ما خشي أن يكون فيه غموض مع مرور
الأيام ، وسن سنناً حسنة ، حمدها من جاء بعده
من الحكام ، سواء كان ذلك في المدينة ، أو في
البلدان المفتوحة ، وما حكمه عن الأراضي

المفتوحة ، وإبقائها للدولة بعيد عن الأذهان .

كان يحب - رضي الله عنه - المداولات الفكرية ، وكان يبدوها أحياناً ، يسأل ، ويستفسر ، خاصة إذا كان عن أمر ناجح ، يريد أن يعرف سر النجاح فيه ، فعَبَسَ ، القبيلة المشهورة بعنترها ، يسأل أحد رجالها عن سر نجاحهم في الحروب ، وهو لا يسأل عبثاً ، أو إزجاءً للوقت ، ولا حب استطلاع ، ولكن لعل في هذا ما يفيد جيوش المسلمين ؛ له إلمام بارز بالشعر والأدب ، يساهم في تقرير الحقائق النقدية حياله ، في بعض ما يتطرق إليه .

في مَثَل من أمثلة بحثه في الفكر ، ودقة العلم يُروى النص التالي ، وفيه يتجلى فكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعمق نظره ، وغوصه على المعاني الدقيقة الخبيئة ، والصور البديعة ؛ هذا أمر همه في حياته اليومية ، ففكر فيه ،

وفكر، وتدبر وتبصر، فوصل إلى ما اطمأن
إلى سلامته، فجاء يزجيه للناس، والرواية
عن الزهري يقول فيها:

«إن عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - قال
لأصحابه:

ما تقولون في الرجل لا يحضره أحياناً ذهنه،
ولا عقله، ولا حفظه؛ وأحياناً يحضره ذهنه
وعقله؟

قالوا: ما ندري، يا أمير المؤمنين.
قال: إن للقلب طخاءاً (الغشاء)، كطخاء
القمر، فإذا غشي ذلك القلب، ذهب ذهنه وعقله
وحفظه؛ فإذا تجلى عن قلبه أتاه ذهنه وعقله
وحفظه»^(١).

(١) الاشراف: ١٠٤.

العلم^(١)

العلم نور العقل ، ومشذب الطبائع ؛ للمتصف به مقامه ، وللمتحلي به منزلته ؛ فضله واضح ، وفائده ملموسة ؛ يسعى إليه من عرف قدره ، ويتبع مساقط قطره من قدر قيمته ، وابتغى فضله وفائده ؛ من اتسم به تميز ، ومن تحلى به جمل ، ومن تدثر به ارتقى وعلا ؛ عن طريقه تمهد السبل ، ويتغلب على الصعوبات ، وبسبيله يوصل إلى الأهداف ، وتبلغ الغايات ؛ وهل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون ؟ !

ولقد اهتم الإسلام بالعلم ، ونزلت أول سورة في القرآن حاوية على العلم ، والحث على القراءة والتعليم ، وهذا عِلْمٌ يرفرف على سارية عالية ، بلسان فصيح ، يؤكد أن العلم في أعلى منزلة عند الإسلام ، وهو حلية المسلم الحقّة ،

(١) المجلة العربية : شوال ، ١٤١٨ هـ .

يزهو بلبسها ، وتمتلىء روحه بما فيها من ضياء
وبهجة ؛ وعن طريق العلم تفتح أبواب يدلف
منها الإنسان إلى ربوع المعرفة ، ليتدبر فيما
حوله ، ويسبر كنه ما في الوجود ، مما أودعه الله
في مخلوقاته ، إنساناً أو حيواناً أو جماداً ؛ على
الأرض كان أو في أفلاك السماء ؛ ليستحق المنزلة
الرفيعة التي ميزه الله بها عن سائر مخلوقاته .

والعلم وطلبه ، والحث على متابعة أوطانه ،
قربت أو بعدت ، جاء من أبرز ما يحرص عليه
المسلم ، فالعلم يُطلب ولو في الصين ؛ والأئمة
والعلماء قاموا برحلات قطعوا فيها أميالاً
وأميالاً ليسمعوا حديثاً ، أو ليصححوا حديثاً ،
أو ليقارنوا حديثاً بحديث ؛ ولم تمتلىء أجسامهم
بالتعب ، وإنما امتلأت نفوسهم بالرضى ،
وأرواحهم بالسعادة ، وهم يحصلون على
مبتغاهم ، أو يُحققون ، فيسرون بالنية التي

أبدوها ، والجهد الذي بذلوه .

وأخذ ديوان واحد من دواوين الشعر ، يُري
إلى أي مدى كان العلم شغلهم الشاغل في زمن
الإسلام الأول : زمن تثبيت العقيدة ، ونشر
المبادئ السامية ، وهذا هو الشافعي ، وهو خير
عالم ، طلب العلم فأدركه ، ونشره فعممه ؛
ولن يكون هذا الحيز المعطى لهذه المقالة يسمح
إلا ببعض نماذج مما قاله .

يحث الشافعي على التعلم ، والصبر على
التعب فيه ، ويحذر من التراخي ، مما قد يربط
العمل ، ويوصل إلى الجهل ، فيقول :

«أصبر على مُرّ الجفا من معلم
فإن رسوب العلم في نقراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه
 فكبر عليه أربعاً لوفاته
 وذات الفتى - والله - بالعلم والتقوى
 إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته»^(١)
 ويقول في شرف العلم:
 «العلم مغرس كل فخر فافتخر
 واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
 واعلم بأن العلم ليس يناله
 من همه في مطعم أو ملبس
 إلا أخو العلم الذي يُعنى به
 في حالته عارياً أو مكتسي
 فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً
 واهجر له طيب الرقاد وعبس
 فلعل يوماً إن حضرت بمجلس
 كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس»^(٢)

(١) ديوان الشافعي : ٥٩ .

(٢) ديوان الشافعي : ٨٧ .

ومن الأبيات المشهورة، والطلاب يعرفونها
منذ نعومة أظفارهم قوله :

«شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي»^(١)

والعلم على لسانه - رحمه الله - ومن الأبيات
المشهورة في هذا قوله :

«علمي معي حيث ما يمت يتبعني
قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق»^(٢)

ومن أشهر الأبيات في العلم قوله ، وهي
أبيات يتدئ بها الطلاب الصغار في كتاب

(١) ديوان الشافعي : ٨٨ .

(٢) ديوان الشافعي : ١٠٠ .

المطالعة في أوائل سنوات المرحلة الابتدائية :

«تعلم فليس المرء يولد عالماً
وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً
كبير إذا ردت إليه المحافل»^(١)

ويقول مشيراً إلى التواضع تجاه العلم :
«كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهلي»^(٢)

وله أبيات في حلاوة العلم : (ص ٩٧) ،
وأخرى في مجد العلم : (ص ١١٠) ، وثالثة في
فضل العلم : (ص ١١٦) ، ورابعة في كيف ينال
العلم : (ص ١١٦) ، وهدى العلم : (ص ١١٢) ،

(١) ديوان الشافعي : ١٠٥ .

(٢) ديوان الشافعي : ١٠٨ .

ومداخل العلم: (ص ١٢٣)، وأفضل العلوم:
(ص ١٢٣)، فمن أراد الاستزادة ففيها المستزاد.



أعزة هي أم إهانة^(١)

الأدب العربي مليء بالحكم شعراً أو نثراً، بعضها يصف أمراً حادثاً، أو صفة واقعة، وبعضها ينبه إلى خطة سير للمستقبل، وبعضها يضع إطاراً للسير في هذه الحياة عموماً.

ومما اختلف الناس فيه التواضع، ودرجات إتيانه، والفرق بين ما هو مطلوب، وما هو متعد الحدود، وعند بعض الناس الفرق بين المنزلتين دقيق، وليس كل الناس يستطيع أن يضع الحد الصحيح لهذا أو ذاك؛ فقد يتواضع المرء إلى حد الابتذال، فيضيع الهدف، وتقل الفائدة المتوخاة من العمل الذي أريد به أن يؤدي حق التواضع؛ وقد يقل التواضع بحيث يدخل المرء حيز الكبرياء والغطرسة، وهما رذيلتان لم يكن فيهما خير لمن يتصف بهما.

(١) المجلة العربية: ذو القعدة، ١٤١٨ هـ.

وقد جاء الانتقاد لأناس ظن مراقبوهم أنهم
أهدروا كرامتهم، وأهانوا عزتهم، بتصرف
ما كان لهم أن يأتوه، وعمل ما كان لهم أن
يرتكبوه؛ وكان عليهم أن يرفعوا بأنفسهم
عنه، وأن يبرؤ أنفسهم من الاتصاف به؛ ثم
يتبين أن من انتقدوا على تواضعهم، وما بدا من
إهانة أنفسهم، أن لهم رأياً في هذا الأمر، لا يخلو
من حكمة، ولم يقصر عنه التفكير السليم،
ولا جاء ارتجالاً، ولا أقدم عليه من أقدم دون
روية؛ بل سبقه تفكير عميق، وتدبر وتبصر.

وقد كثر انتقاد بعض الناس لبعض العلماء
أو كبار رجال القبائل، وجلوسهم عند باب
الحكام في انتظار الاذن لهم بالدخول، واعتبر
المنتقدون أن هؤلاء العلماء، وهؤلاء الشيوخ
والرؤساء، قد أهانوا أنفسهم، وأهدروا كرامتهم،
وأذلوا عزتهم، بعملهم هذا؛ وكان الرد دائماً

أنهم أهانوا أنفسهم بهذه الصورة ليكرموها بصورة أوفى، وأهانوها بصفة محدودة، ليعفوها من إهانة أكبر، وثبت أن قولهم هذا صحيح.

فالعالم الذي وقف ساعات ينتظر الاذن اليوم، لم يحتاج إلى ذلك في اليوم التالي، وإنما أدخل فوراً؛ وعندما دخل تسبب في إقناع الحاكم بأمر أزال فيه بؤساً عن شقي، وقضى فيه حاجة لمحتاج، وأدخل سروراً على حزين، ورفع ظلاماً عن مظلوم، أو جلب نفعاً، ودفع ضرراً؛ ولم ينقص من جسمه شيء، ولم يقصر من عمره زمن، وصار له مكان عند الحاكم منه ينطلق لعمل ما يفيد.

وكذلك شيخ القبيلة ورئيسها بتواضعه للحاكم يأتيه التقدير، وتُرى له هذه الفضيلة، فيسمع رأيه، ويقدر سعيه؛ وتتاح له فرصة يدفع بها إلى الأمام حاجة قومه وقت الرخاء

والخصب ، ويكون له دالة وقت القحط والجذب ؛
ولو بقي بعيداً نافعاً ريشه مثل الطاووس ، مقدراً
نفسه أكثر مما يظنه الناس فيه ، لنسي وذكر غيره ،
وتجوهل وعرف سواه .

وقد روي عن الشافعي بيت حكيم في هذا
المعنى ، أدلى - رحمه الله - فيه بدلوه ، والشافعي
عرف في أشعاره بالحكمة ، والموعظة الحسنة ،
وفي ذلك يقول :

أهين لهم نفسي وأكرمها بهم
ولا تكرم النفس التي لا تهينها^(١)

(١) ديوان الشافعي : ١٢٤ و ١١٧ .

الوجأ في العنق! (١)

لا أدري مدى صحة الحديث الذي ساقه صاحب كتاب «الجلس الصالح الكافي»، والأنيس الناصح الشافي» أبو الفرج بن زكريا النهرواني الجريري؛ فإذا كان صحيحاً، فهو طريف؛ لأنه يبين أن نساء الأمس مثل نساء أي زمن، وأن دلال المرأة على زوجها يمكن أن يساق في كل عصر.

إذا صح الحديث (٢) ففيه صورة لعسرة المعيشة التي مر بها الرسول ﷺ وما عاناه من شظف العيش، وهذا ثابت من أحاديث صحيحة، حتى كان يحزم الحصا على بطنه، ليسكت الجوع، ومر عليه زمن ليس بالقصير، وسنوات عديدة، والعيش شحيح بالنسبة له، ولكثير من الصحابة.

(١) المجلة العربية: ذو الحجة، ١٤١٨ هـ.

(٢) قيل إنه في صحيح مسلم: باب الطلاق: ٢٩، ولم أجده. وهو في مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٨، مع اختلاف في الرواة، وبعض النص مما لا يغير المعنى.

والجانب الطريف في القصة التي سوف أسوقها
ما كان ليكون كذلك لو أنه جاء من زوجة واحدة ،
ولكن طرافته أنه جاء من عدة زوجات ، فهل
كن متفقات على أن يتعاضدن ، وهل كن كذلك
جميعاً ، أو بعضهن ؛ ومن المؤكد أن عائشة
كانت إحداهن ، وكذلك حفصة ، وهذا دل
عليه النص ؛ أو أن إحداهن أثارت الأمر ،
فتبعها غيرها ؛ يبقى الأمر غير واضح إلا إذا
كان هناك حديث فيه تفصيل أكثر .

والجميل صبره - صلوات الله عليه وسلامه -
على موقفهن ، وهن يطلبن ما لا يقدر عليه ،
ويُعدن ويكررن ؛ ولا بد أن هناك وسائل إقناع
قد استخدمت ، وهو منصت ، ولا أحد يعلم
ما كان يدور في ذهنه ، إلا أن علامات التأثير من
الطلب ، وعدم القدرة على الإجابة واضحة
على محياه ﷺ .

ومن النص يتبين الفرق بين نظرة الابنة لأبيها ،
ونظرة الزوجة لزوجها ، والحياء بين الابنة وأبيها ،
والجراة والدالة على الزوج ؛ ولعل لمعاملته -
صلوات الله عليه - لزوجاته أثر في جرأتهن عليه ،
وإلحاحهن فيما يطلبنه ؛ وهو رئيس القوم ،
والمتوقع ألا تكون أي زوجة في المدينة خير منهن
في لبسها ، وأكلها ، وحليها ، إلا إنه لم يكن رئيس
دنيا ، وإنما هو نبي ، وهذا ما يحتجن أن يتذكرنه ،
وهذا ما ذكرهن به - إذا صح الحديث - أبو بكر
وعمر ، والنص للحديث كما جاء به الجريري
كمايلي :

«حدثنا أحمد بن سليمان بن داوود ، أبو
عبدالله الطوسي ، حدثنا الزبير بن بكار ، قال :
حدثني عبد الجبار بن سعيد المساحقي ، حدثنا
عبد الرحمن ابن أبي الزناد ، عن موسى بن عقبة ،
عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبيد الله ، قال :

استأذن أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - فوجد الناس محجوبين ببابه ، ولم يؤذن لأحد منهم ؛ فأذن لأبي بكر فدخل ؛ ثم أقبل عمر بن الخطاب ، فاستأذن ، فأذن له ؛ فوجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جالساً ، وحوله نساؤه ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واجم .

فقال عمر : والله لأما زحني النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولأقولن شيئاً يضحكه .

فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة سألتني أنفاً النفقة ، فقامت إليها فوجأت في عنقها .

فضحك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال : فهن حولي كما ترى يسألنني النفقة .

قال : فقام أبو بكر إلى عائشة ، فوجأ في عنقها .

وقام عمر إلى حفصة فوجأ في عنقها ، وكلاهما
يقول :

لِمَ تسألن رسول الله - صلى الله عليه وآله
وسلم - ما ليس عنده .

فقلن : والله لا نسأل رسول الله - صلى الله
عليه وآله وسلم - أبداً ما ليس عنده» .^(١)

(١) المجلس الصالح : ٩٩/٢ .

المقالات المنشورة
في مجلة الفيصل

العقل المنير^(١)

ما دخل العقل المنير في أمرٍ إلا زانه، ولا غاب عنه إلا شأنه، فالعقل جوهرة ثمينة، يهبها الله لمن يشاء من عباده، فتكون، بإذن الله، خيرَ هادٍ، وأصلح قائد، تنير المظلم، وتقيم المعوج، وتعديل المائل، وتصلح الفاسد، بها يسعد الإنسان، وبدونها يشقى، إلا من تداركه الله، هذه الجوهرة زينة في الدنيا، موصلة إلى خير في الآخرة، من قدرها، وحافظ عليها، ونماها، أوصلته إلى بر الأمان، وأدخلته في رياضٍ غناء، من النمو والمتعة، ومن قدرها حق قدرها حفت به عنايتها، وحصنته قلاعها؛ بإذن من الله، وعطف ورحمة.

وقد سجل التاريخ في طياته لكثير من الذين جباهم الله العقل، أخباراً منيرة، وقصصاً مذهشة

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٤٣ .

ممتعة، صارت مع الزمن تحتذى، ومع مرور
الوقت يحمدها من جربها، وعمل بها.

والعقل ليس وقفاً على طبقة من الناس دون
طبقة، ولا على جنس دون جنس، ولا على الكبير
دون الصغير، ولا على الرجل دون المرأة، ولا على
الطويل دون القصير، ولا على الأبيض دون
الأسود، هي هبة الله لمن أراد الله أن يسير في هذه
الحياة، وبيده سراج منير، ينير له ما أظلم من
الطريق، ويقوده في سبل الحياة المختلفة بهدي
وبصيرة.

وسوف نسوق هنا قصة من التراث العربي
المضيء، تري صفاء ذهن ابن البادية، العربي
القح، الذي لم تفسد دمه البطنة، ولم ترجم
رواسب الدهون على خلايا مُخِّه، بشهادة أحد
ملوك الفرس النابيين:

خرج أبو سفيان في جماعة من قريش وثقيف،

يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم ، فلما ساروا
ثلاثاً جمعهم أبو سفيان ، فقال :

إنّا من مسيرنا هذا على خطر ، إن قدومنا
على ملك لم يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست
بلادنا بمتجر ، ولكن أيكم يذهب بالغير ،
فإن أصيب فنحن براء من دمه ، وإن يغنم فله
نصف الربح ؟

فقال غيلان بن سلمة الثقفي : دعوني إذن .
فدخل الوادي يضرب فروع الشجر ، وهو
يقول :

فَلَوْ رَأَيْتُ أَبُو غَيْلَانَ إِذْ حَسَرَتْ
عَنِّي الْأُمُورُ إِلَى أَمْرِ لَهُ طَبَقُ
لَقَالَ رُغْبٌ وَرُهْبٌ يَجْمَعَانِ مَعًا
حُبَّ الْحَيَاةِ وَهُوَ الْفَضْلُ وَالشَّقَقُ
إِمَّا تَشَفَّ عَلَى مَجْدٍ وَتَكْرُمَةٍ
أَوْ أُسْوَةٌ لَكَ فَيَمُنْ يَهْلِكُ الْوَرَقُ

ثم قال : أنا صاحبكم ، فخرج بالعر ، فلما
قدم بلاد كسرى ، وكان أبيض طويلاً جعداً ،
فتحلق ، ولبس ثوبين أصفرين ، وشهر أمره ؛
وقعد بباب كسرى ، حتى أذن له ، فدخل ،
وبينهما شباك من ذهب .

فقال له الترجمان : يقول لك الملك ما أدخلك
بلادى بغير إذنى ؟

قال : لست من أهل عداوة لك ، ولم آتك
جاسوساً ، وإنما حملت تجارة ، فإن أردتها فلك ،
وإن كرهتها رددتها .

قال : فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى ،
فخرّ ساجداً .

فقال الترجمان : يقول لك الملك :
ما أسجدك ؟

قال : سمعت صوتاً مرتفعاً حيث لا ترتفع
الأصوات ، فظننته صوت الملك ، فسجدت .

قال : فشكر له ذلك ، وأمر له بمرفقة (وسادة
أو مخدة) ، توضع تحته ؛ فرأى عليها صورة ،
فوضعها على رأسه .

قال : فاستخفه عند نفسه ، وقال :

إنما بعثنا بها إليك ، لتقعد عليها .

قال : قد علمت ، ولكني رأيت عليها صورة
الملك ، فوضعتها على أكرم أعضائي .

قال : ما طعامك في بلادك ؟

قال : الخبز .

قال : هذا عقل الخبز .

ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها ؛
وبعث له من بنى له أطما (حصونا) بالطائف ،
فكان أول أطم بالطائف» .^(١)

إن غيلان عندما قبل المهمة قبلها من عقل ،
وشجاعة ، وقد وطم نفسه على أمر من أمرين :

(١) كتاب لطف التدبير : ٧١ .

إما الريح العظيم، أو الموت المحقق، كما قال
في شعره، وهون الموت على نفسه، بأنه مآل
كل حي. وقد صدق ظنه بعقله، فقد أوصله
إلى الريح العظيم.

لقد أخذ غيلان الأمر خطوة خطوة، وكل
خطوة كمن وراءها عقل، درس الموقف الذي
هو فيه، أوجب في كل منها عند البدء الدهشة،
ثم أردفه بتفسير بديع، نال الإعجاب، وجاء في
النهاية بالمكافأة الجزلة؛ وقد انفرد غيلان بعطف
الملك الفارسي، فعاد إلى قومه يجر رداء مجد،
ويختال في رداء عز؛ ولا بد أن الأمر لم يقتصر
بينهما على هذه المحادثة بل تعداها إلى محادثات
وجلسات، كل واحدة زادت من قيمة الرجل
عند هذا الملك.

والملوك عادة يحبون جمع التحف النادرة،
وليس هناك تحفة أغلى من شخص مبدع في جانب

من جوانب الحياة، ومتميز بميزة ينفرد بها على
غيره، يجد الملك أن فيها مفاخرة، فالفصيح
تحفة نادرة، والشاعر المجيد تحفة نادرة، والفارس
الشجاع تحفة نادرة، والعاقل الذكي الحاذق
تحفة نادرة، وقد كانها غيلان.



رزق مكتوب^(١)

عندما يريد الله - سبحانه وتعالى - لأحد رزقاً، لم يحسب حسابه، يسهل أسبابه، وتأتي الأسباب من حيث لا يدري بها المتسبب، ولا المتسبب له؛ وما يأتي في هذا الباب لا يكاد يحصى، وأنواعه متعددة، وبعضه مما يهمننا هنا، يأتي بصفة «مقلب»، يقع فيه شخص دون أن يقصد.

والمقابل متنوعة، وأصدقها نتيجة، وأنجحها غاية، تلك التي يُخطط لها، ويُعدّلها إعداداً متقناً، وتأتي من أناس حباهم الله الذكاء، والفطنة، وتنصبّ جهودهم في هذا السبيل على أناس عرفوا بالغفلة، أو انتهزت تجاههم فرصة مواتية، اهتبلها مهتبلها، وأحسن توجيه سهمه إلى الهدف الذي خطط له، والمرمى الذي قصده.

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٤٤ .

«والمقابل» يُدخل إليها من جانب النفس ،
فإن كان المرء طماعاً وشرهاً ، دُخل إليه من هذا
الباب ، وإذا كان بخيلاً صيد بسهولة من جانب
البخل ، وإذا كان ذا هواية ، شغف بها ، واستولت
على تفكيره جاءه المقلب في هذه الزاوية ، وقد
لا يرتبط ذلك بزمن ، ولا يقتصر على مكان ،
ولكنها سانحة تقتنص ، أو خطة تدبر .

وبعض المقابل يرتبط بزمن ، فقد يرتبط
بالأعياد ، أو بحفلات الأعراس ، أو الطهار ،
أو القدوم من سفر ، ومن أشهر ما يرتبط بوقت
«كذبة إبريل» ، وهي عادة غربيّة ، يعمد الناس
في أول يوم من شهر إبريل ، فيكذب بعضهم
على بعض ، كذبة يؤمل أن تكون كذبة بيضاء ،
لا تحدث أضراراً ، ولا ينتج عنها أذى كثير ،
وتنتهي بنهاية ذلك اليوم ، فإذا لم يكتشفها من
ألقيت عليه ، كشفها له في آخر النهار من ألقاها .

ويأتي من هذه الكذبة أحياناً ضرر بالغ ، إذا أقدم عليها من لا يعرف أصولها ، ومن قد يغيره فكر من الأفكار ، فينساق خلفه ، دون أن يحسب حساباً للعواقب ، وما يترتب على عمله ، أو قوله ، من تبعات . وكذبة إبريل ، على هذا ، إما أن تنتهي بابتسامة ، أو بدمعة .

واشتهر في التراث الإسلامي العربي أناس بأنهم حاذقون في هذه المقالب ، ومنهم نعيمان ، وكان في زمن الرسول ﷺ ويقال إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يتسم لبعض ما يأتي به نعيمان في هذا السبيل ، بل إنه لم يتورع أن يكون بعض ما جاء منه ، موجهاً له - صلوات الله عليه وسلامه - مثل شرائه عسلاً ، وإرساله ببائعه إلى بيت الرسول ﷺ مما اضطره إلى دفع ثمنه .

واشتهر في كل عصر من العصور الإسلامية

رجل ، عرف بطرافة ما يأتي منه تجاه الآخرين
من مقابل ، وكان بعض الحكام يباركها ، بل
يحرص عليها ، لأنه يعتبر أنها جزء من بهجة
بلاط الحكم ، وجلسائه ؛ وكان بعضها يغسل
الإحراج فيها ، أو العنت ، أو العناء ، بمبلغ
من المال مجزٍ ، مما يجعل من وقع عليه «المقلب»
يتمنى تكراره !

وفي زمننا زاد الاقبال على هذا النوع من
الفكاهة ، وعرف عن بعضهم تخصصه في هذا ،
ومقدرته على صنع مقلب ، في أي لحظة يريد ،
أو يراد منه ، مع توجيهه إلى من يشاء ، كائناً
من كان ، في المقام ، أو المرتبة ؛ وقد سجل في
تاريخ مصر الحديث كثير من هذا ، وعرف
أناس به ، وتفننوا فيه ، وأصبح شبه وقف عليهم .
ولو جمع ما جاء في هذا المجال من أخبار عن
هذا الجانب من حياة المجتمع ، لكان أدباً

غزيراً؛ يكشف عن قدرة ذهنية ، وملكة فائقة ،
تستحق أن يدرس عنها مجاري الفكر فيها ،
والمؤهلات الفطرية لها ، أو المكتسبة ؛ وهذا
جانب لا يزاحمه اليوم إلا ملكة «النكتة» في بعض
المجتمعات العربية .

هذا جانب من الجوانب في هذا الأمر ، وهناك
جانب آخر ، وهو ما يوقعه الإنسان نفسه بنفسه ،
دون أن يدري ، حتى «تقع الفاس في الراس»
كما يقول المثل العامي ؛ وهذا النوع كثير ، يأتي
نتيجة غفلة الإنسان عن جانب من جوانب
الإجراء الذي اتخذه ، أو القول الذي قاله ؛ يقوله
دون تبصر ، ودون إدارة له في الذهن ، لأنه
يظن أنه في مأمن ، ولا يأتي في ذهنه أن في قوله
خللاً ، حتى يتبين له مؤخراً ذلك الخلل ، حينئذ
يدرك تقصيره ، فيتقبل الخسارة التي سببها
لنفسه ، أو الموقف المخرج الذي أوقع نفسه

فيه ؛ إذ لا أحد غيره يلام على ما حدث ؛ وفي النص الآتي من التراث ما يُري حالة من هذه الحالات :

«أراد هارون الرشيد الخروج إلى القاطول (نهر في سامرا) فقال يحيى ، لرجاء بن عبدالعزیز - وكان على نفقاته :

ما عند وكلاتنا من المال ؟

فقال : سبع مئة ألف درهم .

قال : فَتَسَلَّمْهَا يَا رَجَاء .

فلما كان من الغد ، غدا إليه رجاء ، فقبل يده ، وعنده منصور بن زياد ؛ فلما خرج قال يحيى بن خالد ، لمنصور :

قد توهم الرجل أنا قد وهبنا له المال ، وإنما أمرناه بتحصيله عنده ، لحاجتنا إليه .

فقال منصور : أنا أعلمه ذلك .

قال : إذا يقول لك : قل له يقبل يدي كما

قبلت يده، فلا تقل له شيئاً، وقد تركت المال
له»^(١).



(١) البصائر والذخائر: ٢١/٧.

تأثير واسع^(١)

انداح العرب يمينا ويسارا من صحرائهم مع ظهور الإسلام، وبدء الفتوحات، وأبعدوا إلى حدود الصين، فاتصلوا بالحضارات القديمة، والديانات المختلفة، والعادات والتقاليد التي كانت سائدة في تلك البلدان، فرأوا من ذلك أنواعا، وشاهدوا غرائب وعجائب؛ وكان لابد أن يتأثروا مع الزمن بذلك، ويظهر بعض ذلك في أفعالهم، وأقوالهم، وتصرفاتهم ولباسهم.

وما يلمس الجوانب الروحية كان أقرب للاقتباس، وأحرى بالتأثير؛ ودخل المجتمع في العصر العباسي، نتيجة الترجمة، ونقل الأفكار، شيء كثير، جزء منه في الدين بعد أن ألبس ثوب الإسلام، وصبغ صبغته، وأصبح لا يميز عما

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٤٥ .

جاء به الإسلام إلا في بعض الجوانب ، مثل
المغالاة في العبادة ، والانقطاع عن الدنيا ، كما
كان يفعل الهنود في بعض مللهم .

هذا أدى إلى التصدي لمثل هذه الأمور من
علماء أوقفوا أنفسهم على نقض مثل هذا ، ومن
الأمور التي ظهرت وانتشرت بسبب التأثير
الأجنبي التصوف ، وقد انتشر في المحيط العربي ،
ساذجاً في أول الأمر ، لا يعدو أن يكون انقطاعاً
للعبادة ، وتقشفاً في المأكل والملبس ؛ ثم تطور
إلى مدارس مختلفة ، وانتشر في البلدان الإسلامية ؛
وأصبح عنصر فرقة بين المسلمين ، زاد فئاتهم
فئات ، وطوائفهم طوائف ، ودخل فيه من
الطقوس غير الإسلامية ما جعل بعضه يدخل
في مظهر السخرية والهزاء مما يراه فيه الإنسان ؛
ولا يزال قائماً ، وله متعصبون ؛ وقوّاه أن أصبح
أداة سياسة في بعض البلدان ؛ والغريب ، أو

لعله ليس غريباً عند التمعن ، أنه انضم إليه
شباب متعلمون ، عصبية ، أو سياسة ، ولهم
من هذا مكسب بطريق أو آخر ؛ وهذا نتيجة
التعليم الضحل ، الذي لم يحمهم من الوقوع في
شباك الصيادين المتربصين ، وإذا لم يكن في
بلادنا أثر ظاهر لهذا ، فهو في بعض البلدان
العربية ، ينخر في كيان أهلها ، وله مواسم
تذكر الناس به ، وتشدهم إليه .

فتأثير الديانات التي كانت سائدة في البلدان
التي فتحت كان كبيراً ؛ وفي بعض الأحيان يأتي
ظاهراً ، وتسهل مقاومته ، أو تهذيبه ، وأحياناً
خفياً ، يدخل في المجتمع تدريجاً ، ويستشري
شره دون أن يشعر به الناس ، وعندما يتضح ،
وتبدأ أضراره ، يكون قد عمق جذوره ، وأرسى
قواعده ، ودق إسفينه ، ويحتاج إلى قوة خارقة ،
لاقتلاعه ، وإزالة أثره .

والمتبع لما ظهر في العصر العباسي من أفكار
الإلحاد، والنبو الفكري، وما وقف في وجه هذا
من مقاومة صادقة، تصدت له بقوة من الأفكار
الإسلامية الصافية، وبإيمان راسخ، وعقيدة
رصينة، يدرك قوة البهجة، التي تعرض لها
المجتمع حينئذ، والجهد الموفق الذي وقف في
طريقها.

وحاول المصلحون المخلصون أن يبقوا
المجتمع الإسلامي في وضع متوازن، كما أراد
الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون - رضي الله
عنهم - فالدين الإسلامي مثلاً وزن الأمرين حق
الدنيا وحق الآخرة؛ فلا يزحف أحدهما على
حق الآخر؛ وفي هذا عمار الكون، وضمان
الأجر في الآخرة؛ وفي هذا سعادة الإنسان دنيا
وديناً، فالدين الإسلامي نبذ المغالاة، وحث على
الأمر الوسط، ولكن بعض الأديان، ولعله

اجتهاد من مصلحيها ، في ضوء فساد مجتمعهم ،
حثوا على الانقطاع للآخرة ، وترك الدنيا خلف
ظهرهم كلية ، فأخذوا في الوعظ ، وركزوا على
جوانب ، جاؤا فيها بإخافة مرعبة ، وهذا نموذج
لأحدها ، مما نقل من اللغة الهندية إلى اللغة
العربية :

«وفي كتاب للهند :

مثل الدنيا ، وآفات ، ومخاوفها ، والموت ،
والمعاد الذي إليه مصير الإنسان ، قال الحكيم :
وجدت مثلاً الدنيا ، والمغرور بالدنيا ، المملوءة
آفات ، مثلاً رجل ألجأه خوف إلى بئر ، تدلى فيها ،
وتعلق بغصنين نابتين على شفير البئر ؛ ووقعت
رجلاه على شيء ، فمدهما ، فنظر ، فإذا بحيات
أربع ، قد أطلعن رؤوسهن من جحورهن ،
ونظر إلى أسفل البئر ، فإذا بثعبان فاغر فاه نحوه ،
فرفع بصره إلى الغصن ، الذي يتعلق به ، فإذا

في أصله جردان: أبيض وأسود، يقرضان
الغصن دائبين، لا يفتران، فبينما هو مغتم
بنفسه، وابتغاء الحيلة في نجاته، إذ نظر، فإذا
بجانب منه جحر نحل، قد صنعن شيئاً من
عسل، فتطاعم منه، فوجد حلاوته، فشغلته
عن الفكر في أمره، والتماس النجاة لنفسه، ولم
يذكر أن رجله فوق أربع حيات، لا يدري متى
تساوره إحداهن؛ وأن الجرذين دائبان في قرض
الغصن، الذي يتعلق به؛ وإنيهما إذا قطعاه
وقع في لهوة التنين، ولم يزل غافلاً حتى هلك.

قال الحكيم:

فشبهت الدنيا المملوءة آفاتٍ وشروراً ومخاوف
بالبئر، وشبهت الأخلاط التي بني جسد الإنسان
عليها من المرّتين والبلغم والدم، بالحيات الأربع
وشبهت الحياة بالغصنين، اللذين تعلق بهما،
وشبهت الليل والنهار، ودورانهما، في أفناء

الأيام والأجيال، بالجرذين: الأبيض والأسود،
الذين يقرضان الغصن دائبين، لا يفتران؛
وشبهت الموت الذي لا بد منه بالتنين الفأغر فاه
وشبهت الذي يرى الإنسان ويسمع (ويطعم)
ويلمس، فيلهيه ذلك عن عاقبة أمره، وما إليه
مصيره، بالعسيلة التي تطاعمها»^(١).



(١) العقد الفريد: ٦٨/٣، وكليلة ودمنة: ٧٣.

نوع من الذكاء^(١)

الذكاء أنواع، ومن الصعب تحديد عدد أنواعه، لأنها تكاد تكون بعدد الأشخاص، وبعدها ما يأتي منهم من أفعال؛ وكل فعل فيه لمحة ذكاء فهو نوع قائم بذاته، وإن حكمت مجموعة من أنواع الذكاء قاعدة عامة؛ إلا أن ما يدخل تحتها يتعدد، وينقسم إلى أقسام.

وقد يحكم الذكاء المحيط الذي يعيش فيه الشخص، وقد تكون الحاكمة لذلك طبيعة الذكي، أو تربيته، أو تعليمه؛ وقد تكون التجارب العديدة التي تمر به في حياته الطويلة فيستفيد منها ذكاء، يتمثل في قدرته على الاستفادة مما مر به، للكسب، أو الخروج من مأزق، أو لربح سباق من نوع أو آخر؛ وإذا كانت الحاجة أم الاختراع، فالحاجة أم الذكاء، لأن الحاجة قد

(١) مجلة الفيصل: العدد ٢٤٦.

تجبر الإنسان على التفكير العميق ، وكد الذهن ،
والدأب ، لما يسد الحاجة ، ويقضي على العوز .

والحيل الناجحة عادة يكمن خلفها ذكاء ،
وقد يكون ذكاء مفرطاً ، يأتي بالهدف بطرق
مدهشة ، والمحتالون قد يعيدون الحيلة نفسها
على شخص بعينه ، وهذا قليل النجاح ، وقد
يختارون لها ضحية أخرى ، وغالباً تنجح الحيلة
أكثر من نجاحها في المرة الأولى ، لأنها في الثانية
جاءت بعد تجربة وتدريب .

ويستغرب الإنسان أحياناً كيف يهزم الذكاء
الذكاء ، وتتضارب أجزاءه ، فالذكي الذي
يكسب بالحيلة ، لو صرف ذكاءه في عمل ينتج
له ما يغنيه عن الاحتيال على الناس ، لكسب
بذلك ربحاً حلالاً ، تكمن الطمأنينة فيه ، ويستقر
الأمان ؛ والغرابة أن هذا الذكي المحتال لا ينصرف
ذكاؤه إلى هذا ، وكأن حب الاحتيال ، والكسب

عن طريقه ، داء يعشي ذكاءه ، فلا يرى العيب ،
الذي يراه أغبى الناس ، ومع ذلك يبقى إذا نجحت
حيلته ذكياً ، ضحك على غيره ، دون أن يكتشف
أمره ، وإن اكتشف جاء هذا الاكتشاف متأخراً .

وبعض أنواع الذكاء تأتي لصاحبها بربح
دائم ، وكسب مستمر ، يستغله طوال حياته ،
أو جزءاً كبيراً منها ، وبعضها يأتي ذكاءاً محدوداً
بأمر واحد ، منقطع في زمنه ، يلمع مثل البرق
في فائدته ثم يختفي ، في انتظار سحاب ينشأ وبرق
جديد .

وفي المجتمعات البدائية يأتي الذكاء بدائياً
ساذجاً لا تعقيد فيه ، ولا التواء ، وقد يراعي
جوانب نفسية ، يدخل منها ، وعن طريقها يصل
إلى الغاية ، ويمثل ذلك المشعوذون ، والسحرة ،
والدجالون . أما في زمننا هذا ، وفي مجتمعات
مثقفة سابقة ، فالأمر يختلف كثيراً ، يأتي الذكاء

معقداً، مركباً، ويحتاج إلى تمهيد، وتغطية جيدة،
وخدمة للأمر فائقة، قد تحتاج إلى مقدرة في
التمويه والتمثيل. وقد أحسن الحريري في
مقاماته في تعداد حيل السروجي، التي اتخذت
أنواعاً مبتكرة كان أبو زيد هذا يتفنن في تنويعها،
وتغيير المعالم فيها؛ وكانت من الحريري مقدرة
أدبية فائقة.

أما في زمننا فيكون محك الذكاء «الكمبيوتر»،
والدخول على البرامج، وإدخال آفات عليها،
وسرقة برامج، واللعب فيها كيف شاء المتقن
لهذا الأمر، وقد بدأت هذه الظواهر المخيفة
تقلق العاملين في هذا الحقل وغيره. ومع الزمن
يتوقع أن تزيد العسرة، وتزيد المقاومة، وسيبقى
الصراع مادام هناك ذكاء، ويقابله ذكاء.

وقد عانى العالم من ذكاء اللصوص،
والمجرمين، والحيل التي يأتون بها، والوسائل

التي يخترعونها لينجح عملهم المنحرف ؛ ولا
يجادل أحد في ذكائهم في هذا الجانب ، ولكن
ما يطفئ نوره أنه استخدم للإجرام والأذى ،
وكان بالإمكان أن يصرف للبناء والتشييد ،
ولكن المرض غالب على روح هؤلاء ، مما
لا يجعلهم يشبعون نفوسهم المظلمة إلا بأذى
الآخرين ، وأخذ تعبهم بهذه الطرق المنبوذة .

وفي تراثنا العربي حيل تدل على ذكاء مفرط ،
لمست جواد مختلفة في الحياة ، دون كثير منها ،
فكانت مثار الدهشة للقارئ ، ومصدر متعة ،
ومجال دراسة لدارس الاجتماع ، ليعرف ما
أوصلهم إلى هذا ، وما أثر عليهم في صغرهم ،
أو في حياتهم ، حتى يكون منهم ما كان .

وهنا مثل سوف نسوقه لذكاء جاء بنفع
عميم ، عن طريق حيلة متقنة ، لم يكن للضحية
مفر منها ، حتى لو عرف أنها حيلة ، لأن في يد

صاحبها إذا لم تنجح سلاح آخر ، وهو الحقيقة ،
والضحية تعيبه الحقيقة :

«قال الشعبي : حضرت مجلس زياد ، وحضره
رجل ، فقال :

أصلح الله الأمير ، إن لي حرمة ، أفأذكرها ؟
قال : هاتها .

قال : رأيتك في الطائف ، وأنت غُلَيْمٌ ، ذو
ذؤابة ، وقد أحاط بك جماعة من الغلمان ،
وأنت تركل هذا مرة برجلك ، وتنطح هذا مرة
برأسك ، وتكدم هذا مرة بأسنانك ، وكانوا
مرة ينثالون عليك ، وهذه حالتك وحالهم .
ومرة ينددون عنك ، وأنت تتبعهم ، حتى كاثروك ،
واستقوا عليك ، فجئت حتى أخرجتك من
بينهم وأنت سليم ، وكلهم جريح .

قال : صدقت ، أنت أنت ذاك الرجل ؟
قال : أنا ذاك .

قال : حاجتك ؟

قال : حاجة مثلي الغنى عن الطلب .

قال : يا غلام ، إعطه كل صفراء ، وبيضاء ،
عندك .

ونظر ، فإذا قيمة ما يملك في ذلك اليوم
أربعة وخمسون ألف درهم ، فأخذها ، وانصرف .
فقليل له ، بعد ذلك : أنت رأيت زياداً ، وهو
غلام ، بهذه الحال ؟

قال : إي والله ، لقد رأيته ، وقد اكتنفه صبيان
صغيران ، كأنهما من صغار المعز ، فلولا أدركته
لظننت أنهما يأتیان على نفسه» .^(١)

هذا ليس نفاقاً ، ولكنه ذكاء ، زياد يعلم أنه
كاذب ، ولكن ليس من صالحه أن يكذّبه ، وقد
مدحه مدحاً فائقاً ، فإن كذبه ، وأقر المادح هذا
بكذبه ، أصبح هذا وصمة في جبين زياد . لقد

(١) البصائر : ١٧٤ / ٩ .

سد عليه هذا الذكي المسارب ، ولم يترك إلا طريقاً
واحداً ، وهو طريق المال إلى جيبه !!



الألغاز وفهمها^(١)

الألغاز محك الأفكار ، وحلها دليل صفاء العقل ، ونباهة الذهن ؛ ومن يصوغها لابد أن يكون متميزاً في تفكيره ، بارعاً في صياغة أفكاره ، قادراً على قول شيء له ظاهر ، وله باطن ، يتراوح التفكير بينهما ، ويضيع في الصحراء التي تفصلهما .

والذي يفك الألغاز لابد له من الذكاء المفرط ، والمعرفة المغرقة ، واللمحة السريعة ، والنباهة الفائقة ، والتجربة العميقة ، التجربة عموماً ، والتجربة خاصة في اللغز الملقى ، ومعرفة عقل من ألقاه ، ومجرى تفكيره .

والعرب ، مثل بعض الأمم ، برعوا في الألغاز ، وتمرنوا عليها ، وأداموا ممارستها ، لا لهواً ولا لعباً ، ولكنها تفيدهم في مواقف حرجة ،

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٤٧ .

ومضايق خانقة ، وقد نفعت أناساً كثيرين ،
دُوّنت أخبارهم في كتب التاريخ والأدب ،
فكان منها ما يدهش ويعجب .

وهناك مواقف مهلكة لم ينقذ منها إلا الألغاز ،
ومن الألغاز ما هو مغرق في التعمية ، حتى لا
يظن الإنسان الساذج أن في الأمر لغزاً ، لإحكام
قتل حبال اللغز ، وشدة حبه ، بحيث يوهم
غير المقصود ، ويبقى المقصود حصناً مؤمناً ،
لا يعرف مدخله إلا من أوتي حكمة وعقلاً .

واللغز الذي سوف نسوقه فيه شيء من هذا ،
فقد أتقنه قائله ، ولكنه وقع على باقعة حله وفك
طلاسمه ، بسهولة ويسر ، وقد استطاع هذا من
منطلق متعدد الجوانب ، فهو قائد جيش ، يهتم
بكل صغيرة وكبيرة ، وموقعه من المسؤولية
تجعله يشك بكل شيء ، ولا يطمئن إليه إلا بعد
أن يفحصه فحصاً دقيقاً ، ويزيل عنه الشوائب ،

ويصل إلى كنهه ؛ ثم هناك حاسة الحاكم المتكوّنة
من نظراته للأمور ، ومعرفته بأنفس الناس ،
ومرامي أقوالهم ، وعدم التهاون فيما يبدونه ؛
وهو يعرف فيمن يضع اطمئنانه ، وفيمن يبقى
عليه شكه ، وهذا ما فعله مروان بن محمد ، آخر
خلفاء الأمويين .

مروان كان داهية من الدواهي ، إلا أنه جاء
بعد أن تفككت عرى الدولة ، ونخر السوس
في أجزائها ، وتمكن منها الداء ، ولم يعد بالإمكان
إيقافها على قدمها ؛ ومع هذا فقد بذل جهده ،
وأعطى كل ما يستطيع ، ولكن الحمل أثقل من
أن تحمله أكتافه .

واللغز أظهر مدى قوة عقل مروان بن محمد ،
وغوصه على مبهم الأمور ، وعرف ما لم يعرفه
غيره من المحيطين به ؛ وكان في هذا مثل مفسر
الأحلام الحاذق ، قارن بين أجزاء اللغز ، والحالة

التي هم عليها ، فما خاب في تفسيره ، وما نبا
سيفه في حدسه ، ولا طاش سهمه في تقديره ،
بل أصابت الضربة المفصل ، وكان الأمر كما
ظن ، بل كما تيقن ، والقصة هكذا :

« قيل لما حارب أهل حمص مروان بن محمد ،
وعليهم السمط ، وكان معاوية السكسكي ،
فارسُ أهل الشام ، معه ، فأسر مروان معاوية
السكسكي ، فقال :

دعني أكلم أهل حمص ، وأدعوهم إلى
طاعتك .

فأرسله مروان ، ووكل به من يحفظه .
فأتاهم ، فكلّمهم ، فشتموه من فوق السور ،
وشتموا مروان ؛ فقال لهم :
أما إذا أبيتم ، فأرسلوا إلي غلامي ميسرة
الأسود ، ولتكن معه ثيابي كلها .
ورجع إلى مروان الذين كانوا معه ، فقال لهم :

ماذا قال لهم؟
فأخبروه، فقال مروان :
أتدرون ما أراد؟
قالوا: لا .

قال : أمرهم (أن) يبيتونا، وقال لهم :
إذا أمسيتم ، فالبسوا سلاحكم ، واحملوا
على الميسرة .

فأمر معاوية ، فقطعت يداه ورجلاه .
ولما أمسوا صيروا الفرسان ، وأهل النجدة
في الميسرة .

فلما كان في بعض الليل بيتهم أهل حمص ،
فلم يقدرُوا (منهم) على شيء^(١) .

وهكذا أراد الله لجيش مروان أن يتفادى مذبحه
محققة ، بفضل الله ثم نباهة مروان وحذقه .^(١)

(١) كتاب لطف التدبير : ٢٠٠ .

وابل صدق^(١)

الوابل صفة للمطر ، والصدق صفة لمن وفقه الله من الناس ، وقولنا اليوم عن هذين الأمرين ، فهما في جزيرتنا درتان ثميتان ، الوابل فيه ماء هو مصدر الحياة ، والصدق فيه مأتى الأمان والاطمئنان .

الأعرابي في صحرائه غلبت عليه صفة الصراحة ، واتصف بالصدق ، وهذا آت من الشجاعة ، إذ أنه لا يرى أن الشجاعة تقتصر على ميدان القتال ، ولا هي الضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، وملاقاة الند ، ومهاجمة الوحش ، وإنما التغلب على النفس ، وقول الحق ، ولو كان مرأً ، وقول الصدق ولو على الإنسان نفسه .

والمطر أحد مظاهر الطبيعة في الصحراء ، يكمل الحياة فيها ، ويجعلها سعيدة ؛ مجيؤه

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٤٨ .

عيد، وأنباؤه بشرى، وغيابه فكر؛ عند مجيئه
يتبدل وجه الصحراء، وتبتسم الأرض، ويزهو
النبت، ويخضر الشجر، وينمو العشب، فإذا
مرّ موسمه، صوح النبت، ويبس الشجر، واغبر
وجه الأرض، وتغيرت حياة الأعراب، فبعد
الوجد يأتي العدم، وبعد الفرحة والبهجة،
يسيطر جو من الكآبة، وتقل الموارد، فتكثر
الغارات، ويعتدي القوي على الضعيف، ويغير
المتربص بالغافل، ويبدأ زرع الإحن والثرات.

لهذا كان للمطر عند الأعرابي قيمة، يتنبأ
بأوقاته ببعض دلالاته، ويعرف بدء مواقعه،
ومنتهاها؛ أعطى للسحاب بأنواعه أسماءاً،
ميز بها بعضها عن بعض، لحاملة الماء اسم،
وللعائدة من الامطار اسم، وللسوداء اسم،
وللبيضاء اسم، ولما لها بريق ورعد اسم،
وللصامته اسم؛ ولكل قادمة من وجهة اسم.

وانبرى للمطر يسميه ، ويفرق في التسمية
بين أنواعه ، ما كثر منه له اسم ، وما قل له اسم ،
وبين هذا وهذا أنواع أخرى ، أعطاهها أسماء ،
أو وصفها ، وهو ينزل له اسم ؛ وبعد أن يصل
إلى الأرض له اسم ، وبعد أن يسيل له اسم ،
السائل القليل له اسم ، والكثير منه له اسم ؛
وصف سيره في الأرض ، والتواءه فيها ، وتعرجه
بين جنباتها .

وأخبار الأمطار على لسانه سائلاً ، أو مجيباً ؛
وقت الأمطار أول سؤال يلقيه مقيم على قادم
هو عن المطر ، وتختلف الإجابة حسب فصاحة
المسؤول ، ومدى انفعاله بما رأى من المطر ؛
يفرح أن يسأل ، لأنه يتلذذ بالإجابة ، ينوع فيها ،
ويغرق في الوصف ، ويأتي بصور بديعة ،
تؤكد احتفاله بما يقول ، وفرحته بأن يُجبر .

امتلات كتب الأدب والتاريخ بالحديث

عن السحاب، وعن المطر، نثراً وشعراً؛ وإذا كان النسيب عاملاً مشتركاً في كثير من بدء القصائد، فالمطر يأتي أحياناً في لحمة القصيدة، ووسط بنائها، إما مباشرة، أو عن طريق الدخول إليه، في وصف مطاردة صيد، أو رحلة قنص، أو انتقال من منزل قحط إلى منزل خصب.

بعض الواصفين للمطر يرى أن الكلمات المعتادة لا تليق بوصف المطر، ولا بد من التقعر، واختيار الكلمات البعيدة، والتعبيرات العميقة، والصور المدهشة، لتدل على اعتناء، وتوحي بالاهتمام؛ ومثل هذا الاعتناء يؤدي إلى رسم صور جميلة، تدل على ابتداع، وتكون جاذبة ومعجبة.

ومن بين أوصاف المطر التي تأتي ملفتة للنظر، تلك التي تأتي نتيجة سؤال حاكم لأعرابي، والحكام يهتمهم أمر المطر، لما فيه من نفع

لرعاياهم، وتخفيف عن كاهل الحاكم، لأنه يتحمل كثيراً فيما لو أصاب الناس جذب، وهذا موقف للخليفة سليمان بن عبد الملك، مع أعرابي، وفد عليه في البادية، على أثر نزول المطر:

«دخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك، فقال له :

أصابتك سماء في وجهك، يا أعرابي؟
قال : نعم، يا أمير المؤمنين، غير أنها سحاء
طخياء (مظلمة) وطفاء، كأن هواديها الدلاء،
مرجحة النواحي، موصولة بالآكام، تمسّ
هام الرجال، كثير زجلها، قاصف رعدھا،
خاطف برقها، حثيث ودقها، بطيء سيرها،
متفجر قطرها، مظلم نوؤھا؛ قد ألجأت الوحش
إلى أوطانها، تبحث عن أصولها بأظلافها،
متجمعة بعد شتاتها؛ فلو لا اعتصامنا، يا أمير

المؤمنين ، بعضاه الشجر ، وتعلقنا بقنن الجبال ،
لكننا جُفَاءً (الجفاء ، ما يقذفه السيل من الزبد
والوسخ) في بعض الأدوية ، ولقم (منفرج) وسط
الطريق .

فأطال الله للأمة بقاءك ، ونَسَأَ لها في أجلك ،
فهذا ببركتك ، وعادة الله بك على رعيته . وصلى
الله على سيدنا محمد .

فقال سليمان : لعمر أبيك ^(١) ، لئن كانت
بديهة ، لقد أحسنت ، وإن كانت محبرة لقد
أجدت .

قال : بل محبرة مزورة ، يا أمير المؤمنين .
قال : يا غلام ، أعطه ، فوالله لصدقه أعجب
إلينا من وصفه ^(٢) .

(١) الحلف بغير الله شرك ، ومعروف جزاؤه ، ولكن هذا التعبير درج عليهم
من زمن الجاهلية ، فلم يلقوا بالآلما فيه من محذور .
(٢) العقد الفريد : ٤٦٤ / ٣ .

ما وراء الهدية^(١)

الهدية وسيلة مودة، ورمز استجلاب، لعلها من أول ما عرف الإنسان في مجتمعه للحمة نسب، وتقوية صلة، وعلامة رضى، وباب اقتراب؛ يقدمها من يقدمها فتفسح طريقاً، أو توسع جادة، أو تقضي ديناً، أو تزرع معروفاً؛ منها ما هو مادي في مظهره ومدلوله، ومنها ما هو لمرمى معنوي؛ فالأولى لها قيمة مادية، ويراعى فيها الثمن والقيمة، والثانية قيمتها لا تتعدى اسمها، وصورتها، وهي رمز لا يتعدى أمرها ذلك.

والهدايا وما يكمن خلفها من عادات وتقاليد تكاد تكون بعدد الأمم والشعوب، بل لعلها تتنوع في الأمة الواحدة، وهذا يحكمه عوامل بعضها يختص بالبيئة، وبعضها بالناس أنفسهم،

(١) مجلة الفيصل: العدد ٢٤٩.

وبعضها يختص بما يتوافر في البيئة، وتعارف
الناس عليه، في محيطهم.

ولعل الهدية منذ بدئها إلى اليوم قد سلكت
مسارب مختلفة تطورت معها، حتى وصلت
إلى ما هي عليه اليوم، وتراث الأمم مليء بالأخبار
التي تروي أمور الهدايا، وما كان منها، وكيف
كانت، وفي أي زمن إذا كانت منتظمة، وأي
نوع إذا لم ترتبط بوقت، وجاءت منقطعة أدى
إليها مناسبة طارئة، من قدوم من سفر، أو حج،
أو حدوث ولادة، أو نجاح في أمر، أو انتصار
في معركة، أو خروج من مرض، أو بلوغ سن
معينة، أو اعتلاء منصب.

والهدايا يختلف حجمها ونوعها، فقد تكون
الهدية ممالك استرقوا في معركة، أو اشتروا
من مجلب، أو حيوانات نادرة أو غير نادرة،
أو أدوات غريبة، أو أشياء عجيبة، وقد تكون

الهدية صغيرة وأهديت للطفها ، وانفرادها في صنعتها ، وقد تكون الهدية لدفع حاجة ، ورفع عوز .

وهي من الصغير إلى الكبير تختلف عنها من الكبير للصغير ، فعادة ما يأتي من الكبير يأتي جزلاً في قيمته ، وفي حجمه ، وما يأتي من الصغير يأتي بديعاً في صنعه ، نادراً في جنسه ؛ وما يهديه الناس عامتهم وخاصتهم للحاكم له اعتبار خاص ، يوجب حسن الانتقاء ، وصواب مرمى الإشارة ، لأن المعنى الذي قد يؤخذ منه ، ويستقى من تقديمه ، تفسيره مهم في النفع أو الضرر ، فالهدية للحاكم مثل القصيدة في مدحه ، يجب أن تقترب من كل إشارة تسره ، وتبتعد عن كل إشارة تزعجه ؛ والابتعاد عما يحتمل التأويل غير السار يجب أن يراعى باعتناء .

ومن بين المقاصد التي قد تصاحب الهدية ،

وتكون هدفاً لها، أو مصيدة تنصب لكسب غير حلال، هدية الرشوة، من رجل لقاض، أو من رجل لسجان، أو من رجل لمن أوكل إليه أمر من أمور الحكم؛ ومثل هذه تفقد صفتها الأولى «الهدية»، وتتلطخ بالصفة الثانية «الرشوة»، وكثيراً ما حدث هذا، ولم يسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من محاولة إهدائه لحم جزور، أملاً في أن يحكم في أمر موضوع بين يديه للحكم، حكماً لصاحب الهدية الرشوة؛ وقد تنبه عمر - رضي الله عنه - لهذه الختلة، ورأى الشبك المنصوب له، والمصيدة المعدة للاطباق عليه؛ ولم يكن من الغباء ألا يتنبه لهذه المحاولة الغبية، فخيب ظن صاحبها، أو صاحبتها؛ وحكم عليه، ولم يكتف بهذا، بل سن أمراً تجاه الهدايا لحكامه، ومنعهم من قبول الهدية، وقبله الرسول ﷺ

نبه أحد الذين أرادوا أن يبرروا وجود أموال
لا يتوقع أن تكون عندهم ، وقال له ما معناه :
أفلا جلست في بيت أمك لترى هل يهدى لك ؟

ولا تُهدى الرشوة للقاضي ، أو الحاكم ،
مقابل حكم أو غرض ، إلا لأحد سببين إما أن
يعرف المهدي مقدماً أن الحق ليس معه ، ويريد
أن يحول العدل عن مجراه ؛ أو أن القاضي أو
الحاكم عرف عنه قبوله للهدايا ، وتأثره بها ،
فأراد الراشي أن يضمن حقه ، وقد يكون فعلاً
صاحب حق أراد أن يحميه بالرشوة .

والتراث مليء بأخبار الهدايا الطريفة ،
والرشاوي التي تأتي في صور هدايا ، ولو جمع
ما كتب عن ذلك مفرقاً بين الكتب ، لكان منه
كتاب كبير ، وسيكون فيه من الطرافة ، واكتشاف
عقول الناس الذين يقومون بهذا ، والمجتمع
الذي تحصل فيه مثل هذه الأمور ، شيء بديع .

والحكام المستقيمون يرعبهم أن يعرفوا أن
أحداً من عمالهم أخذ هدية مثلت رشوة، لأنهم
يعرفون أن هذه سوسة تنخر جسم العدل،
وتهز الحكم؛ ولا يستقيم معها أمر، ولا يسعد
بها مجتمع؛ ولهذا فهم لا يسارعون إلى المعالجة
فقط، وإنما يسعون إلى قطع دابر الشبهة،
إمعاناً منهم في الحذر من هذه الآفة المهلكة. وهذا
عبد الملك بن مروان، أحد أبرز خلفاء الدولة
الأموية، فقيه متضلع، وحاكم مجرب، وخليفة
يقظ، انتفض انتفاضة الصقر، وزار زارة
الأسد، عندما لمح شبح رشوة، استترت في
ثوب هدية فتحدث عنها حديث الحكيم:

«استوفد عبد الملك بن مروان عاملاً، بلغه
أنه قبل هدية، فقال له: أقبلت هدية؟

قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، ورعيتك
راضية.

فقال : أجب عما تسأل عنه .
قال : نعم .

فقال عبد الملك : أما والله لئن كنت قبلت
هدية كافأت صاحبها بأن وليته من عملنا ما لم
تكن لتوليه لولا هديته ، إنك للئيم ؛ وإن كنت
قبلتها ، ولم تعوضه منها ، إنك لخائن حسود ؛
وإن كنت أعطيته مقابل ما أخذت ، وأطمعت
في نفسك رعيتك ، وعرضتها لخليفتك ، إنك
لأحمق ؛ ومن أتى شيئاً لا يخلو فيه من حمق ، أو
لؤم ، أو خيانة ، حقيق بأن لا يقر على عمل^(١) .

(١) البصائر : ٩٥ / ٨ .

الخواتم^(١)

الخواتم من الأمور التي علق بها الإنسان منذ أقدم العصور، كما يبدو، ولها قصة طويلة، متصل بعضها ببعض، ومنفصل بعضها عن بعض، يعرف بعضها باليقين، وبعض منها يعرف بالتخمين، أو لا يعرف أبداً.

والخاتم خاتم سواء ما كان من ذهب أو فضة أو نحاس، أو من مواد أخرى، المهم أن يطوق الإصبع، بصفة دائمة أو مؤقتة؛ عمله مهم لبعض من لبسه، ولمعانه أهم لبعض من لبسه، ومدلوله هو المسيطر عند بعض لابسيه؛ والفئات من لابسيه يختلفون، فلبس الرجال له يختلف عن لبس النساء، حتى لو اتفق الإثنان على جانب الزينة فيه، يبقى نظر الرجل إليه غير نظر المرأة.

(١) مجلة الفيصل: العدد ٢٥١.

والحديث فيه متشعب وطويل ، وأقرب ما
يمكن أن نتطرق إليه مسماه ، فلعل كلمة خاتم
جاءت من الختم ، لأنه في الأصل كان يكتب
عليه اسم صاحبه ، أو عبارة يختارها صاحبه ،
يعرف بها ختمه ، بحيث إن من يطلع على ورقة
«مختومة» بخاتمه ، يستدل على أنها موثقة
وصحيحة .

وهذا لا يزال قائماً ، وكثير من الناس يتمسك
به ، وإن كانت فائدته الآن أقل من السابق ،
ومستعملوه أقل ممن كان يستعمله في الماضي ،
وبعض القضاة يفيدهم فائدة جلي ، خاصة إذا
كان القاضي كفيفاً ، ولعل الكفيف عموماً
يستفيد منه سواء كان قاضياً أو غير ذلك .

ولعل الخاتم في عصور بدائية كان رمزاً
للرابطة بين شخصين ، أو بين قبيلتين ، أو
عشيرتين ، أو عائلتين .

وقيمته مادياً تتحدد من المعدن الذي صنع منه ، أو الفصوص النادرة ، أو القيمة التي ألصقت به ، بطريقة أو أخرى ؛ ولكل أمة ذوقها ، وقدرتها ، وعاداتها في صنع الخاتم ، وطريقة لبسه ، وفي أي اليدين ، وفي أي الأصابع ، وهل يكفي الأمر أن يكون في أصبع واحد ، أو أكثر ، وفي يد واحدة ، أو في اليدين الاثنتين .

وفرق كبير بن الخاتم للمرأة ، والخاتم للرجل ، فهو للمرأة حتماً زينة ، إلا ما خصص لهدف اقتضته عقيدة أو عادة ، أو اتباع ، وحتى في هذه الحالات وجد النساء طريقاً لجعله يؤدي غرضه ، ويقف عامل زينة ، وحلية للجمال .

وأبرز مظاهره اليوم هو ما خصص علامة للخطبة بين رجل وامرأة ، ولبسه في أصبع بعينه ، ثم نقله إلى آخر ، أو إلى يد أخرى ، بعد أن يتم الزواج . ومن مظاهره أيضاً في هذا الزمن تحليته

بالأحجار الكريمة ، وهو مظهر ثراء يدل على صاحبه ؛ وبقدر ما عليه من الأحجار ، وما تصل إليه قيمتها ، تكون النظرة إلى صاحبه .

وكان لبس الخاتم الثمين في العصور الإسلامية السابقة له معنى بعيد ، فالرجل إذا سافر إلى بلد ، لا يعرف فيها أحداً ، وحدث ، على ما يحمله من مال ، حادث أفقده إياه ، فإن في الخاتم الثمين ما يسعفه ، برهنه ، أو بيعه ، فيستفيد من مردود ذلك حتى يتمكن من تدبير أمره حتى عودته إلى وطنه .

وقد ورد في التراث بعض نصوص تحدد بعض المعالم حيال الخواتم ، واستعمالها ، منها النص التالي :

«ذكر السلامي أن رسول الله ﷺ كان يختتم في يمينه والخلفاء بعده ، فنقله معاوية إلى اليسار ، فأخذ المروانية بذلك . ثم نقله السفاح إلى

اليمين، فبقي إلى أيام الرشيد، فنقله إلى اليسار، فأخذ الناس بذلك»^(١).

ووجود الخاتم في اليمين قد يكون المبرر له، إذا كان عليه اسم صاحبه، سهولة الختم به؛ والقيام، مما يحث عليه الرسول ﷺ وأصحابه، ولهذا فليس غريباً أن يكون الخاتم في يمينه، ولكن نقل معاوية له لا يعطي مبرراً واضحاً، إلا إذا كان معاوية يجد أنه يضايقه في يمينه، فنقله، وأخذه الأمويون علامة لهم، أما أن يعيد السفاح ما كان في زمن الرسول ﷺ فهذا له مبرر: الأول أنه عودة لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم -، وفي هذا بر وأجر؛ والثاني أن فيه مخالفة للأمويين، وهو نهج دأب عليه العباسيون ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. ونأتي لهارون الرشيد، ونقله إياه إلى

(١) ربيع الأبرار: ٢٤/٤.

اليسار، وهذا يُبقى الأمر في ظلمة، معمى عليه،
ويبقى السبب مجهولاً إلا من تخمين ضعيف،
كما ظنَّ بمعاوية .

وهناك نص يعطي صورة لما كان يصل إليه
سعر الخاتم في حقبة من حقبة الأمويين، وما
جاء في النص من تقوى، لا يستبعد أن تأتي من
عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - :

«بلغ عمر بن عبدالعزيز أن ابنه اشترى فص
خاتم بألف، فكتب إليه :

عزمت عليك لما بيعت خاتمك بألف، وجعلتها
في ألف بطن جياع، واستعملت خاتماً من ورق
فضة، ونقشت عليه :

«رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه» .^(١)

ولأشعب موقف مع الخاتم، يتماشى مع روح
أشعب، وما يتسم به من طرافة، وما عرف

(١) ربيع الأبرار : ٢٥ / ٤ .

منه من فكاهاة ، مع سرعة بديهية ، وحرص على
حماية حقه ، والموقف يتبين من النص التالي :

« قالت امرأة لأشعب :

هات خاتمك أذكرك به .

قال : اذكريني بأني لم أعطك » .^(١)



(١) ربيع الأبرار : ٢٥ / ٤ .

حكم وحيلة^(١)

الأحكام الإلهية الواضحة تأتي متقنة ، لا يدخلها خلل ، ولا يصاحبها نقص ، تفي بما أصدرت من أجله ، وتحفظ جانباً من جوانب المجتمع من العناء ، والمكابدة ، لأنها جاءت من حكيم عليم ، قوله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ والقاضي والفقيه يجد الطمأنينة فيما هو واضح من الأحكام ، ويحكم في ضوئها جازماً ، لا يعتريه شك ، ولا يعترضه تردد ، ولا يسمع لمعارض ، ولا ينصت لناقد ، أو ملاحظ .

أما الاجتهاد من البشر في ضوء عقلهم ، وقياساً على ما علموه ، فقد يصيب فيه المجتهد أو يخطئ ؛ لأن عقل الإنسان ذو مدى محدود ، هو أقرب للقصور ، وأدنى إلى الزلل ؛ وإذا صفت

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٣ ، رجب ١٤١٨ هـ - نوفمبر ١٩٩٧ م .

النية في إصدار الأحكام، وبذل الجهد في التقصي
والتثبت، وانتظر الأجر، وأمل في الثواب،
فالإصابة لها أجران، والخطأ له أجر.

وقد تُظهر التجربة صحة الحكم، ويجري
عليه العمل، باطمئنان ووثوق، ويكون الصواب
فيه عائداً بالأجر على صاحبه عن طريق من يتبعه،
ويعمل به إلى يوم القيامة، أما إذا أظهرت
التجارب أن هذا أصبح باباً يدخل منه صاحب
الغرض، والنية الفاسدة، ويستغله لأغراض
تتناهى مع الإسلام، وروحه، ويكون فيه من
الأذى والتعدي ما لم يأمر به الله، فإن من أفتى
بالفتوى، أو أصدر الحكم، يكسب أجراً
بالتراجع عنه، وهذا أول درجات الاستغفار.

والخلل أحياناً يأتي من حسنِ النية، خير
الاتجاه، عندما ينصب ذهنه على جانب إصلاح
في المجتمع، ويعطي تفكيره كله لهذا الجانب،

مما قد ينسيه جوانب أخرى ، كان عليه أن يتنبه لها ، ويفكر فيها ، ويبحث عن الأحكام التي تتبعها ؛ يغفل عن الجانب المهم ، لاندفاعه في التفكير في الإصلاح في جانب آخر ، فيُدخل عليه من حيث ظن أنه آمن ، ويُختل من حيث ظن أنه محصن ؛ وابن أبي بردة ، لحرصه على صلاح المجتمع في جانب رأى فيه بعض الخلل ، جعله يصدر حكماً ، اضطر فيما بعد أن يتراجع عنه ، لأنه تبين له أنه سوف يتسبب في ضررٍ غاب عن ذهنه ؛ ونبهه له الواقع .

كثر الرقيق في عصر الأمويين والعباسيين ، وكثر التأويل فيه لأغراض الاسترقاق ، وارتكبت ، في سبيل ذلك الطمع ، أخطاء وآثام ، تألم لها القضاة والفقهاء ، فجاءوا من جانبهم باجتهدا مختلف الجوانب ، يؤملون من ورائه أن يعدلوا الكفة ، ويصلحوا شيئاً من الفساد ، وهذا ما

حدا بابن أبي بردة أن يفتي فتواه ، والقصة إن
صحت هكذا :

« كان أبو بردة ، عامر بن أبي موسى الأشعري
يلى للحجاج ، بعد الشعبي ، قضاء الكوفة ،
فكان يحكم : بأن رجلاً ، لو قال للمملوك
الذي لا يملكه : أنت حر ، أنه يعتق ، ويؤخذ
المُعْتَقُ بثمنه .

قال : فعشق رجل من بني عبس جارية لجار
له ، فجن بها ، وجنت به ؛ فكان يشكو ذلك
إليها ؛ فلقيها يوماً فقال لها :

أشكو إلى الله أنه لا حيلة لي فيك .

قالت : بلى ، والله ، إن لك حيلة ، ولكنك
عاجز ؛ هذا أبو بردة يَقْضِي بالعتق بما قد علمت .

فقال لها : إنك لصادقة .

ثم قدم بها إلى مجلس للنخعي ، فيه قوم
يُعَدِّلُون . فقال :

هذه جارية آل فلان ، أشهدكم أنها حرة .
فألقت ملحفتها على رأسها (أي تسترت) .
وبلغ ذلك مواليها ، فجاءوا ، فقدموه إلى
أبي بردة ؛ وقدموا صاحب الجارية ، فأنفذ
عتقها ، وألزم الرجل ثمنها . فلما أمر به إلى
السجن ، خاف إذا ملكت أمرها أن (تصير)
إلى أول من يطلبها ، وأن يخيب هو فيما سعى
إليه من أمرها ، فقال :

أصلح الله القاضي ، لا بد من حبسي ؟

قال : أو تعطيتهم ثمنها ؟

قال : فليس مثلي يحبس في شيء يسير ؛ أشهدكم
أني قد اعتقت كل مملوك لآل أبي موسى ، وكل
مملوك للأشعرين ، وكل مملوك لمذبح .

فخلى سبيله ، ورجع عن ذلك القضاء ،
فلم يحكم به .

أبو بردة عندما حكم حكمه بالعتق لم يفكر

في النتائج ، ولم يخطر بباله ما خطر ببال
العبي ، ماذا لو اعتق العبي رقيق الكوفة؟
ماذا يفيد سجنه؟

لهذا تراجع أبو بردة ، ولم يكابر ؛ وإنما برأ
ذمته بعد أن تبين له الضرر ، وفضل أن يقول
الناس عنه تراجع عن حكمه ، عن أن يلقي الله
بقلب مرتجف ، عارف بما أقدم عليه مما سبب
ضرراً .

أعود فأقول : هذا إذا صحت القصة ، ولم
تكن مما ألف على عامر بن أبي موسى ، وهو كثير ،
فإن صحت فهذا وجهها ؛ وإن لم تصح فهي
طريقة من الطرف .^(١)

(١) كتاب لطف التدبير : ١٩٧ .

القصص وتأليفها^(١)

قص القصص ، والمتعة التي يشعر بها القاص ،
والبهجة التي تملأ نفس المستمع ، أمر عرف منذ
القدم ، ولعله يدخل في طبيعة البشر ، ولهذا فهو
يقابل طبيعة متعطشة ، ويملاً فراغاً منتظراً من
المرء ، فإذا التقت رغبة القاص مع تطلع من
يقص عليه ، كملت الصورة ، وتم الرسم .

والقصص نوعان : نوع واقع وحقيق ، يرويه
راويه ، ليس له في حقائقه إلا حسن الإلقاء ،
وانتقاء الكلمات ، والزوايا التي يدخل منها ،
وما يرى تقديمه ، وما يرى تأخير ، يسير في نبرة
صوته مع مجرى القصة ، وما تقتضيه ، وما يراه
على وجوه السامعين ، من استحسان ، وإصغاء ،
أو تذمر ، وغفلة ، وصدود .

والنوع الآخر نوع متخيل ، يصول فيه ذهن

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٤ .

القاص ، ويجول ، حسب ما يراه ، معتمداً في هذا على قدرته على الوضع ، وتصنيف الكلام ، والأفكار ؛ وقد يكون كله مختلفاً ، وقد يكون بعضه ؛ فقد يبني القاص قصته على أمر واقع ، وحقيق في بعض جوانبه ، ولكنه يدخل في أوله ، أو في أثنائه ، أو في آخره ما يرى أن من المفيد في شد الناس أن تكون هذه الإضافة فيه .

وهناك أناس عندهم الملكة لاختراع القصص ، وتركيبها ، وصياغتها صياغة لا يشك في أنها واقعة في الحقيقة ، والقاص بمعلوماته الغزيرة ، وبثاقب فكره ، ومعرفته بمجمتمعه ، وبطبيعة الناس فيه ، يستطيع أن يبدع ، ويأتي بما يدهش ، حتى أن بعض ما يؤلفه تتعدى المتعة فيه الحقائق الثابتة المعروفة عن هذا الأمر .

وتركيب القصص ، واقتناص طائر الخيال فيها ، يختلف باختلاف الغرض الذي من أجله

صار هذا؛ والقصص في التراث مليء بما هو مصطنع، أريد به أن يوهم بأنه حقيقة؛ وكان للنزاع القبلي، والاختلاف السياسي، والتباين بين طبقات الناس، والمنافسة بين أصحاب المهن، وبعض فئات العلماء، ما يغري بالوضع، لتأكيد حق لم تؤكد به الحقيقة، مما يدفع إلى اللجوء في إثباته إلى الخيال، وجموح التصور؛ والغاية حينئذ تبرر الوسيلة.

وقد عانت الحقيقة في محصول التراث من هذا كثيراً، مما يوجب أن ينخل ما دون، ويفحص، ويتأكد مما هو حقيقة، وما هو خيال؛ وإن كان الخيال عندما يثبت أنه خيال لا يخلو من فائدة، أو لها المتعة، وثانيها معرفة عقل المؤلف، وسبر غور مقدرته على تعمية بصمات أقدامه على أرض الوضع، وثالثها أنها تبين صورة من صور المجتمع الذي عاش فيه هؤلاء، القصاص،

والمستمعون لهم .

وفي بعض النصوص يتبين الموضوع من غيره ،
لأن هناك علامات لا تخفى على الدارس ، مع
كثرة ما يمر به ، وما يتعرض له ، ويفيده في هذا
كثرة النصوص التي تمر به ، وإتاحة الفرصة له
للمقارنة والموازنة ، مما يجعله خبيراً .

وناقد النصوص ، وناقفها ، يحتاج إلى نبذ
العاطفة جانباً ، ومقاومة المتعة ، عند هدم
النص ، وإبطاله ؛ لأن في النصوص قوة ، ليس
من السهل مقاومتها ، لا يعرفها إلا من عالجها ،
وعاش معها ، وصارع جاذبيتها ، واغراءها .

في النص الذي سوف نسوقه نوع من أنواع
القصص الذي لا يخلو من تهمة النحل ، وهو نوع
قد يكون الداعي له ، استعراض ثقافة القاص ،
وتبيان مستواه في علم الأنساب والمجتمع ؛
والاقتصار على سرد ما يعرف لا يُلفت النظر ،

ولا يأتي بمتعة، ولكن وضعه في قصة، يُختار
أشخاصها، وموضوعها، ومسرحها، يضمن
الاستماع، والرواية، والمتعة.

وإذا كان كتاب القصة في زمننا ينهون
القارئ، ويؤكدون أن القصة التي يضعونها
أمامه هي متخيلة، ولكنها صورة لما يحدث في
الحقيقة في المجتمع، فليأخذ القارئ منها عظة؛
إلا أن القدامى يوهمون بغير ذلك وهذا هو الفرق
بين كتاب القصة اليوم؛ وأجدادهم بالأمس، وما
صوروا لمجتمعهم من صور تخيلوها، في حدود
ما يمكن أن يحدث فيه.

والنص التالي يبين حرص مؤلف النص على
عرض ثقافته، وبث رسالة يؤمن بها، ويريد
لها أن تشيع:

«خرج أبو العباس، أمير المؤمنين، متنزهاً
بالأنبار، فأمعن في نزهته، وانتبذ من أصحابه،

فوافى خباءاً لأعرابي ، فقال له الأعرابي :

ممن الرجل ؟

قال : من كنانة .

قال : من أي كنانة ؟

قال : من أبغض كنانة إلى كنانة .

قال : فأنت إذاً من قريش .

قال : نعم .

قال : من أي قريش ؟

قال : من أبغض قريش إلى قريش .

قال فأنت إذاً من ولد عبدالمطلب ؟

قال : نعم .

قال : فمن أي ولد عبدالمطلب ؟

قال : من أبغض ولد عبدالمطلب إلى عبدالمطلب .

قال : فأنت إذاً أمير المؤمنين .

ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر

له بجائزة» . (١)

(١) العقد الفريد : ٣ / ٢٧٧ .

العرب والخيـل^(١)

العرب في صحرائهم اقترنوا بالخيـل والإبل ،
عرفوها : طبعائها ، وأخلاقها ، عاداتها ،
أمراضها ، جيدها ، ورديئها ، أدوار حياتها ،
وأطوار نموها ، فائدتها ، ونفعها .

كان للخيـل عندهم مكانة تسبق مكانة الولد
أحياناً ، وحبـتهم أنها حصن لهم عند الشدائد ،
فبها يردون الغارة ، وعليها يشنون الغارة ، على
ظهورها يطـيرون ، فيختطفون إبل الآخرين ،
يأتون بها غنـيمة ، وعلى ظهورها يطـيرون
ليردوا إبلأ سيقـت في هجمة ، أو اقتيدت من
مرعى . قدموها على الأم والزوجة والولد ،
لأنهم بها يحمون هؤلاء ، وبهؤلاء لا يحمون
الخيـل ، كما قدروا .

يجوع العربي ، ولا تجوع فرسه ، ويصبر على

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٥ .

الحر والقر، ولا يعرض فرسه لشيء من ذلك؛
يسقيها الماء والحليب، ويحرم نفسه منهما؛ تغزل
العربي بالفرس، وصفها في شعره، عضواً
عضواً، وشبه كل عضو بما يظهر فضله،
وتفوقه، درس حالها، حتى لم يعد يخفى عليه
شيء من جسمها أو طباعها.

أدرك فيها ذكاءً لم يجده في غيرها من الحيوانات،
اللهم إلا ما تتقارب فيه مع الناقة؛ مَنْ اقتناها
فكأنما حاز الدنيا بأجمعها، والغارة التي تأتي
بإضافة حصان أو فرس إلى القبيلة غارة مباركة،
أضافت للقبيلة قوة إلى قوتها، وكذلك إذا ولدت
فلواً، أو فلو؛ وهذه قد ترجح على ولادة ولد.
ولهذا اختاروا للفرس خير الفحول، وأكثرها
أصالة، واكتمال جسم وطبع؛ واحتفظوا لها
بأنساب صافية، لا يدخلها خلط، ولا يشوبها
عيب؛ واختاروا لها خير الأسماء.

والخيل تستحق كل هذه العناية، لما سبق ذكره من فوائدها، ولما حباها الله به من جمال وحسن؛ فأنت لا تكاد تبعد عينك من النظر إليها، حسن قوام، وحسن منظر، مشيها جميل، وركضها مبهج، وطردها معجب، إن نظرت إليها من الأمام أسرتك استقامة الجسم، وتناسق الرقبة معه، وإن نظرت إليها مقفية مدبرة رأيت تناسقاً بين العجز والظهر، وإن نظرت من أحد الجانبين رأيت انسياباً من البدء إلى النهاية، ورأيت في تقويس الظهر والبطن جمال التكوين، وروعة الإبداع.

أما الألوان فباهرة، بأنواعها المتعددة، وما قد يكون هناك من غرّة بيضاء في الجبين، أو تحجيل في القدمين، أو أحدهما، يضيفي على اللون الأصل رونقاً، ويميز حصاناً عن حصان؛ ولنباهة الخيل، وذكائها، تكاد تجزم أنها تعرف

جمالها ، وتدل به !

وقد كُتِبَتْ كتب عدة ، وكتبت فصول ضافية ،
وأبواب وافية ، عن الخيل ، وأمورها المختلفة ،
وقيل فيها ما يؤكد أن العربي عنده من الخبرة بها ،
ما يبرر تعلقه بها ، وتقديره لها ، وحب الخيل
عند العربي يكاد يكون فطرة فطره الله عليها ،
وغريزة زرعها الله فيه قبل أن يولد ، وقبل أن
يعرف الحياة ؛ وتكاد هذه المحبة ، وهذا الالتصاق
الودي ، وهذا التقدير ، يوحى لك بأن الخيل تكن
للعربي ما يكن لها ، وأذكر أننا زرنا مزرعة في
إحدى دول الغرب ، فعلق صاحب المزرعة ،
وكل ما فيها خيل عربية ، قائلاً : إنه يكاد يقسم
أن الخيل عرفتكم ، وأنها اليوم في حال نفسية
تختلف عما قبل ، وكانت تحية منه مُرَحَّباً بها
منّا ، ولا أظن إلا أننا أقنعنا أنفسنا بأن ما قاله
حق ، قياساً على فرحتنا بها ، ورؤيتنا للعناية

المعطاة لها ؛ وهي مظهر عربي نال احترام من حولها . والحمد لله أننا لم نمر بالموقف الذي مر به أستاذنا الجليل الشيخ حمد الجاسر ، عندما زار - كما قال - مزرعة للخيول العربية في أمريكا ، ووجد أن صاحبة المزرعة قد اختارت أحد الخيل الأصيلة ، وأسرجته ، وعرضت عليه أن يركبه ، ولم يكن - حفظه الله - «خيال الخيل أخو من طاع الله» !

من رأى كيف «يعسف الحصان» ، ويهيأ للركوب ، ويمرن على قبول امتطاء ظهره ، ويدرب على ذلك ، من قبل رجال البادية ، والخطوات التي يتخذونها ، ويتدرجون فيها ، يدرك مدى معرفتهم بالخييل ، وفهمهم لطبائعها ، وأغلبهم أخذ العلم بالتجربة والمران ، والفتنة ، وبعض علم العرب عن الخيل ، وما كسبوه من كثرة عشرتهم للخييل ، ودقة ملاحظتهم لها ،

يبينه النص التالي ، وهو يُروى عن عمرو بن معدي
كرب ، وقيل إن مُبدي الملاحظة هو سليمان بن
ربيعة الباهلي :

« قيل لسليمان : بم تعرف الهجن من العتاق ؟
قال : بنظري إلى الأعناق .
قيل : فبين لنا ذلك .

قال : فدعا بطست من ماء ، فوضعت على
الأرض ، ثم قدمت الخيل إليها واحداً واحداً ،
فما ثنى سنبكه ، ثم شرب ، هجّنه ، وما شرب ،
ولم يثن سنبكه ، جعله عتيقاً ؛ وذلك لأن في أعناق
الهجن قصراً ، فهي لا تنال الماء إلا على تلك
الحال ، حتى تشني سنابكها ؛ وأعناق العتاق
طوال ، فهي تشرب ، ولا تشني سنابكها » .^(١)

(١) البصائر : ٨٤ / ٧ .

درجة الأمن^(١)

ولي الأمر الصالح همه الأول استتباب الأمن ،
ففي ظل الأمن يزدهر كل عمل ، وتسير الحياة
رهُواً هادئة ، إذ تعم الطمأنينة ، وتحيم السعادة ،
لا يعكر صفو المجتمع قلق ، ولا يقف في طريقه
عقبات . فالأمن على هذا دوحة مظلة ، وحصن
واق للمجتمع .

واضطراب الأمن كلف يشوه أديم المجتمع ،
ونكبة تقلق راحته ، وتعرقل سيره ، بالعقبات
التي توقفها أمامه ، وبالإفزع المباغت ، المتوقع
في كل وقت ، فلا ليل أفراده ليل ، ولا نهارهم
نهار ، يتوقعون الأذى دائماً في الأنفس ، والأموال ،
والأعراض . فينعدم مع هذا الازدهار ، ويقف
النمو والتطور ، وتسود الفوضى ، ويرتقي الدنيء ،
ويتدنى المعتلي ، وتنقلب بهذا الأوضاع ، ويصبح

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٦ .

المجتمع مجتمعاً شاذاً لا طبيعة ثابتة مقبولة له ،
ولا صفة حميدة فيه ، تتنازعه الأهواء ، وتقتسمه
المصالح . وتركذ فيه الأعمال ، فلا عمل إلا ما
يجزي عن الضرورة ، ولا إحسان إلا باستراق
الفرص ، واغتنام غفلة مهدي الأمن .

لهذا يفخر الحاكم الذي يستطيع أن ينشر
الأمن ، ويعمم الطمأنينة ، بالأخذ بحزم على
يد العايب بالأمن ، المزعزع لأركانه ، والحاكم
الناجح هو الحاكم اليقظ ، الذي لا يستهين بحركة
مريبة ، ولا يتهاون بتصرف شاذ ، ولا يخدعه
التضليل المقصود ، ولا يكتفي بظاهر الأمور ،
ولا يغضي على الخطأ الخطير ، ولا يتساهل على
الأذى الواضح ، يلتفت في كل اتجاه ، يمحص
كل ظاهرة ، ويبادر بالتصرف بالدواء المناسب
لكل داء ؛ ينأى عن التسويف ، ويبعد عن
المماطلة .

والحاكم النابه يرى ما لا يراه غيره ، ويتنبه إلى
 ما لا يتنبه له سواه ؛ وتربى لديه ملكة يرضعها
 منذ صغره ممن سبقه ، ويغذيها بالتجارب ،
 ويكيفها وثمرتها بنتيجة معرفته بالناس ،
 وطبقاتهم ، وفئاتهم ، ومجتمعاتهم ، وما يكابده
 منهم ، وما يعانيه من مشكلاتهم ، وبتبصره
 بأفعالهم ، ودراسته لعقولهم ، وتدبره في مهنهم ؛
 فلكل أمر عده ، ولكل داء دواؤه ، ولكل صنف
 معاملته ، ولكل عمل ثوابه أو عقابه . ولا يخلط
 أمراً بأمر ، ولا دواء بدواء ، ولا معاملة بمعاملة ،
 ولا يدخل تصرفاً على تصرف ، إلا فيما يأتي
 بإصلاح ، أو يجلب نفعاً ، أو يدفع ضرراً .
 ولا يزاوج بين أمور لا تنفع فيها المزاجعة ،
 ولا يقول قولاً لا يصدقه الفعل ، ولا يأتي بفعل
 الأمس بما لا ينفع معه إلا فعل اليوم ، فلكل
 زمن حقه ، فلا يُدخل حق زمنٍ في زمن آخر .

والحاكم العادل يقلقه الخروج على الشريعة
والنظام، من أي فرد كان، لأن عملاً شاذاً يأتي
من فرد واحد، إذا لم يؤخذ على يده، كفيل بأن
يغري آخر بأن يحذو حذو الأول، الخارج عن
السبيل المستقيم، فيكثر بهذا المخالفون،
ويضطرب الأمن، وينقطع الحبل الموصول،
وتقل هيبة الحاكم، وتتجرأ عليه الثعالب.

وإذا أخطأ شخص بسبب ظرف جعله في
موقع الشبهة بين الحق والباطل، أو الخطأ
والصواب، فإن الحاكم لا يفرح بالعقاب مثلما
يفرح بالتوبة المعلنة، خاصة إذا بينت إقراراً
منطقياً بالخطأ، يثبت حق الحاكم، ويؤكد زلة
من زل.

كان الحجاج يطارد الخوارج على الدولة،
ويقاتلهم، وكان يأخذهم بيد من حديد، ولكنها
تلين ليناً كاملاً، عندما يعتذر الخارجي للحجاج،

في مجلسه علناً؛ فيؤكد أن ما أقدم عليه هو زلة
وجهل، أو نتيجة تغرير، أو همز شيطان؛ ثم
يستعطف في العفو، مادحاً الخليفة، وحكمه،
وأmirه، وتصرفهما الموفق. هنا، في نظر
الحجاج، اعتدلت الكفتان، وتساوى الأمران،
بل رجح التالي على السابق، بإعلان العصيان
محاه الإقرار بالذنب، وقد جاء هذا علناً يحمل
في ثناياه ضمناً تحذيراً لمن على وشك أن يذنب،
ممن في قلبه مرض، ممن طمع في الخليفة،
أو استهواه التمرد.

هذا المنصور يستمع إلى اعتذار وفد الشام بعد
موقف التمرد، الذي قاده عمه، وتابعه عليه
آخرون، والموقف وما قيل فيه يكشف عما
يدور، في مثل هذا الموقف، في ذهن الحاكم،
وما يجول في نفسه عن الأمن، والخارجين عليه،
وكيف يكون رتق الخرق، والأداة لهذا كلمات

مضيئة، تأتي على لسان من يمثل الذنب، تصور ما يجول في ذهنه، وتمهد للقبول في ذهن المتلقي :

« وفد وفد من أهل الشام على المنصور، بعد انهمزام عبدالله بن علي، وفيهم الحارث بن عبدالله ابن ربيعة، في عدة منهم، ثم قام الحارث، فقال :

«أصلح الله أمير المؤمنين، لسنا وفد مباهاة، ولكننا وفد قُربة، وإنّا ابتلينا بفتنة، استفزّت كريمنا، واستخفّت حليمنا؛ فنحن معترفون، ومما سلف معتذرون، فإن تُعاقبنا فقد أجرمنا، وإن تعف عنا فبفضلك علينا؛ فاصفحْ إذْ ملكت، وامنْ إذْ قدرت، وأحسنْ، فطالما أحسن الله إليك .

فقال المنصور: قد فعلت ذلك، بخطيبكم، وأمر برد قطائعه» .^(١)

(١) التذكرة الحمدونية: ١١٩/٤ .

التردد وضعف العزم^(١)

يبدو أنه من طبيعة الناس أن يكون بينهم المتردد، الذي لا يقرر سريعاً، ولا يعمل فكره في سبر غور ما يقال، ولا في معرفة مراميه، ولا في إدراك كنهه، ودأبه أن يملأ جوانب فكره، ومسارب عقله، لا بما عليه أن يستنتجه، ولكن بما يريد أن يكشفه له محادثه بكل دقائقه وتفصيله، حتى لو أحوج الأمر أن يسأل عن أي جزء بدهي، يعرفه الطفل، ويدركه البليد.

ولعل هذا يعود، بجانب طبيعة بعض الناس، إلى نقص التربية، وعجزها عن زرع الثقة في الفرد، بحيث يأخذ نفسه بإقناعها بأن ما فهمه، مما دلت عليه الكلمات، هو المقصود، وأن أي إلحاح في طلب المزيد من الإيضاح يدل على تقعر وتنطع، لا داعي له، وهو يدل على نقص

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٧ .

العقل ، والإدراك .

وأول أمر دُونَ ، وَوُثِّقَ ، عن مثل ذلك ، أمر
بقرة بني إسرائيل ، وقصتها واردة في القرآن
الكريم ، وقد رسمت صورة لمن ألقى إليهم
الأمر واضحاً بذبح بقرة ، وسيلة لمعرفة القاتل ،
فأخذ القوم يسألون عن صفة البقرة ، وأكثروا
من ذلك ، دون داع ، وشددوا ، فشدد الله عليهم ،
وأوصلهم تتالي سؤالهم إلى بقرة بعينها ، دفعوا
فيها ثمناً باهظاً .

ويتصف عمال الدول ، والعاملون فيها ،
في الأزمان المتلاحقة ، إلى اليوم ، بوجود من
ينحو هذا النحو ، ويضيّق على نفسه ما وسعه
الله عليه ، ويسأل ، ويستقصي حتى لا يبقى في
القوس منزعاً ، فيُضيع بهذا وقتاً ، وجهداً ،
وفائدة ، ويؤكد بعمله هذا أنه رجل لا يرقى
إلى ما يحتاجه مركزه من ذكاء ، وسرعة بديهة ،

وحسن تصرف .

وبعض الناس تكون هذه صفته في كل أمر يأتيه ، ولا يقتصر هذا على العمل الرسمي ، بل يتعدى إلى الأمور الخاصة ، فيمل التعامل معه أقرب الناس إليه ، ويدعو إلى الانعتاق منه ، ومن أسلوبه ، من يضعه الله في طريقه من مراجع ، أو صاحب حاجة .

والتردد فيما لا يجب التردد فيه ، والسؤال فيما لا يحتاج إلى سؤال ، يدل - كما قلنا - على عقدة قد تذهب في عمقها إلى الصغر ، ولهذا يحرص بعض المربين على إعطاء الطفل ، والصبي ، والشاب ، حرية التصرف فيما يتناسب مع سنهم ، أو حتى يسبق ، في بعض الأمور ، سنهم . والثقة جوهره تخالط دم الإنسان ، فتضيء جوانب نفسه ، وتزرع فيه ملكات متنوعة ، تمشي مع عمله ، وتساهم في إتقانه تجاربه ، وتهدي

طريقه إلى الأهداف التي يقصدها، مع توفير
في الوقت، والجهد، وتجعله يبرز غيره ممن
لم يرزق بهذه الدرة الفريدة، ولم يتمتع بما
تشعه من ضوء هادٍ مرشد.

وإذا حرم المرء من زرع هذه الثقة في نفسه،
فاته أمر ثمين، وحل في نفسه ما لا يمكن محوه،
بل يزيد عمقاً مع الأيام، حتى يصبح في وضع
لا ينجز على يده عمل، وإذا أنجز فبعد لأي،
وجهد، وإضاعة وقت.

وأكثر ما تعانيه الإدارة الحديثة اليوم هو ما
يقابله الرئيس مع مرؤوسيه، ممن ابتلوا بهذه
النقيصة، فإن تعلم فيهم الصبر، وأطال لهم
الحبل، فقد يصاب بمرض السكر، أو بالقرحة
في المعدة، أو بنوبة قلبية، أو بدرجة من درجات
الجنون، ولا يعدم الإنسان أن يقابل مثل هؤلاء
في حياته أكثر من واحد في دروب الحياة المختلفة،

وفي المراكز المتعددة، ولعل خير مثل ، يمكن أن
يؤتى به ، بعض ما ورد في التراث ، وهو صورة
صادقة لما يحدث من بعض الناس في زمننا هذا ،
في كل دول العالم ، وهذا أحد الأمثلة :

«قال أبو الزناد :

كنت كاتباً لعمر بن عبدالعزيز ، وكان يكتب
إلى عبدالحميد بن زيد بن الخطاب في المظالم ،
فيراجعه فيها ، فكتب إليه :

يخيل إلي أني لو كتبت إليك أن تُعطيَ لرجل
شاة لكتبت إلي : أضأن أم ماعز ؟

ولو كتبتُ إليك بإحداهما ، لكتبت :
أذكر أم أنثى ؟

ولو كتبت إليك بإحدهما ، لكتبت :
أصغير أم كبير ؟

فإذا أتاكَ كتابي هذا فلا تراجعني فيها» .^(١)

(١) التذكرة الحمدونية : ٤٥٩ / ١ .

ومثله القصة الآتية :

«كتب أبو جعفر إلى سلم ، يأمره بهدم دور
من خرج مع إبراهيم بن عبدالله بن الحسن ،
وعقر نخلهم .

فكتب إليه : بأي ذلك نبدأ بالدور أم بالنخل ؟
فكتب إليه أبو جعفر :

أما بعد ، فإني لو أمرتك بإفساد تمرهم ،
لكتبت تستأذن بآيه نبدأ ، بالبرني أو الشهريز ؟
وعزله ، وولى محمد بن سليمان مكانه» .^(١)

(١) التذكرة الحمدونية : ١ / ٤٦٠ .

من البلية ما يضحك^(١)

الحرب بلاء ما بعده بلاء، يُهلك الأفراد، ويوئم الصغار، ويوئم النساء، قليلُ السالم منه، وكثير القتل، أو الجريح، وفيه الأسر، وما يأتي معه من عذاب، وإهانة، فقد يجاع الأسير، وقد يضرب، وقد يشوه، وقد يصبح محط انتقام مبتكر، من أناس، رعى الحقد قلوبهم، وسود نفوسهم.

والحرب تبعث العداء بين أمتين، وتديم البغضاء، وتقيم التربص، ولا يهناً بسببها جار بجوار جاره، ولا يطمئن في داره، هو في وجل دائم، وخوف مستمر؛ وكم من حرب أضاعت بلداناً، وأخربت دياراً، وأنزلت كساداً، وجلبت قحطاً، وأربكت أمماً، وجاءت بعسرة بعد يسر، ومرض بعد صحة، وشقاء بعد سعادة.

(١) مجلة الفيصل : العدد ٢٥٨ .

والأسر أحد جوانب الحرب المظلمة ، ففيه
فقد الحرية ، وضياع المقام ، والتعرض للأذى ،
وسقم النفس ؛ الأسير في عذاب بدن ، لأنه ثقل
في المكان الذي يوضع فيه ، وتعب على من يحرسه ،
وخرس طاحن على مطعمه ؛ فهو على هذا يوضع
في أسوأ مكان ، ويطعم أسوأ طعام ، ويحرس
أشد حراسة ، وربما وضع القيد في رجله ،
ليعاني أضعاف ما يأتي به الأسر المعتاد .

وتدفع أموال طائلة لفك الأسير ، وإنهاء
معاناته ، وما يدفع يتوقف على نوع الأسير ،
وعلى أهميته ، فإن كان قائداً ، أو فارساً ، أو ذا
مركز ، دفع فيه أموال طائلة ، أو أرض شاسعة ؛
أو بودل به عدد من الأسرى ، كثيرو العدد ،
مهمون لأهلهم ، ووطنهم ؛ وتاريخ الحروب
مليء بأخبار الأسر والأسرى ، وما جرى عليهم ،
فكاً ، أو قتلاً ، أو تعذيباً ، أو تشويهاً ، أو إهانة ؛

ومن أسوأ المحاربين في معاملة الأسرى ، التتار ،
وهذا أضاف إلى سمعة شجاعتهم ، وتهورهم ،
رعباً ، يملأ القلوب ، ويجعل المقدم على حربهم
يحجم خوفاً من الوقوع في الأسر ، فلا يقابلهم
إلا شجاع ، يحاربهم يائساً من الحياة ، وملقياً
نفسه في أتون المعركة ، هدفه الموت ، وهو أكثر
راحة ، وأعلى شرفاً من الاستئسار .

وهناك أسير شريف ، شجاع فارس ، ملأ الدنيا
أنياباً في أسره ، وملأ الآذان ، واطر الصفحات ،
عتباً على عدم المسارعة في فك قيد أسره ، وهو
في ضنك وشدة ، يرسل الأشعار تلو الأشعار ،
راسماً صوراً واضحة لما يعانيه الفارس الأسير
من أعدائه ، وحاتاً على دفع الفدية أيّاً كانت ،
حتى يستريح ، ويرى أمّاً ثكلى ، وحصاناً حزيناً ،
وسيفاً يتيماً ، وميدان حرب افتقده ، وقتالاً
اشتاق إليه ؛ هذا هو أسامة بن منقذ ، ابن عم

سيف الدولة الحمداني ؛ فعندما أسر الروم أسامة ، وطالبوا بفدية باهظة ، تأنى سيف الدولة في افتكاكه ، مما ظن أسامة أنه إهمال ، وعدم مبالاة ، أما سيف الدولة ، فكان يعمل الحيلة ، ويبحث عن الطريق الموصل ، حتى قبض الله ذلك .

ومن الأسرى الذين لمع خبر أسرهم في كتب التاريخ ملك فرنسا لويس التاسع ، وقد أسره المسلمون في وقعة المنصورة عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) في دار ابن لقمان ، التي اشتهر اسمها بعد ذلك ، وبعد أن أوردتها شاعر من شعراء تلك الفترة ، متندراً فيها على الإفرنج وملكهم ، ويصف الدار والقيد الذي قيد به الملك ، حتى قُدي ، وفك إساره .

والأسر سمة من سمات الحرب ، لا ينفصل عنها ، فهو لازمة من لوازمها ، وقل أن تخلو

حرب واسعة الميدان ، متعددة الوقعات ، من
أسرى ؛ وأحياناً تكون فائدة الأسرى للأسر
أعظم من فائدة التخلص من الخصم بالقتل ؛
وعلى هذا فخسارة مواطني المأسور تتوافق في
أهميتها في الخسارة مع أهمية الأسرى في الربح ؛
ولهذا قد يعتمد أحد الطرفين المتنازعين إلى وضع
خطة أسر منذ بدء الحرب ، والكمين ، وهو ترتيب
معروف في الحرب ، أحد أهدافه إيقاع العدو
في مأزق يستسلم فيه ، أو يقتل ، أو يهرب ؛
ولكثرة ما يستعمل الكمين ، أصبح متوقفاً ،
ومحذوراً من قبل الجيشين ، فكل منهما يعطيه
أهمية في أول القتال ، أو في منتصفه ، أو في آخره ،
يتوقف هذا على الخطة المبيتة ، وهي تشبه إلى حد
ما شبكة صيد القطا ؛ ومن يقع في الكمين لاشك
أنه يدفع الثمن غالياً ، وتحلو اللعبة المبيتة هذه
عندما يكون هناك كمينان ، على كل جانب من

جوانب النزاع كمين .

والأسر عموماً ظلمة ، قليلاً ما تخللتها
أنوار ، أو سطع في جوانبها ضياء ، وقليلاً ما جاء
الفرج سريعاً ، وأقل من ذلك أن يأتي بثمرن بخس ،
ولكن حدث في واقعة واحدة أن ضحك الزمن
مع أناس في الأسر ؛ افتر ثغر في وسط الظلمة ،
فأنار جوانب الأسرى .

انتهت بلية الأسر بضحكة مجلجلة ، بدأت
بضحكة ولعبة غش ، وانتهت ببسمة علت
الثغور ، وأنارت الوجوه ، وأوصلت الأسرى
إلى ذويهم :

«قال ابن أبي بردة : غزا قوم الديلم ، فأُسروا ،
وأُسِر الديلم شديد ، قال :
فاشتكى ابن ملك الديلم ، فقالت أمه :
اذهبوا به إلى العرب ، لعل عندهم دواء .
فجاءت به امرأة ، فقال لها رجل :

هاتيه .

فقال له رفيقه : أنشدك الله لا تعرضنا للهلكة .

قال : هاتيه .

فجعل يعوده بقوله :

أيا أم ذا المولود لا شب قرنه

ولا زال فيه سقمه يتردد

ويا أم ذا المولود جودي بكسرة

لشيخين من همدان قيس ومرثد

قالت : فما أتت له ثالثة حتى برئ ، فخليّ

عنهم كلهم» .^(١)

(١) البصائر : ٢٤ / ٩ .

الفهارس

- (١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٣٩١
- (٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٣٩٤
- (٣) فهرس الأسماء ٣٩٧
- (٤) فهرس الأماكن ٤٠١
- (٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٠٢
- (٦) فهرس الأشعار ٤٠٧

فهرس المواضع حسب ورودها

٥	* المقدمة
١١	(أ) المقالات المنشورة في المجلة العربية
١٣	* رقة أهل الحجاز
١٧	* الحصاة لها حلق
٢١	* صور من الألم
٢٦	* القدامى ومرض السكر
٢٩	* قول وقول
٣٢	* ارتفاع العقد
٣٧	* سبجان خالق الكون
٤٢	* الخدم من الكلب
٤٧	* ضياء التسامح
٥٣	* ألوان الطعام
٥٨	* يأكل بغيره
٦٣	* سوق إبليس
٦٨	* قلبي على ولدي
٧٢	* رزقي سوف يأتيني
٧٦	* إشعاع في الظلمة
٨١	* الشعر ووحيه
٨٦	* فرح ظاهر وحزن دفين
٩٠	* من أول من قاله
٩٦	* الصيد السائح
١٠١	* حقيقة كالخيال

١٠٧	* نطاح المتعاصرين
١١٢	* النصفة جمال
١١٧	* استقالة من الحسن
١٢١	* عمر بن الخطاب
١٢٧	* كذب مقصود
١٣٢	* شغاف القلوب
١٣٦	* الصيدلة
١٤٣	* عافية منتقدة
١٤٧	* اختبار
١٥١	* نظرة خيرة
١٥٥	* مظهر برّ
١٦٠	* البشاشة كرم
١٦٧	* نور الشيخوخة
١٧٢	* نامي قبله
١٧٧	* مراحل من عمر اللغة
١٨٣	* ضاعت في مهب الحضارة
١٨٧	* سماحة الخلق
١٩٢	* من أجل القصة
١٩٧	* الملك عبدالعزيز فريد بين الرجال
٢٠٣	* مصائد الأقوال
٢٠٦	* ضياء الإيمان في قلب امرأة
٢١١	* شكوى الناس من الزمان
٢١٥	* النفس الخيرة
٢٢١	* عمر بن الخطاب والحق
٢٢٧	* أم الدرداء رضي الله عنها
٢٣٢	* الجنة تحت أقدام الأمهات
٢٣٦	* الملاحاة في القول
٢٤٢	* أضواء الصدق

٢٤٧	* نجاة وهلاك
٢٥١	* سعة أفق
٢٥٦	* الخاتم تائه
٢٦٠	* فزع القضاة
٢٦٥	* خمس شمعات مضيئات
٢٧٠	* قصة وعبرة
٢٧٥	* رئيس الحكمة
٢٨٠	* العلم
٢٨٧	* أعزة هي أم إهانة
٢٩١	* الوجأ في العنق

(ب) المقالات المنشورة في الفیصل:

٢٩٩	* العقل المنير
٣٠٦	* رزق مكتوب
٣١٣	* تأثير واسع
٣٢٠	* نوع من الذكاء
٣٢٨	* الألغاز وفهمها
٣٣٣	* وابل صدق
٣٣٩	* ما وراء الهدية
٣٤٦	* الخواتم
٣٥٣	* حكم وحيلة
٣٥٩	* القصص وتالیفها
٣٦٥	* العرب والخیل
٣٧١	* درجة الأمن
٣٧٧	* التردد وضعف العزم
٣٨٣	* من البلية ما یضحك

فهرس المواضيع حروف الهاء

١٤٧	 اختبار	*
٣٢	 ارتفاع العقد	*
١١٧	 استقالة من الحسن	*
٧٦	 إشعاع في الظلمة	*
٢٤٢	 أضواء الصدق	*
٢٨٧	 أعزة هي أم إهانة	*
٣٢٨	 الألغاز وفهمها	*
٥٣	 ألوان الطعام	*
٢٢٧	 أم الدرداء رضي الله عنها	*
١٦٠	 البشاشة كرم	*
٣١٣	 تأثير واسع	*
٣٧٧	 التردد وضعف العزم	*
٢٣٢	 الجنة تحت أقدام الأمهات	*
١٧	 الحصاة لها حلق	*
١٠١	 حقيقة كالخيال	*
٣٥٣	 حكم وحيله	*
٢٥٦	 الخاتم تائه	*
٤٢	 الخدم من الكلاب	*
٢٦٥	 خمس شمعات مضيئات	*
٣٤٦	 الخواتم	*
٣٧١	 درجة الأمن	*
٢٧٥	 رئيس الحكمة	*
٣٠٦	 رزق مكتوب	*

٧٢	* رزقي سوف يأتييني
١٣	* رقة أهل الحجاز
٣٧	* سبجان خالق الكون
٢٥١	* سعة أفق
١٨٧	* سماحة الخلق
٦٣	* سوق إبليس
٨١	* الشعر ووحيه
١٣٢	* شغاف القلوب
٢١١	* شكوى الناس من الزمان
٢١	* صور من الألم
٩٦	* الصيد السانح
١٨٣	* ضاعت في مهب الحضارة
٢٠٦	* ضياء الإيمان في قلب امرأة
٤٧	* ضياء التسامح
٣٦٥	* العرب والخيّل
٢٩٩	* العقل المنير
٢٨٠	* العلم
١٢١	* عمر بن الخطاب
٢٢١	* عمر بن الخطاب والحق
٨٦	* فرح ظاهر وحزن دفين
٢٦٠	* فزع القضاة
٢٦	* القدامى ومرض السكر
٣٥٩	* القصص وتاليها
٢٧٠	* قصة وعبرة
٦٨	* قلبي على ولدي
٢٩	* قول وقول
١٢٧	* كذب مقصود
٣٣٩	* ما وراء الهدية

١٧٧		* مراحل عمر اللغة
٢٠٣		* مصائد الأقوال
١٥٥		* مظهر برّ
٢٣٦		* الملاحه في القول
١٩٧		* الملك عبدالعزيز فريد بين الرجال
١٩٢		* من أجل القصة
٩٠		* من أول من قاله
٣٨٣		* من البلية ما يضحك
١٧٢		* نامي قبله
٢٤٧		* نجاه وهلاك
١١٢		* النصفه جمال
١٥١		* نظره خيره
١٠٧		* نطاح المتعاصرين
١١٥		* النفس الخيره
١٦٧		* نور الشيوخه
٣٢٠		* نوع من الذكاء
٣٣٣		* وابل صدق
٢٩١		* الوجأ في العنق
٥٨		* يأكل بعيره

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

- أبراهيم عليه السلام: ١٣
 إبراهيم بن عبدالله بن الحسن: ٣٨٢
 إبراهيم بن أبي عيلة: ٢٨٨
 إبليس: ٦٣، ٦٤، ٦٥
 ابن أبي بردة (عامر بن أبي موسى الأشعري): ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٨٨
 ابن أبي الدنيا: ٢٢٤، ٢٣٩
 ابن أبي داود: ٢٠٤
 ابن الأعرابي: ٦٦
 ابنة خارجة: ٢٩٤
 أبو خرشنة المرادي: ٥٠، ٥١
 القاضي أبو خزيمة: ٥٠
 ابن زيدون: ٢٢، ٢٤هـ
 ابن شبرمة: ٣٦٢، ٣٦٣
 أبو بكر الصديق: ٢٢١، ٢٢٢، ٢٥١
 ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٩٣
 أبو بكر ابن عياش: ١١٠
 أبو جعفر المنصور: ٣٨٢
 أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السخستاني: ٨٤
 أبو حاتم: ١٥، ١٦
 أبو الدرداء: ٢٢٨
 أبو الزبير: ٢٩٣
 أبو الزناد: ٣٨١
 أبو زيد السروجي: ٣٢٣
 أبو سفیان: ٣٠١، ٣٠٠
 أبو عبدالله الطوسي: ٢٩٣
 أبو العباس السفاح: ٣٦٣
 أبو عبدالله جعفر بن محمد بن علي: ٢٦٧
 أبو عبيدة: ٢٥٢
 أبو العلاء المهدي: ٢٠٤
 القاضي أبو غانم: ٧٩
 أبو الفرج ابن زكريا النهرواني الجريري: ٢٩١، ٢٩٣
 أبو ليلى: ١٠١
 أبو مسلم: ٣٨٢
 أبو نوفل الجارود بن أبي سبرة: ٥٦
 أحمد بن سليمان بن داود: ٢٩٣
 أسامة بن منقذ: ٨٩، ٣٨٥، ٣٨٦
 الأسروشنية: ١٤١
 أسلم (مولى عمر): ١٤٥
 إسماعيل بن عبدالله: ٢٣١
 إسماعيل عليه السلام: ١٣
 أشعب: ٣٥١، ٣٥٢
 الأصمعي: ٨٤، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩
 الأعمش: ١١٠، ١٥٤
 الأقرنج: ٣٨٦
 الأفشين: ١٣٩، ١٤١
 الأغلب: ٢٢٥، ٢٢٦
 أم الدرداء: ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١
 الأمويون: ١٣٠، ٢١٨، ٢٤٨، ٣١٤
 ٣٣٠، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥

(ب)

بابك: ١٣٩

البخاري: ٩٩

البرني: ٣٨٢

بلال ابن أبي بردة: ٥٥

بنو إسرائيل: ٣٧٨

ال بهثة: ١١٣

(ت)

التتار: ٣٨٥

(ث)

ثقيف: ٣٠٠

(ج)

جابر بن عبيدالله: ٢٩٣

الجاحظ: ٤٥، ١٦٤، ١٨١، ٢٥٣

جعفر بن محمد الصادق: ٢١٨

جنادة بن محمد الهروي: ٦٥

جهينة: ١١٣

جوين: ١٦٤

(ح)

حاتم طي: ١٦١، ١٦٤

الحارث بن خالد: ١٦

الحارث بن عبدالله بن ربيعة: ٣٧٦

الحجاج: ٣٧٤، ٣٧٥

حديج: ٢١٠

الحريري: ٣٢٣

الحسن بن راهويه: ٢٤٩

الحسن بن ضافي النحوي: ١١٠

حفص بن صالح الأزدي: ١٢٥

حفصة: ٢٩٢

حمد الجاسر: ٣٦٩

(خ)

خاقان: ٢٤٦

الخلفاء الراشدون: ٢١٨، ٢٦٣، ٣١٦

خليل بن أييك: ٢٢

الخوارج: ٣٧٤

(د)

دار ابن لقمان: ٣٨٦

الديلم: ٣٨٨

(ر)

رجاء بن عبدالعزيز: ٣١١

الرسول (ﷺ): ١٩، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٢٨

٢٥١، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٩١، ٢٩٢

٣٠٨، ٣١٦، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥٠

الرشيد (هارون): ٢٥٩، ٣٥٠

الروم: ٣٨٦

(ز)

الزبير بن بكار: ٢٩٣

زكريا بن الطيفوري: ١٣٩

الزهري: ٢٧٩

زياد: ٣٢٦، ٣٢٥

الزير سالم: ٦٠

(س)

- العباسيون: ٢١٨، ٢٤٨، ٣٥٠، ٣٥٥
عبد الأعلى: ٥٦
عبد الجبار بن سعيد المساحقي: ٢٩٣
عبد الحميد بن زيد بن الخطاب: ٣٨١
عبد الرحمن بن أبي الزناد: ٢٥٣
عبد الشارق بن عبد العزيز الجهني: ١١٦، ١١٥
الملك عبد العزيز: ١٩٩
عبد الله بن الزبير الحميدي الأسدي: ٩٩
عبد الله بن سعيد: ٩٤
عبد الله بن عباس: ١٨٥، ١٨٦، ٢٣٧
عبد الله بن علي: ٣٧٦
عبد المطلب: ١٣٠، ١٣١، ٣٦٤
عبد الملك بن مروان: ٢٣١، ٣٤٤، ٣٤٥
عيسى: ٢٧٨، ٣٥٦، ٣٥٨
عبيد بن هلال: ١١٥
عثمان بن حيان: ٢٢٩
العجيري: ١٩٥
عطاء بن مسلم: ١٠١
العلاء بن المنهال: ٢٤٦
علي بن أبي طالب: ٢٣٧
علي بن الحسين: ١٥٨
عمر بن الخطاب: ٣٤، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٤٢
عمر بن شبة: ٢٧٠
عمر بن عبد العزيز: ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٧٠، ١٧١، ٢٦٤، ٣٥١، ٣٨١
عمرو بن محمد بن أبي الحكيم بن جنادة: ١٠١
عمرو بن معدي كرب: ٣٧٠
سعدة بنت سالم بن عبد الله بن عمر: ١٢٠
سعيد بن المسيب: ١٦
السفاح (أبو العباس): ٢٥٩، ٣٤٩، ٣٥٠
سفيان بن عيينة: ٩٩، ١٩١
سكينة بنت الحسين: ١٢٠
السلامي: ٢٥٩، ٣٤٩
سليمان بن ربيعة الباهلي: ٣٧٠
سليمان بن عبد الملك: ٣٣٧، ٣٣٨
السميط: ٣٣١
القاضي سوار: ١٩٠
سيار أبو الحكم: ٢٠٥
سيف الدولة الحمداني: ٣٨٦

(ش)

- الشافعي: ٢١٤، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٠
الشعبي (عامر): ١٧، ١٩، ٢٠، ١٢٥
٣٥٦، ٣٢٥
الشهريز: ٣٨٢

(ص)

- صخر بن عمرو بن الشريد السلمي: ٢٣٥، ٢٣٤

(ع)

- عائشة: ٢٩٢
عائشة بنت طلحة: ٢٠٩
العباس بن عبد المطلب: ١٣٠
عبد الله بن عباس: ١٣٠

معاوية السكسكي: ٣٣٢، ٣٣١
معاوية: ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٤٥، ٢٠٩،
٢١٠، ٢٥٩، ٣٤٩، ٣٥١

المعتصم: ١٤٢

معتمر بن سليمان: ٦١

المغيرة بن شعبة: ٢٢٥

منصور بن زياد: ٣١١

موسى بن عقبة: ٢٩٣

مؤمنة بنت بهلول: ٢٠٩

ميسرة: ٣٣١

ميسون بنت بجدل الكلبية: ٢٠٩

(ن)

النخعي: ١٥٤، ٣٥٧

نصيب: ١٣٥

النضر شميل: ١٤٨

نعيمان: ٣٠٨

(هـ)

هارون الرشيد: ٣١١

الهاشميون: ١٣٠

ابن هبيرة: ٦٩، ٧٠

هشام بن عبد الملك: ٧٣، ٧٤

هلال بن الأسعر: ٦١

همدان: ٣٨٩

الهنود: ٣١٤

(و)

الواق واق: ٥٩

وكيع: ٢٨٤

(ي)

يحيى بن خالد البرمكي: ٣١١

عمر بن هبيرة: ٢٨
عنتر بن شداد: ٦٠، ٢٧٨
عون بن عبدالله: ٢٣٠
عيسى بن عمر الثقفي: ٢٨

(غ)

غيلان بن سلمة الثقفي: ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٥

(ف)

الفرزدق: ٣٥

(ق)

قيلان: ٢٣

القرشيون: ٢٣٩

قريش: ٣٠٠، ٣٦٤

(ك)

كسرى: ٥٤، ٣٠١، ٣٠٢

كمال الدين بن عمر بن أحمد بن جرادة

(ابن العديم): ٧٩

كنانة: ٣٦٤

(ل)

ليبيد: ١٩٩، ٢٢٥، ٢٢٦

لويس التاسع: ٣٨٦

(م)

مالك بن دينار: ٢٠٥

محمد بن عمران: ٢٣٩

محمود الوراق: ٩٥

مدحج: ٣٥٧

مرثد: ٣٨٩

مروان بن محمد: ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢

(٤) فهرس الأماكن

الطائف: ٣٢٥، ٣٠٠	أمريكا: ٣٦٩
العراق: ١٥، ١٦، ١٤٥، ١٧٧، ٢٤٨	الأنبار: ٣٧٣
عمورية: ٢٠٠	بريقيا: ٢٧٣
القادسية: ١٩٩	البصرة: ٢٨، ٢٧٠
القاطول: ٣١١	بغداد: ٧٧، ٢٧١، ٢٧٣
الكوفة: ٢٧٤، ٢٧٣، ٣٥٨	بيت المقدس: ٢٢٨
مدينة السلام: ١٤٠	جزيرة العرب: ١٣
المدينة المنورة: ٧٣، ٧٥، ١٨١، ٢٣٩	الحجاز: ١٣، ١٥
مرو: ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠	حمص: ٣٣٢، ٣٣١
مصر: ١٤٥، ١٧٧، ٣٠٩	حنين: ١٩٩
مكة: ١٣، ١٤، ١٥، ٧٧، ٧٨، ١٢٠	دمشق: ٧٥
المنصورة: ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٦	زمزم: ٧٨، ٩٩، ١٠٠
منى: ١٢٠	سامرا: ٣١١
نجد: ٥٩	سقيطشا: ١٤٠
نهر الكلبة: ١٤١	الشام: ١٤٥، ١٧٧، ٢٥٢، ٣٣١، ٣٣٥
الهند: ١٤، ٣١٧	٣٧٦
	الصين: ١٤، ٢٨١، ٣١٣



(٥) فهرس المراجع والمصادر

- ١ - أخبار الظراف والمتماجنين
لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي
تقديم: عبدالأمير مهنا
دار الفكر اللبناني - بيروت
الطبعة الأولى: ١٩٩٠ م
- ٢ - أخبار القضاة
لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع)
عالم الكتب - بيروت
- ٣ - الإشراف
لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا
تحقيق: الدكتور نجم عبدالرحمن خليفة
مكتبة الرشد - الرياض
الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م
- ٤ - إطلالة على التراث
لعبدالعزیز بن عبدالله الخويطر
الطبعة الأولى - مطبعة سفير
- ٥ - البصائر والذخائر
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق: الدكتورة وداد القاضي
دار صادر - بيروت
- ٦ - بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس
لأبي عمر يوسف بن عبدالله القرطبي
تحقيق: محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية - بيروت

٧ - البيان والتبيين

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
الطبعة الأولى: مطبعة التاليف والترجمة والنشر

٨ - تحفة العروس ونزهة النفوس

لعبدالله محمد بن أبي القاسم التجاني
تحقيق: محمد إبراهيم الدسوقي
مكتبة ابن سينا

٩ - التذكرة الحمدونية

لمحمد بن الحسن محمد بن علي بن حمدون
تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس
دار صادر - بيروت و الطبعة الأولى: ١٩٩٦م

١٠ - كتاب التوابين

لموفق الدين بن قدامة المقدسي
تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط
دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م

١١ - تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل أبيك الصفدي
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٢ - جيل الدربة

للدكتور عبدالسلام العجيلي
الطبعة الأولى: ١٩٩٠م

١٣ - المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي

لأبي الفرج المعافى ابن زكريا النهرواني الجريري
تحقيق: إحسان عباس

١٤- الحدائق الغناء في أخبار النساء

لأبي الحسن علي بن محمد المغافري المالفي

تحقيق الدكتورة: عائدة الطيبي

الدار العربية للكتاب - ليبيا، تونس: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

١٥- الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

دار إحياء التراث - الطبعة الثالثة: ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

١٦- ديوان الشافعي

محمد بن إدريس الشافعي

تحقيق: الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي

مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

١٧- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار

للإمام محمد بن عمر الزمخشري

تحقيق: الدكتور سليم النعيمي

١٨- سراج الملوك

لمحمد الوليد الطرطوشي

تحقيق: جعفر البياتي

نشر: رياض الريس للكتب والنشر

١٩- كتاب العقد الفريد

لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة: ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م

٢٠- عيون الأخبار

لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة

تحقيق: الدكتور يوسف علي الطويل

دار الكتب العلمية - بيروت

٢١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء

لأين أبي أصيبعة

دار الثقافة - بيروت - الطبعة الثانية

٢٢- الكشكول

لبهاء الدين العلوي

تحقيق: الطاهر أحمد الزاوي

دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)

٢٣- كليلة ودمنة

الطبعة الثانية

دار الشروق: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٢٤- كتاب لطف التدبير

لمحمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي

دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

٢٥- مجالس ثعلب

لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب

تحقيق: عبدالسلام هارون

دار المعارف - الطبعة الخامسة

٢٦- المراح في المراح

لبدر الدين أبي البركات محمد الغزي

تعليق: أحمد عبيد

الناشر: مكتبة المعارف - الطائف

٢٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل

الطبعة الثانية

المكتب الإسلامي - بيروت: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

٢٨- معجم الأدباء

لياقوت الحموي

دار إحياء التراث - بيروت

٣٠- معجم الكلمات الشعبية في نجد

إعداد: عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع

الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ

٣١- يوم ومالك

لعبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الطبعة الثالثة: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م



(٦) فهرس أبيات الشعر

- إن الأفاعي وإن لانت ملامسها
 أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
 إنك يا ابن جعفر خير فتى
 أيا أم ذا المولود لا شب قرنه
 أرجزا تريد أم قصيدا
 حنقني حانيات الدهر حتى
 يهوي وترفعه الرماح كأنه
 سلي الجائع الغرثان يا أم منذر
 انظر إلى حسن صبر الشمع يظهر للـ
 إذا جاء يوم صالح فاقبلته
 الدهر أبلاني وما أبليته
 الدهر أبلاني وما أبليته
 العلم مغرس كل فخر فافخر
 وتجلدي للشامتين أريهموا
 ودل المشيب على رأسه
 لحافي لحاف الضيف والبيت بيته
 فلا رأي أبو غيلان إذ حسرت
 علمي معي حيثما يمتت يتبعني
 إن التهـاـون والكسـل
 إن التهـاـون والكسـل
 كلما أدبني الدهر
 أماطت كساء الخز عن حر وجهها
 تعلم فليس المرء يولد عالما
 قال لي كيف أنت؟ قلت عليل
 فاسقني شربة الذّ عليها
- عند التقلب في أنيابها العطب ٢٠٠
 ويخصب عندي والمحل جديب ١٦٥
 وخيرهم لطارق إذا أتى ١٦٥
 ولا زال فيه سقمه يتردد ٣٨٩
 فقد سألت هينا موجودا ٢٢٥
 كاني خاتل يدنو لصيد ٩٣
 شلو تنشب في مخالب ضار ١١٦
 إذا ما اتاني بين ناري ومجزري ١٦٤
 رائين نوراً وفيه النار تستعر ٨٩
 فانت على يوم الشقاء قدير ٨٤
 والدهر غيرني وما يتغير ٩٣
 والدهر غيرني وما يتغير ٩٥
 واحذر يفوتك فخر ذاك المغربس ٢٨٣
 اني لريب الدهر لا أتزعزع ٨٨
 وأعقب من بعد شيب صلع ٩٥
 ولم يلهني عنه غزال مقنع ١٦٥
 عني الأمور إلى أمر له طبق ٣٠١
 صدري وعاء له لا بطن صندوق ٢٨٤
 أحلى مذاقا من غسل ٢٩
 أحلى مذاقا من غسل ١٦٧
 أراني نقص عقلي ٢٨٥
 وأرخت على الكشحين برءا مهلا ١٦
 وليس أخو علم كمن هو جاهل ٢٨٥
 سهر دائم وحزن طويل ٢٤
 ثم عد مثلها لهشام ٢٦٤

- ما في القضاء شفاعة لمخاصم
اسجناً وقيداً واشتياقاً وغربة
اضحك مع اللي ضحك والهم طاويني
اصبر على مر الجفا من معلم
بنيتي إن نام نامي قبله
أهين لهم نفسي وأكرمها بهم
نعيب زماننا والعيب فينا
رمانى الزمان بنشابيه
لقد علمت وما الإشراف من خلقي
تنادوا يال بهثة يوم صبر
يا أيها السائل عن منزلي
شكوت إلى وكيع سوء حظي
أرى أم صخر ما تمل عيادتي
- عند اللبيب ولا الفقيه الحاكم
ونأي حبيب إن ذا العظيم
طوية شئون الطرق وإن قطروا ماها
فإن رسوب العلم في نفراثة
وأكرمي تابعه وأهله
ولا تكرم النفس التي لا تهينها
وما لزماننا عيب سوانا
فحل به الظهر والركبتين
أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
فقلنا أحسنني ضرباً جهيناً
نزلت في الخان على نفسي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وملت سليمى مضجعي ومكاني



نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عين في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عين وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل من الجامعة رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين تقريباً ثم وزيراً للصحة لمدة عامين تقريباً ثم وزيراً للمعارف لمدة ٢١ عاماً .
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألّف عام ١٣٩٥هـ كتاب «في طرق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره .
- حقق كتاب : «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع ابن علي ، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل ، نشر في عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- ألّف عام ١٤١٢هـ / ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين» .
- ألّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب «أي بني» في خمسة أجزاء .
- ألّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» في ستة عشر جزءاً .
- ألّف عام ١٤١٨هـ كتاب «يوم وملك» الجزء الأول .
- ألّف عام ١٤١٩هـ كتاب «ملء السلة من ثمر المجلة» الجزء الأول .

التوزيع

يطلب هذا الجزء من كتاب «ملء السلة من ثمر المجلة» ، وكذا اصدارات المؤلف

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

١١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤ * جلة - ت : ٦٨٢٦١٠٥

٨٢٧١ * القصم - ت : ٣٦٤٤٣٦٦ * خميس مشيط - ت : ٢٢٢٠٧٥٨